

المقدمة

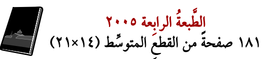
هذه فصول إسلامية، كُتبت في أزمنة متباعدة فاختلف أسلوبها، ولكن اتحدت -بحمد الله- أغراضها ومقاصدها. وربما تكررت فيها المعاني، ذلك لأن الشُّبَه تكرّرَ ورودها فاضطررنا لتكرار ردها. وإن من الحقائق ما لا تضرّ معه الإعادة ولا تُبليه كثرة الرد.

وأنا أسأل الله أن ينفع بها وألاّ يحرم كاتبَها الثواب عليها.

المؤلف

صفحة فارغة

الطّبعةُ الرابعة ٢٠٠٥
١٨١ صفحة من القطعِ المتوسّط (١٤×٢١)





دعوة الإسلام

خطبة جمعة أُلقيت على منبر مسجد جامعة دمشق سنة ١٩٥١.

نحن في عصر انتقال، كما كنا أوائلَ عهد العباسيين يوم اختلطوا بالفرس وأخذوا منهم وأعطوهم، وكما كان الرومان لمّا اتصلوا باليونان. وفي عصور الانتقال تتعدّد مسالك الحياة وتتزاحم المذاهب والدعوات.

فأين هو مكان دعوة الإسلام بين هذه الدعوات؟ هذا ما أريد بيانه في هذه الخطبة.

* * *

إن دعوتنا -أيها السادة- هي دعوة الكمال، فكلما تردد الإنسان بين طريقين دعونا إلى خير الطريقين. إنْ تردّدَ العقلُ بين حق وباطل كانت دعوتنا هي دعوة الحق، وإن تردّدَ الطبعُ بين فضيلة ورذيلة كانت دعوتنا هي دعوة الفضيلة، وإن تردّدَ المرءُ بين لذة وواجب كانت دعوتنا هي دعوة الواجب.

ونحن نعترف أنها دعوة لأصعب الطريقين وأشق الأمرين؛ ذلك لأن الانحدار مع الهوى سهل، ولكن الصعود إلى المثل الأعلى صعب. والماء ينزل وحده حتى يستقرّ في قرارة الوادي، ولكنه لا يصعد إلاّ بالمضخّات.

والذي يدعو إلى الإثم يغري الناس بكل لذيذ ممتع يهواه القلب ويعشقه الطبع، من لذّة النظر ولذة اللمس، واللذة الأخرى التي ركّبها الله في كل نفس، فما الذي يغري به الناسَ داعي الصلاح؟ ليس له ما يغريهم به إلا رضا الله، والعمل للآخرة، وترك عاجل محقَّق لآجل هو عند ضعاف الإيمان غير محقق. لذلك أثنى الله على المؤمنين بالغيب ووعدهم أعلى المراتب في الجنة، ولذلك يجتمع على حرب دعوتنا أولياءُ النفس والشيطان، واللاهون العابثون الذين لا يفكرون بشيء ولا يهتمون لشيء.

والإنسان مركّب من ملَك وسبع وشيطان؛ فللشيطان الكفر واللذة الحرام، وأتباعه من الناس هم الذين يحركونه في الإنسان، بالاستهتار والإباحة ونهل اللذات من كل ينبوع والاستمتاع بالجمال أينما كان.

وللسبع الشدة والبطش والسطو والظلم، والمضلّون يوقظونه في الإنسان بحب الغلبة والسيطرة والانتقام.

وأما الملَك فله الإيمان والإحسان، وأولياؤه الأنبياء، وورثة الأنبياء من العلماء.

ورأس دعوتنا أن نوقظ الملَك في الإنسان حتى يكفّ يدَه عن الظلم، وجوارحَه عن اتباع الشهوة إلا من طريق الحلال، وأن يسأل الإنسانُ نفسَه: لماذا خُلقت وإلى أين المسير؟ ويتفكّر في

خلق السموات والأرض وفي خلق نفسه، وفي غاية الخلق وفي حقيقة المصير.

على حين يصحو أولئك فيُقبلون على أكلهم ولبسهم، ثم يذهبون إلى عملهم فيغرقون في سعيهم وفي كسبهم، ثم يعودون المساءَ مثلما بدؤوا في الصباح، لا يخلون بأنفسهم ساعة يفكرون؛ قد شغلتهم توافه الحياة عن مقصد الحياة، وألهتهم مناظر الطريق عن غاية السفر. يأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوىً لهم. وهم ينظرون حولهم ناكسي رؤوسهم ليروا جوانب الأرض، ونحن ندعو إلى رفع الأنظار إلى السماء لنتصل بالله. هم يعملون ليومهم وحده ولا يرون إلا ما بين أقدامهم، ونحن ندعو إلى مدّ البصر إلى الأمام، فننظر إلى بعيد ونعمل ليومنا ولليوم الآخر.

ودعوتنا واضحة صريحة وطريقنا مستقيم بيّن، لا حجب لدينا ولا أستار ولا خفايا ولا أسرار. إننا نعلن مبادئنا كل يوم خمس مرات: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، الله أكبر»، فهل رأيتم أو سمعتم بدعوة يُكرَّر قانونها الأساسي خمس مرات كل يوم، يُصاح به على المآذن؟

ونحن ثابتون على دعوتنا، لا نستطيع أن نساوم فيها أو ننقص منها، لأنها ليست دعوة وضعيّة نحن وضعناها فنحن نملك التصرف فيها، بل هي دعوة إلهية ألقاها ربنا من فوق سبع سماوات على رسول منا، فمَن شاء فليتّبعها ليكون معنا ومن شاء فليخالفها، ومَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر. إنما نحن دعاة، وعلى الله الحساب.

وهذه الدعوة أقوى من أن يردّها شيء لأنها ذكر الله، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾.

وقد لقي الإسلام مصائب شِداداً، ورأى أياماً أشد سواداً، وقامت في وجهه مصاعب فكرية ومادية، فما وقفت[1] سيرَه لحظة. من مكايد المشركين واليهود، إلى القرامطة والباطنية والتتر والصليبيين، إلى الصليبيين واليهود اليوم مرة ثانية... والإسلام هو الإسلام.

وسترون أنتم يا أيها الشباب -إن امتدّ بكم الأجل- يوماً لم يبقَ فيه في الشام واحدٌ يقول بهذه الشُّبَه والضلالات التي تملأ الدنيا وتشغل الناس اليوم، وتصدم بضجيجها كل أذن وتزكم بريحها كل أنف، وسيقرأ هذه الخطبةَ ناسٌ يومئذ فيسألون متعجّبين: ما هذه الضلالات التي يشير إليها؟ ولا يجيبهم أحد، لأنه لا يعرفها يومئذ أحد.

إنها كالحشائش التي تنبت على أرجل السنديانة الضخمة، يأتي بها الربيع ويذهب بها الخريف، والسنديانة لم تحسّ بها. وهذا خيال دون الحقيقة، لأنها ستموت كل سنديانة في الأرض ولكن الإسلام لن يموت أبداً.

ولقد كانت فتنة القرامطة -مثلاً- تملأ الأرض كلها وتهدد الإسلام، حتى إن أتباعها اقتلعوا الحجر الأسود وذبحوا الحجّاج على ظهر الكعبة حتى سالت دماؤهم من ميزاب الرحمة، وحَسِب

(١) وقف يتعدى بنفسه، ولا يقال أوقف.

ضِعافُ الأحلام أنها نهاية الإسلام. فأين القرامطة اليوم وأين مَن يعرف خبرهم؟

* * *

إن أول ما ندعو إلى فهمه أن الإسلام ليس ديناً كالأديان، إن الدين عند العلماء الأوربيين، ومن يتكلم منا بلسانهم ويأخذ عنهم، هو ما يربط الإنسان بالله، ومكانه المسجد أو الكنيسة أو المعبد، ولذلك قالوا إن الدين لله والوطن للجميع، وقالوا بفصل الدين عن السياسة وفصل الدين عن العلم. وهذا حق في دين الإسلام وفي غير الإسلام من الأديان، ولكن ميزة الإسلام أنه ليس ديناً فقط؛ بل هو دين، وهو تشريع، وهو أخلاق، وهو سياسة، وهو علم.

افتحوا أي كتاب من كتب الفقه تروا فيه باب العبادات، وهذا وحده الدين في عرف الأوربيين. وباب المعاملات، وهذا هو القانون المدني. وباب العقوبات، وهذا هو القانون الجزائي. وباب المناكحات، وهو قانون الأحوال الشخصية. وأحكام الإمارة والبيعة، وهو الدستور، أي القانون الأساسي. وباب الجهاد، وهو القانون الدولي.

فالإسلام للفرد: يبيّن له ما يحل له وما يحرم عليه، وكيف يقوّي جسمه ويصلح نفسه ويكمل أخلاقه.

والإسلام للأسرة: يحدد صلات الولد بأبيه، والأخ بأخيه، والزوج بزوجه مالياً وأدبياً.

والإسلام للسوق: يبين حلال المعاملات من حرامها.

والإسلام للحاكمين والمحكومين، والمسلمين والمحاربين، فلا يخطو المسلم خطوة ولا يعمل عملاً إلا وللإسلام فيه حكم من الأحكام الخمسة، وهي الوجوب أو الندب أو الإباحة أو الكراهة أو التحريم.

ونحن لا نكره هذه الحضارة الغربية ولا نرفضها جملة كما يفعل الجَهَلة المتعصبون، ولكن لا نقبلها كذلك جملة كما يفعل القردة المقلّدون، بل نحكّم فيها شرعنا وعقولنا، فنأخذ منها وندع.

نأخذ أخذ المبصر المميّز لا أخذ الأعمى الجَهول، ولا كمَن كان في الظلام فخرج إلى النور فعشيت عيناه، ولا القرد الذي قلّد النجار فعلق ذنَبه في الشق، ولا محمد خالد والقصيمي وأمثالهما، ممن يريد أن يقال إنه متمدن... فلا يجد سبيلاً إلى ذلك إلا ببذل شيء من دينه ومن ضميره ومن منطقه، حتى يبرز على الناس بلا دين ولا منطق ولا ضمير، فينعب كالغراب: «من هنا نبدأ»!

من هنا نبدأ، ولكن إلى أين ننتهي بدعوتك يا سيد غراب؟ إلى الخراب.

* * *

بل إنه ليجب علينا وجوباً أن نأخذ كل نافع من حضارة الغرب ووسائل القوة وطرائق العلم وأسباب العزة والرفاهية، وألاّ نتخلف عن ركب المدنية؛ فلقد كنا أبداً في الطليعة، ولولا وقوف الأتراك الذين كانوا قادتنا يومئذ ما سبقتنا أوربّة أبداً.

ونحن أمة العروبة وأصحاب دعوتها، وبنا فخارها؛ لساننا عربي ونبينا عربي وعاداتنا عربية، وتاريخ العربية هو تاريخنا وسلائق العربية سلائقنا، ولكنا نُهينا أن ندعو إلى العصبيات فنقطع رابطة المسلمين ونفرق جمعهم ونُذهب ريحهم، وهذا ما يسعى إليه المستعمرون. وقد بطلت اليوم دعوة العصبية التي كانت (موضة) القرن التاسع عشر وصار في الدنيا دعوتان عالميتان: ديمُقراطية وشيوعية، ونحن لا نريدها غربية ولا شرقية ولكن عربية إسلامية.

إن من معجزات الإسلام أنه سبق عصره سبقاً طويلاً، فصنع أمة ليس لها في وحدتها نظير من أمم شتى مختلفة ألسنتهم وألوانهم، تجمعهم كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والقبلة البيت الحرام.

وإذا كانت الشيوعية، وكانت الديمقراطية، تحاول أن تحل مشكلات العالم، فالإسلام يحلها على طريقته وأسلوبه. وهو نظام كامل لا نحتاج معه إلى البحث عن «الديمقراطية في الإسلام» «والشيوعية في الإسلام» تقرّباً إلى أهلهما وتزلفاً كما يصنع بعض قِصار النظر منا، ولو عقلت أمم الإسلام لكانت كتلة ثالثة ضخمة[١] تطفئ هذه النارَ التي ينفخ فيها الشيوعيون والغربيون ليحرقوا بها الحضارة وأهلها، وتعيد إلى الدنيا الأمن والسلام بالإسلام.

ونحن لا نكره الدعوة إلى العروبة. إنها دعوتنا نحن معشر

(١) هذا الذي قلناه سنة ١٩٥١ وأوردناه على أنه أمل ورجاء صار الآن حقيقة واقعة.

المسلمين، وكل داع للإسلام داع لها. وهذه أمم الأعاجم من الفرس والترك والهند والصين، ما الذي علمهم العربية وحبّب إليهم أهلها إلا الإسلام؟ وكل دعوة إلى العروبة دعوة إلى الإسلام، إذ ما العربية، وما الإسلام، وما العرب، لولا محمد؟

لولا محمد ﷺ لبقي العرب أمة بدوية جاهلية، لم يدرِ بها التاريخ ولم تحسّ بها الحضارة.

إنه لم يكن في قريش (وهم أكمل العرب) لمّا بُعث فيهم محمد ﷺ إلا أحد عشر رجلاً وامرأة واحدة يكتبون، والباقون أميون. وحنيفة صنعت لها رباً من التمر فلما جاعت «أكلت حنيفةُ ربَّها»! وكان وأدُ البنات وإضاعة حق المرأة، فبنى العرب بعد الإسلام عروبة دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة، ووضعوا هذه العلوم وهذه الفنون وهذه الحضارة، وألّفوا هذه المؤلفات التي تدأب المطابع في الشرق والغرب من مئة سنة على طبع القليل الذي بقي منها، ولم تطبع بعدُ إلا الأقل من هذا القليل.

وكان محمد ﷺ هو الذي لقّنهم كلمة «العربية»؛ لم يكونوا يعرفونها من قبله. هاتوا شاعراً واحداً فخر بالعرب من حيث هم عرب. إنما كان فخرهم بالقبيلة، ببكر أو تغلب أو عبس أو ذُبيان.

إنها أمة واحدة ذات رسالة خالدة، نعم، ولكنها تكون واحدة إن اتحدت فيها العقيدة، وما رسالتها الخالدة إلا رسالة الله، ومحمد رسولها. فمَن نصب الحرب للرسالة الخالدة وفرّق الأمة الواحدة كان كاذباً مرتين: مرة لأنه قال ولم يعمل، ومرة لأنه عمل بغير ما قال.

فهل في الشباب من يريد أن يكون كاذباً مرتين؟[١]

* * *

ونحن ندعو إلى التشريع الإسلامي، ولكن لا كما يرجف بنا المخالفون ويشيعون عنا؛ إننا لا نريد أن نطبّق «حاشية ابن عابدين» -مثلاً- بكل ما فيها ولا كتب المتأخرين، بل ننظر إلى الأحكام التي ورد عليها النص في الكتاب أو الحديث الصحيح فلا نخالفها. أما الأحكام التي بُنيت على عُرْف واستندت إلى اجتهاد فإنه لا يُنكَر في مثلها تغيّر الأحكام بتغيّر الأزمان.

ففي الحقوق الأساسية لا يشترط الإسلام شكلاً معيناً للحكومة ولا طريقاً معيناً لإدارتها، إنما يشترط الانتخاب الصحيح في الحاكم

(١) هذه الخطبة طبعتها «جمعية الهداية الإسلامية» الدمشقية في رسالة صغيرة ووزّعتها يومئذ على الناس، وفي أصلها في هذا الموضع فقرة لم تُثبت في الكتاب في طبعاته المتداولة، وهي هذه، أثبتُها هنا لتمام الفائدة وبيان المقصود: "إنها دسيسة أجنبية تريد أن تفصلنا عن إخواننا هناك، عن مئة مليون في الهند والباكستان، وخمسين في أندونيسيا وخمسين في الصين، ومئة في تركيا وإيران وأفغانستان وسائر بقاع الأرض. إنهم أبناء وطننا الأكبر؛ إن وطننا كل أرض يُصدَح فيها بالأذان وأبناء وطننا كل من يقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى. كلا، لا نريدها عصبية جاهلية نضعف بها وننقطع بها عن إخواننا كالدعوة إلى القومية السورية، وما في الدنيا شيء -على التحقيق- اسمه القومية السورية" (مجاهد).

(أي البيعة)، والشورى في الحكم، وذلك بعد التقيد بنصوص الدين. وكل حكومة انتخابية -سواء كانت جمهورية محدَّدة بمدة أو ممتدّة مدى الحياة، وكانت لا تخالف هذه النصوص- فهي حكومة إسلامية. أما هذا النظام البرلماني فلا يخالف روح الإسلام، ولكنه لم يثبت على التجربة ولم ينجح إلا في إنكلترة، وهي معدنه ومنها مخرجه.

وفي الحقوق المدنية نقبل كل قاعدة وكل حكم لا يخالف النص ويضمن تحقيق العدالة. ومن مزايا الإسلام أنه ترك أكثر الأحكام في المعاملات لاجتهاد المجتهدين، ليراعى فيها الزمان والمكان وأحوال الرعية وأعرافها. ولذلك كثرت فيها المذاهب وتعددت الأقوال، حتى صار عندنا ثروة حقوقية لا تعادلها ثروة، لا الحقوق الرومانية ولا الحقوق الغربية اليوم. وأنا أقول ما أقول عن بيّنة وأثبت ما أقول بالأدلة.

فلماذا ندع هذا كله و(نشحد) القانون المدني من فرنسا أو ممّن (شحدوه) من فرنسا؟ إننا إن لم نأخذ آراء فقهائنا على أنها دين، فلنأخذها على أنها ثروة قومية ومفخرة وطنية، ولأنها مشتقة من طبيعة مجتمعنا، ولأنها تعالج مشكلات أمتنا.

وفي الحقوق الجزائية نقيم الحدود، وهي العقوبات القليلة المنصوص عليها، ويكون لنا الخيار بعد ذلك في وضع قانون العقوبات على ما نرى فيه مصلحة الأمة وردع المجرمين.

والحدود هي العقوبات الموضوعة للقتل والسرقة والزنا وأمثالها. ويستشكل الآن عقوبة السرقة والزنا. أما عقوبة السرقة

فليست (كما يتوهّم مَن لا اطّلاع له على كتب الفقه) مطلقة عامة في كل سرقة مهما قلّت؛ فلقد اختلف الفقهاء في تعريف السرقة المستوجبة العقوبة ومقدار المسروق وحال السارق وظروف السرقة، مما لا مجال لتوضيحه هنا، فينتج من ذلك أن العقوبة لا تجب إلا في أقل الحالات، وهي -بعد ذلك- عقوبة يكفي أن تطبَّق أمداً قصيراً حتى لا تحتاج إلى تطبيق بعدُ، كما وقع في الحجاز. وأما عقوبة الزنا فالشرط فيها أن يرى العضو في العضو أربعة شهداء، وهذا أمر كالمتعذر. ولا تطبق إلا في حال الاعتراف، ثم إنها تُدرَأ بالشبهات.

وما عدا ذلك من القوانين النافعة (كالسجل العقاري، وسجل النفوس، وقوانين البلديات، وكل قانون ينفع الناس ولم يَرِدْ أمر به ولا نهي عنه) فهو شرعي، على قاعدة «المصالح المرسلة». ونحن ندعو إلى تأليف لجنة من كبار العلماء، ممّن لهم بصر واسع في الفقه ووقوف على الأدلة وإدراك لمقاصد الشريعة وبعدٌ عن التعصب الفكري والمذهبي، فيُعرض عليها مشروع كل قانون قبل إقراره لبيان حكم الله فيه.

إن دعوتنا هي دعوة الإيمان بالله وحده لا شريك له، فلا نقيم أصناماً من حجر ولا أصناماً من لحم ودم، وبأنه هو الذي يقسم الأرزاق ويقدر الأعمار، فلا نخاف في الحق أحداً ولا نطيع في معصية الخالق مخلوقاً، ولا ندع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هي دعوة الصدق والاستقامة؛ فلا يكون المسلم غشّاشاً ولا كذّاباً ولا سرّاقاً، ولا دجّالاً ولا (شحّاداً) ولا بطّالاً، ولا فظاً غليظاً ولا رخواً ذليلاً.

هي دعوة المحبة والأخوة؛ المسلم أخو المسلم، لا يؤذيه بيد ولا لسان ولا يظلمه ولا يعدو عليه. والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. وفي «كل ذات كبد حرّى أجر»[1]، حتى في الإحسان للحيوانات العَجماوات.

هي دعوة القوة والعزة والجهاد: جهاد النفس وجهاد العدو، الجهاد باللسان والجهاد بالمال والجهاد بالنفس، وأن يعمل المسلم للدنيا كأنه يعيش فيها أبداً وأن يعمل للآخرة كأنه يموت غداً.

وإن المرأة أخت الرجل؛ لها حقوقها المالية والاجتماعية، ولها طلب العلم، ولها المنزلة والكرامة، على ألاّ تتكشف التكشف المؤدّي إلى المعصية فتبدي أكثر من الوجه والكفين، في غير ما فتنة منها أو بها[2]. وألاّ تختلط بالرجال الاختلاط المؤدّي إلى الفساد، لا في الجامعة، ولا في السوق، ولا في النزهة، ولا في الدار. وألاّ تخلو امرأة برجل أصلاً إلا إن كان محرماً لها، وألاّ تسافر إلا مع محرم لها.

وإن من واجبات المسلم محاربة المنكرات والبدع في الدين، والتمسك بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

وإن الإسلام دين النظام، فلا فوضى في الإسلام.

---

(١) أي أن في العطف على الحيوان أجراً.

(٢) فإن خشيت الفتنة من الوجه وجب ستره.

وإن من إقامة الإسلام نشر العدالة الاجتماعية بين الناس، ومنع الظلم، وألّا يتخذ بعضُ الناس بعضاً أرباباً من دون الله، وألّا يستعبد أحدٌ أحداً.

ولسنا ندعو إلى الطفرة ولا إلى الثورة، لا خوفاً من أحد فإن المسلم لا يخاف إلا الله، ولكن اعتقادنا أن الذي يأتي بالطفرة يذهب بالطفرة، وأن التدرج سنّة الله، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً: الولد الذي يخرج من بطن أمه فيمشي ويتكلم ويلبس ثيابه بيديه لا يكون إلا عفريتاً أو يكون معجزة، والبذرة التي تغرسها في التراب فتصير من فورها شجرة باسقة لا تكون إلا شعوذة أو عجيبة. والفساد ما جاء في يوم واحد حتى يذهب في يوم واحد. لقد قصّر النساءُ الملاءةَ أصبعاً أصبعاً، حتى خرجن سافرات بالأكمام اليابانية، وحتى اختلط في الجامعات الفتياتُ المسلمات، بنات الصالحين، بالشباب الأجانب. فلنرجع إلى الصلاح خطوة خطوة وأصبعاً أصبعاً.

ولا تلقوا بالاً لمن يقول إنها «رجعية»، فإن هذا التكشف هو الرجعية لأن الناس ولدوا متكشفين وكانوا كذلك في فجر البشرية، ثم تحضّروا فاستتروا. فالذي يدعو إلى التكشف هو الرجعي، وكل حمير الدنيا عراة مُباح (في عرفهن الحِماري) العري والاختلاط! وإنما يمتاز البشر بالتصوُّن والتستّر والعفاف.

* * *

هذه دعوتنا؛ هذا هو المتن وستأتي الشروح. هذه هي الخطوط الكبرى، وسنكمل الصورة في الخطب الأخرى إن شاء الله. هذه هي الدعائم الكبرى والأركان، وسنُتِمّ -بما يجيء من البيان- إشادةَ البنيان.

فما الذي يُعاب في هذه الدعوة؟ ما الذي يدفع أقواماً إلى السخط عليها أو الخوف منها؟ أليست دعوة الحق؟ أليست دعوة الفضيلة؟ أليست دعوة العزة؟ أليست دعوة الكمال؟

بلى، وإن الظفر لها والمستقبل لأصحابها، لأنه لا يصحّ إلا الصحيح ولا يبقى إلا الأصلح.

والله معنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

* * *

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

طرق الدعوة إلى الإسلام

نشرت سنة ١٩٥٦

أحفظ حديثاً صحيحاً، دائراً على الألسنة، هو «أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»[١]. ولقد ظهر كثيرٌ من هؤلاء المجددين في كثير من بلاد الإسلام، وكثيرٌ من الدعاة إلى الله، ولقد اطلعت على سِيَرهم جميعاً ووقفت على دعواتهم، فوجدتها كلها تلتقي في المبدأ والغاية؛ مبدؤها جميعاً من الكتاب والسنة، وغايتها ردُّ هذه الأمة إلى دينها، ولكن طرقها مختلفات، كل داع يختار لدعوته طريقاً يصل مبدأها بغايتها.

وقد عرضت هذه الطرق في ذهني فوجدتها تجتمع -على اختلافها- في شوارع ستة كبرى، تتفرع عنها جوادُّ وسُبُل. وهذه الشوارع الستة هي:

١-طريق الدعوة إلى الله بإصلاح الملك أو الحاكم، يجعله الداعي قصدَه ويبلغ في إصلاحه جهده، كما فعل السرهندي في الهند، حين رأى الإمبراطور «أكبر» يكفر ويحمل الناس على الكفر ويحاول أن يمحو الإسلام من تلك البلاد ومن نفوس أهلها، وكان

(١) رواه أبو داود وصحّحه الألباني (مجاهد).

الجيش معه والزعماء يؤازرونه والحكم له والمال تحت يده، والشعب عاجزاً ضعيفاً لا يستطيع أن يأمره بمعروف ولا أن ينهاه عن منكر، فجعل يتصل بأسرته وحاشيته لعله يستخلص واحداً منهم للإسلام. وما زال يعمل هو وأولاده وتلامذته حتى وُفِّق إلى ما يشبه المعجزة حين أخرج الله به وبتلاميذه من صلب ذلك الإمبراطور المرتد الكافر ملكاً كان من أفضل ملوك الإسلام، ومن أعدلهم وأتقاهم وأشدهم حزماً وأكثرهم إصلاحاً، وكان «بقية الخلفاء الراشدين»[١]، هو عالَم كير أورانك زيب بن شاهجهان ابن جِهانكير[٢] بن أكبر.

وهذا الطريق قصير المدى عاجل النفع سريع الثمرة، ولكن ثمرته تبقى ما بقي هذا الحاكم الصالح، فإن زال زالت.

٢-طريق الدعوة الشعبية التي يحميها الحاكم ويؤيدها بسلطانه ويرد عنها الأذى بسيفه، كما فعل محمد بن عبد الوهاب في نجد، حين وجّه دعوته إلى الشعب ولكنه ابتغى من الأمراء أجداد الملك سعود حماة لها ومدافعين عنها، فضمن بذلك النصر والاستمرار.

٣-طريق الدعوة الشعبية التي تحميها الثورة المسلحة، كما فعل أحمد بن عرفان في الهند، حين جنّد أتباعه وحمل أمامهم راية الجهاد، وواتاه النصر حتى أقام دولة إسلامية في شمال الهند

(١) انظر الحديث عنه في كتابي «رجال من التاريخ».
(٢) عالم كير: قائد العالم، وأورانك زيب: زهرة الملك، وشاهجهان: ملك الدنيا، وجهانكير: قائد الدنيا.

تحكم بالكتاب والسنة وتوشك أن تعيد الهند كلها إلى الإسلام، لولا أن الإنكليز لمّا عجزوا عن هدمها بقوة الأسد حاربوها بمكر الثعلب، وأثاروا عليها المسلمين من رجال القبائل القوية المسلحة بحجة أنها دولة وهابية... فكانت النتيجة الفاجعة؛ إذ قضى المسلمون بأيديهم على الدولة الإسلامية الناشئة، ليعيدوا الهند إلى إنكلترا بدلاً من إعادتها إلى الإسلام!

وكما فعل عز الدين القسّام، هذا الشيخ المؤمن القوي الذي استحيا من الله أن يُقرئ تلاميذَه أحكام الجهاد، وأنه يكون فرضاً على المسلمين جميعاً إذا احتل العدو الكافر أرضاً إسلامية، ثم يذهب إلى داره فيأكل الرز واللحم، ويشرب الشاي الأخضر، وينام مطمئناً إلى أنه قام بكل ما يوجبه الإسلام على الرجل المسلم. وخرج معهم بعد أن تدرب على القتال ودرّبهم، وباشر الجهاد فعلاً، يوقع بالإنكليز ويحارب لإعلاء كلمة الله وأن تخلص فلسطين لأهلها، ولبث على ذلك حتى سقط شهيداً.

مضى ولكنه خلّفَ أثراً لا تمحوه الأيام، وكان أول مَن سنَّ لنا في فلسطين طريقَ الجهاد، حتى فعلنا سنة ١٩٣٦ ما لم تستطعه أمة في الدنيا، وسجلنا من روائع البطولات -على قلة العَدد ونقص العُدد- ما لم يسجل مثله تاريخ. ولولا أننا تنكبنا هذا الطريقَ وخالفناه ما كان الذي كان.

٤-الدعوة ببث الأفكار وعرض الحقائق على أفراد الناس، في المجالس والمجامع والطرق وفي كل مكان، وبالأسلوب المناسب والتعبير الموافق لما تقتضيه الحال، من غير دخول في جدل أو اشتباك مع مخالف، كما فعل جمال الدين الأفغاني. وله جملة واحدة مشهورة يلخّص فيها مذهبَه هذا، هي: «قل كلمتك وامشِ». وكما فعل طاهر الجزائري، الذي زاد عليه بأنه كان إذا رأى مخالِفاً له أظهر له التواضع وتجاهل ما يعرفه أمامه، وجاءه بكتاب من الكتب التي تصحّح له خطأه وترده عنه فقال له: إني وجدت هذا الكتاب في مكتبتي ولم أعرف ما فيه، وأنا أحب أن تنظر فيه ثم تخبرني: هل هو نافع لي فأقرأه أم هو من الكتب الضارّة؟ ويترك له الكتاب، فلا تمر أيام ويستكمل قراءته حتى يكون قد رجع عن خلافه.

وهذه طريقة مضمونة النتيجة، ولكنها طويلة والثمرة فيها بطيئة الظهور.

٥-الدعوة إلى الله بالتعليم والإقراء وتأليف الكتب العلمية ونشر القيم النافع منها، كما فعل وليُّ الله الدهلوي في الهند، ومحمد عبده ورشيد رضا في مصر، وعبد الحميد بن باديس في الجزائر.

٦-الدعوة عن طريق الصحف والمجلات والمقالات والمباحث، كما فعل محب الدين الخطيب، وهو أبو الحركة الإسلامية الجديدة في مصر؛ كان قلمه أولَ قلم دعا إليها، وكانت مطبعته السلفية أولَ مطبعة وُقفت عليها، وكانت مجلته «الفتح» أولَ مجلة إسلامية في مصر. وكما فعل شكيب أرسلان الذي كان كاتب الإسلام الأول.

* * *

وفي العالم الإسلامي اليوم دعوتان إسلاميتان اتّسعتا وكثر

أتباعهما حتى صارتا أوسع الدعوات الإسلامية، دعوة في الهند ودعوة في مصر. ولا أستطيع أن أغفل جماعة هي -في رأيي- أصفى الجماعات الإسلامية وأقواها وأشدها تمسكاً بالإسلام، وإن كان عددها قليلاً جداً، هي جماعة المودودي، «الجماعة الإسلامية».

أما دعوة «جماعة التبليغ» في الهند فقد أسسها الشيخ إلياس، وألزم فيها تلامذته أن يبذلوا لها قليلاً من أوقاتهم؛ ساعة في الأسبوع أو يوماً في الشهر أو شهراً في السنة أو أربعة أشهر في العمر، يسيحون في البلاد على نفقة أنفسهم، لا يسألون أحداً معونة بل لا يقبلون المعونة من أحد، يدعون إلى الله ويبلّغون المسلمين رسالة الإسلام لأنهم صاروا -في الواقع- أحوجَ إليها من غير المسلمين.

ولم يكتفوا بالوصول إلى أقصى القارة الهندية، بل رحلوا إلى بلاد الإسلام الأخرى. وقدموا الشام ومصر والعراق، وقد رأيت كثيراً منهم في مكة، ومشى نفر منهم مشياً من مكة إلى المدينة ومن مكة إلى اليمن، يعرّفون بَدْوَ الصحراء بالإسلام الذي انبثق نوره من أرضهم ولكنهم جهلوه حتى صاروا يحتاجون أن يقتبسوه من هؤلاء الشباب القادمين من الهند، الذين بلغوا في الإخلاص والتجرد وعلوّ الهمة والدأب على العمل أبعدَ الغايات.

أما الدعوة الأخرى[1] فلا بد فيها من شيء قليل من التفصيل.

(١) هي دعوة «الإخوان المسلمين» وصاحبها هو الشيخ حسن البنا رحمه الله (مجاهد).

وأنا أتكلم هنا عن أسلوبها وعن عناصرها، وعمّا أحبّه لها وأخشاه عليها.

أما أسلوبها فقد جمع مزايا الأساليب الثلاثة الأخيرة وزاد عليها؛ فهي أولاً دعوة فردية، تبدأ دائماً بالكلمة العارضة والحديث القصير في المجلس والمدرسة والطريق والسيارة، كما كان يفعل الأفغاني والجزائري. ولكن الأفغاني كان يلقي البذرة في الأرض ويدَعها ويمضي إلى أرض غيرها، لا ينتظر النبتة ولا يرعاها، وهؤلاء يلقون بذورهم في الأسماع ويقفون من بعيد يرقبونها ويرعونها، فإن أكلها طائر أو طارت بها ريح ألقوا غيرها، وإن أحرقتها الشمس سقوها الماء، حتى إذا بدت النبتة جعلوها غرستهم وأولوها عنايتهم.

ثم تبدأ مرحلة جديدة، هي مرحلة الاجتماعات والأحاديث المنظمة والدروس المستمرة تمدّها المطبعة بالكتب والمجلات؛ فتكون بذلك جامعة لمزايا الدعوة الفردية، والدعوة العلمية، والدعوة الصحفية.

هذا من حيث «الشكل» كما نقول في المحكمة، أما من حيث «الموضوع» فإن في هذه الدعوة ثلاثة عناصر متباينات مختلفات يحاول أصحابها أن يجمعوها في مزيج واحد ويؤلفوا بينها، وآمل أن يوفَّقوا في ذلك:

١-عنصر صوفي، لا صوفية ابن عربي ولا صوفية الشعراني، ولكن صوفية الغزالي. وهي تظهر في مظهرين، في هذه «التشكيلات» التي تشبه في بعض الوجوه «تشكيلات» الطرق الصوفية، وفي

الروح التي تبدو في كتب قادتهم وخطبهم ومباحثهم. ومَن قرأ مذكرات صاحب هذه الدعوة وباني صرحها تبين له أنه نشأ نشأة صوفية وكان متبعاً طريقة من الطرق القويمة خالية من أكثر ما كان يُنكَر على غيرها.

٢-عنصر سلفي مستمد أكثره من ابن تيمية وابن قيم الجوزية. وهو أظهر في هذه الدعوة من العنصر الأول، وهو يتجلى في إنكارهم البدع في العبادات وبعدهم عنها، وتجردهم عن ضلالات أدعياء الصوفية وأباطيلهم وأقوالهم الشنيعة؛ كالقول بوحدة الوجود والقطبانية ودولة أهل الديوان، والتوسل المحظور، والعكوف على القبور، وزعم أن وراء «الشريعة» التي تُفهَم من نصوص الكتاب والسنة «حقيقة» تؤخَذ من وساوس شياطينهم وشطحات مجانينهم وهذيان مجاذيبهم ومعتوهيهم...

٣-وعنصر جديد هو ثمرة التقاء الإسلام وعلومه بالثقافة الغربية في عقول علماء الجماعة، وقد أثمر هذا العنصر مباحث ومحاولات، كـ«العدالة الاجتماعية في الإسلام» وأمثالها، كانت ثروة للمكتبة الإسلامية وهدى للشباب، وكان منها النفع الكبير.

ولا تزال هذه العناصر الثلاثة في دور المزج والتأليف، لم تتّحد -بعد- في مزج جديد. وأنا أحب لأصحابها أن ينتبهوا إلى أن أيسر خطأ في مقاديرها يفسد هذا المزيجَ كما يفسد على الكيميائي عملَه خطؤه في تحديد مقادير العناصر التي يجرب تجربته فيها.

وأن العنصر الصوفي قد يزيد عن الحد اللازم فتدخل الدعوة -مثلاً- هذه الفكرة الخبيثة التي حرص مشايخ الطرق على تثبيتها في الأذهان، هي حصانة الشيخ والاعتقاد بكماله، ووجوب الانقياد له مهما كان منه والاستسلام إليه استسلام الميت -كما يقولون- للغاسل، فيؤدي ذلك بهم (من حيث لا يشعرون) إلى أن ينظروا إلى كبارهم هذا النظر الذي لم يكن يرتضيه الإسلام ولا يستحبّه، وإن كان يقول بالنظام وطاعة الأمير بالعقل والفهم وفيما ليس فيه عصيان الله.

وقد يزيد العنصر السلفي عن حده فيكون من ذلك ترك المذاهب الأربعة والاستقلال عنها، من غير استعداد للاجتهاد وجمع لوسائله. ولست أدري كيف فشت هذه الفكرة في الأوساط الإسلامية، ولعلها «رد فعل» -كما يُقال في التعبير الحديث- لما كان عليه جَهَلة المقلدين قبل خمسين سنة، من القول بسد باب الاجتهاد والاكتفاء بأقوال الأئمة، وإهمال النظر في الكتاب والسنة نظر استنباط واجتهاد، واتباع حكم المذهب ولو فرض أنه جاء بغير دليل سمعي وكان الحديث الصحيح على خلافه[1]. وهذا باب من الكلام لا تتسع له جملة مستعرضة، ولا بد له من مقال قائم برأسه أنشره في «المسلمون» إن شاء الله.

ويكون منه أن نعود ظاهريين وأن نحيى (ونحن لا نشعر) مذهب «الظاهرية» الذي مات لأنه لا يصلح للحياة، ولأنه يضيّق

(١) في أول «حاشية ابن عابدين» أن الحنفي إن رأى الحديث الصحيح على غير ما فهم أنه مذهب الحنفية وأخذ بالحديث لا يخرج بذلك عن كونه حنفياً. وقد شرح هذه المسألةَ أوسع شرح الشيخُ بخيت في رسالة «إرشاد أهل الملة» بما لا مزيد عليه من البيان.

الشريعة ويذهب بمرونتها ويجعلها عاجزة عن إمدادنا بما نحتاج إليه من القوانين.

أو أن نكون في عقيدتنا من المشبّهين الذين يجسّمون الله، أستغفره تعالى، ويجعلون له يداً حقيقية ويدّعون أنه في السماء حقيقة وأنه مستوٍ على عرشه استواءً مادياً... إلى آخر ما جاء في الآيات المتشابهات التي أخذها السلَفُ على ما هي عليه وآمنوا بها على مراد الله منها بلا بحث فيها، والتي أمرَّها الخَلَفُ على المجاز واتّبعوا في ذلك سنن العرب في كلامها.

ويكون من زيادة العنصر الثالث أن نتكلم في الدين بعقولنا وآرائنا مجاوِزين النصوصَ الثابتة، فنجعل عقولنا مصدراً من مصادر الدين ودليلاً من أدلة الشرع، مع أن عمل العقل في العلوم الشرعية هو فهم النصوص وتطبيقها على الحوادث، لا الاستقلال بالأحكام.

وأنا موقن بأن هذه الدعوة -على هذا كله- هي دعوة العالم كله، وهذا الذيوع وهذا التوفيق اللذان كُتبا لها أعجوبةٌ من الأعاجيب. وأنا أعرف صاحبها من سنة ١٩٢٧، وقد كنت في مصر حين جمع محب الدين الخطيب طائفةً من الشباب (أذكر منهم الأساتذة محمود شاكر وعبد المنعم خلاف وعبد السلام هارون) بالأساتذة الشيوخ (أحمد تيمور والسيد الخضر الحسين رحمهما الله) وألفوا أول جمعية إسلامية حديثة في البلاد العربية هي «جمعية الشبان المسلمين»، وكان ممن انتسب إليها وفرح بها ونشط للعمل على تحقيق غاياتها شاب في مثل أسناننا، ثم وجد أنها ليست كما يريد ويتمنى فاستقل عنها من غير فراق لها وجعل

يدعو إلى الله وحده، يلُمّ الشاب والشابين والنفر القليل، فكان من ذلك بداية هذه الدعوة.

هكذا بدأت الدعوة، فكيف استطاعت أن تبلغ في أقل من ثلاثين سنة ما بلغت إليه؟ إن الأسباب ثلاثة.

الأول: استعداد النفوس إلى الإيمان، لا سيما نفوس الشباب الذين نشؤوا في البيوت المؤمنة، والذين ملّوا هذه الحياة المادية التي حاول الكتّاب والمعلمون أن يحصروهم فيها ويمنعوهم من التطلع إلى غيرها، وأدركوا أن لذائذها محدودة، وأنها لا تعدل لذائذ الإيمان ولا تستطيع أن تغني عن الحياة الروحية.

الثاني: ما سبقها من تمهيد لطريقها، من عمل الأزهر وجمعيات الشبان والهداية وغيرها، وما قامت به مجلتا المنار والفتح.

الثالث: شخصية صاحبها. وقد طالت هذه المقالة وضاقت عن تفصيل الكلام فيها، وأنا أحدّ هذه الشخصية النادرة بهذه الخطوط كما تحدد الصورة وتبين معالمها بخطوطها الكبرى، دون تفاصيلها ودقائقها.

يمتاز هذا الرجل بسبع صفات يرجع إليها (بعد توفيق الله) نجاحه؛ أربع منها تتصل بشخصيته وثلاث تتعلق بأخلاقه. أما الأربع فتواضعه، وبساطته[1]، وذاكرته، ولسانه. وأما الثلاث فتجرده، وزهده، وصبره.

جاءني لما كنت في مصر سنة ١٩٤٥ صحفي سوري، لقي

---

(١) البساطة بهذا المعنى لفظ مولَّد له وجه، والبسيط في اللغة الواسع.

رؤساء الأحزاب المصرية وسألني أن أدبر له لقاءه، وكان يومئذ أكبر شخصية شعبية في مصر. فقلت له: هيا بنا.

فشُدِه وارتخت شفتاه من دهشته، وقال: هكذا؟ بلا موعد؟

قلت كما يقول المصريون: وما له؟

قال: إني لم أصل إلى لقاء أصغر الزعماء إلا بعد أن تكررت المواعيد وطال الانتظار وتعددت مقابلات الناموس (السكرتير) والمرافق والوكيل، وهذا أكبر زعيم في البلد، أفنمشي إليه فجأة؟ وهل يرضى أن يقابلنا؟

قلت: سترى.

وذهبت معه إليه كما أذهب إلى رجل عادي من أصدقائي، فاستقبلنا استقبال الصديق وكلمنا كلام المؤمن. ورأى من بساطته وصراحته وعلمه وبيانه ما زاده دهشة وعجباً.

أما ذاكرته فهي نادرة من النوادر، يجيئه ألوف وألوف من الناس، وليس فيهم واحد لا يخاطبه باسمه ويسأله عن أهله وولده وعن تجارته أو زراعته أو عمله، ويشعره أنه حفي به متتبع أخباره، وأنه العارف بأحواله الواقف على أموره كلها... وكان في الواقع كذلك.

أما لسانه وبيانه فأنا أشهد (وأنا رجل يخطب ويتكلم على المنابر من أكثر من ثلاثين سنة وأنا أعرف خطباء العرب وفصحاءهم) بأني لم أرَ مثله، وهو صاحب أسلوب جديد في خطاب الجماهير، وأسلوبه أسلوب المحدث البارع الذي لا يقف ولا يتلعثم ولا يتردد ولا يلحن، والذي يتكلم ساعات فلا يُمَلّ حديثه ولا يسأمه سامعه؛ يصدر فيه عن قلب مؤمن، وروح فكهة، وعقل مفكر، وعلم واسع، ونادرة حاضرة، وشخصية قوية هي شخصية القائد الذي يحزم في غير شدة، ويلين في غير ضعف، ويسوق الأمر الصارم بصيغة الرجاء أو التمني.

أما تجرده عن المطالب الدنيوية وعمله لله، لا لجاه ولا لمنصب، وزهده في الدنيا وبقاؤه على حاله من الفقر المتجمل من يوم نشأ إلى أن قضى شهيداً سعيداً (إن شاء الله)، فذلك أعرف من أن يعرَّف به ويدلَّل عليه.

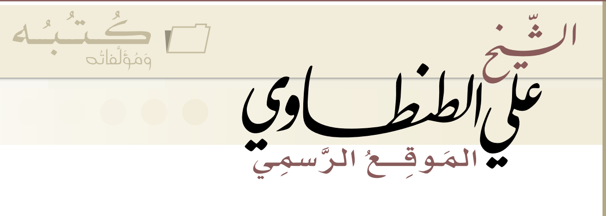
وقد بلغ من صبره واحتماله أنه كان يرحل الرحلة تستغرق أياماً طوالاً، يمضي لياليه كلها في القطار في الدرجة الثالثة، ينام وهو قاعد، وكيف ينام من كان في الدرجة الثالثة من القطار؟ ثم يصبح فيستقبل القرية أو البلدة، فلا يزال يخطب فيها ويتكلم ويحل المشكلات إلى الليل، فيعود إلى ما كان عليه وتتشابه الليلة والبارحة.

وهذا شيء قد يصبر عليه الرجل يوماً أو يومين ابتغاءَ كسب أو خوفَ عقوبة، أما أن يأتيه طائعاً متبرعاً لا يريد به إلا وجه الله، ويستمر عليه أسبوعاً أو عشرة أيام متتاليات، فلا أعرف من يفعله إلا هذا الشيخ، رحمة الله عليه؛ فلقد كان مجدد الإسلام في هذا العصر، وكان من نوادر الدنيا وآحاد الدهر، وما أظن أني سأرى مثله أبداً.

* * *

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



من هو المسلم؟

نشرت سنة ١٩٣٩

ديننا علم واعتقاد وعمل.

فالمسلم مَن «عَلِمَ» أن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل، بالشريعة الباقية التي تصلح لكل زمان ومكان، والتي تكفل لمتّبعيها سعادة الدنيا والآخرة، وجعلها رحمة للعالمين وهدى للناس أجمعين، وأنزل عليه الكتاب الذي ما فرّط فيه من شيء، القرآنَ كلامَ الله القديم، وختم بالإسلام الرسالات، فلا نبيّ بعد محمد خاتم النبيين.

و«عَلِمَ» أن دعامة الإسلام وأساسه، ومصباحه ونبراسه، كتاب الله وسنة نبيّه؛ فما جاء في القرآن أو صحّ أن النبي ﷺ قاله فهو من الدين، وما عدا ذلك من بدعٍ ابتدعها في الدين قومٌ أو زياداتٍ زادها أقوامٌ، ليست في القرآن ولم ترد في الحديث الصحيح ولا تقاس عليهما أو تُستنبَط منهما ولم يجمع عليها أئمة المسلمين، فليست من الدين ولو قال بها أهل الأرض.

و«عَلِمَ» أن الإسلام لا يشبه الأديان ولا يقاس عليها، لأنه دين وشريعة وسياسة وأخلاق؛ فهو يبيّن صلةَ العبد بربه، ويضع القوانين لصلات الناس بعضهم ببعض، ويبني قواعد العلاقات السياسية بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول. والإسلام يرافق المسلمَ إذا غدا أو راح، أو طلع أو نزل، لا يفارقه لحظة ولا خطوة.

وليس في الدنيا عمل لا يدخل فيه الإسلام ويبين فيه حكم الله؛ فإما أن يكون مباحاً لا يُثاب فاعله ولا يعاقَب تاركه، وإما أن يكون مندوباً يُثاب فاعله ولا يعاقَب تاركه، وإما أن يكون واجباً يثاب فاعله ويعاقَب تاركه، وإما أن يكون مكروهاً يثاب تاركه ولا يعاقَب فاعله، وإما أن يكون حراماً يثاب تاركه ويعاقَب فاعله.

وهذه الأحكام الخمسة (الفرض والمندوب والمباح والمكروه والحرام) هي التي تحدد مكانَ كل عمل من الدين ولا يخلو عمل من واحد منها؛ فالمسلم لا يقول أبداً: "هذا الأمر خارج عن نطاق الدين لا دخل له فيه"، كما أنه لا يقول: "إن الإسلام يجب أن ينفصل عن السياسة" لأن السياسة جزء من أجزاء الدين، و«براءة»، وكلّها سياسة، سورة من القرآن لا يمكن أن تنفصل عنه.

والمسلم من «عَلِمَ» أن الشريعة الإسلامية أغنى الشرائع وأنها أثمن وأجمع وأحكم من القانون الروماني الذي اقتبست منه كل قوانين أوربة[1]، وأنه يجب أن تكون قوانيننا المدنية والجزائية والمالية والإدارية والدستورية مستنبَطة من شريعتنا، مقتبَسة من ديننا.

(١) ثبت ثبوتاً مؤيَّداً بالوثائق والمستندات أن القانون المدني الذي وُضع بأمر نابليون والذي انبثقت عنه قوانين أوربة كلها قد استند واضعوه إلى كتب الفقه الإسلامي، أخذوها من مصر أيام الحملة الفرنسية.

و«عَلِمَ» أن من أنكر آية من القرآن أو حكماً معلوماً من الدين بالضرورة فقد خرج عن الإسلام.

و«عَلِمَ» أن الاجتهاد في استنباط الفروع أمرٌ مطلوب شرعاً، يؤجَر عليه صاحبه ولو أخطأ فيه، مكافأة له على بذله الجهد واستفراغه الطاقة، فإذا أصاب كان له فوق ذلك أجر آخر هو أجر الإصابة.

وأن الاجتهاد في أصول الدين ممنوع لأنها منصوص عليها ولا مساغ للاجتهاد مع ورود النص.

وأنه لا يضر الناسَ اختلافُهم في الفروع (فكلهم من رسول الله ملتمس)؛ سواء في ذلك الحنفي منهم والشافعي والمالكي والحنبلي، بل إن اختلافهم رحمة من الله وتوسيع على الأمة، ولكن يضرّ الناس اختلافهم في أصول الدين من العقائد ونحوها ويكون الواحد منهم مصيباً والباقون على ضلال؛ لأن الحق لا يتعدد، والمصيب هو من اتبع ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والقرن الأول خير القرون.

و«عَلِمَ» أن كل من قال «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولم يعتقد ما يخالف الكتاب والسنة ولم يستحل محرَّماً ولم يحرّم حلالاً، فهو مسلم تنطبق عليه أحكام المسلمين وتجمعنا به أخوّة الدين. ولا يجوز تكفير مسلم إلا إذا أنكر أصلاً من الأصول أو أتى ما أجمع الأئمة على أنه مكفّر.

و«عَلِمَ» أن الإسلام لا يعارض العلم الصحيح ولا الفن النافع ولا الحضارة الخيِّرة، وأنه دين سهل رحب مرن، ليس بالدين الضيق الجامد المحرج.

والمسلم من «اعتقد» بأن لهذا الكون إلهاً واحداً قديماً باقياً، سميعاً بصيراً، متصفاً بصفات الكمال، منزَّهاً عن صفات النقصان، وأنه هو خالق كل شيء وإليه المصير.

ويخلص له العبادة ويراقبه دائماً، ويعلم أنه مطّلع عليه، وأنه هو وحده النافع الضار وبيده الخير وهو على كل شيء قدير؛ فلا يدعو معه غيرَه ولا يسأل سواه حاجةً من الحاجات التي لا يقدر البشر على مثلها، ولا يستعين إلا به، ولا يخاف حق الخوف إلا منه، ولا يُسخطه ليُرضي الناس ولا يبالي إذا رضي عنه بسخط أحد.

و«اعتقد» أن الله خلق أنواعاً من المخلوقات، منها ما خلقه من مادة كثيفة كالناس والحيوان والكواكب، ومنها ما خلقه من مادة نورانية كالملائكة، وهم خلق كثير من خلق الله لا يأكلون ولا يشربون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرون، يسبّحون الليل والنهار لا يفترون. ومن مخلوقاته الجن، وهم خلق يروننا ولا نراهم، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر. ومنها الشياطين، وهم أهل الشر ليس فيهم صالح.

و«اعتقد» أن الله -رحمةً منه بالناس- اختار من الناس رجالاً عصَمَهم من الكبائر ونزّههم عن النقائص، ثم بعث إليهم «جبريل» (وهو واحد من الملائكة) فأبلغهم رسالة الله وعلّمهم ما يسعدهم في دنياهم وينجيهم في آخرتهم، وكلّفهم إبلاغ هذه

الرسالة أقوامَهم، وهؤلاء هم الرسل، وأولهم آدم وآخرهم محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

ولو شاء الله لأنزل كتاباً واحداً وجعل الناس أمة واحدة، ولكن اقتضت حكمته أن يكون التكامل في الرسالة تدريجياً، كالتكامل في الحضارة والرقي؛ فكل رسالة تعدّل التي قبلها وتكملها، حتى جاءت رسالة محمد ﷺ في نهاية الكمال، لا يُحتاج بعدها إلى شيء، لسببين:

أولهما أن طبيعة الرسالة المحمّدية طبيعة مرنة قابلة للتطور في أحكامها الفرعية تبعاً لتطور العصور؛ فهي لذلك تبدو في كل عصر جديدة، ويتكشف منها جوانب ومعانٍ لم تكن معروفة، حتى كأنما أُنزلت لذلك العصر.

والسبب الثاني طبيعة الحياة البشرية وميلها نحو الوحدة منذ فجر الإسلام حتى اليوم، إذ أصبح الناس من حيث الاتصال كأنهم أبناء أسرة واحدة، تقال الكلمة في آخر الشرق فتُسمَع في آخر الغرب، وسَهُلَ تبليغ الرسالة، ولم تعد حاجة لتعدد الرسل بتعدد الأقوام.

و«اعتقد» أن الوحي معناه نزول المَلَك على الرسول، وهو غير الإلهام الروحاني[1] الذي يحسّ به الشعراء والكتّاب، وأن الوحي ليس كسبياً وإنما هو عطاء من الله لا يُنال بالتحصيل ولا يوصَل إليه بالبحث والعلم والتفكير، لذلك لا يُقال إن النبي عبقري

(١) جاء في الصفحة ٦٢ من كتاب التاريخ المقرَّر رسمياً في مدارس العراق تأليف درويش المقدادي أن «الوحي معناه الإلهام الروحاني».

عظيم ولا شاعر ولا فيلسوف، لأن ذلك كله يختلف عن النبوّة وينحطّ عن مرتبتها انحطاطاً كبيراً ويخالف العقيدة الإسلامية[1].

و«اعتقد» أن الله أنزل على أربعة من رسله كتباً، فأنزل التوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد، صلى الله على الجميع. فبدّلَ كلُّ قوم كتابَهم وحرّفوه، وبقي القرآن كما أُنزل لأن الله ضَمِنَ حفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

و«اعتقد» أن الله سيجمع الناس كلهم في يوم القيامة، فيعيد الحياة لمن مات ويردّ عليه الروحَ ولو فني وصار تراباً، ولو أحرق جسده وصار رماداً، ولو أكلته الوحوش أو تخطّفته الطير، ثم يحاسبهم جميعاً على ما عملوا في الدنيا، فيكافئ المحسنين فيخلّدهم في الجنة ويعاقب المسيئين فيدخلهم النار.

وأنه لا يغفر أن يُشرَك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وأن من تاب قبل أن يموت مُحي ذنبه حتى كأنه لم يذنب، بشرط أن تكون التوبة مقرونة بترك الذنب والعزم على عدم العودة إليه والندم على الماضي، وهذه هي التوبة الصادقة التي تمحو

(١) هذه المسألة كانت سبباً في المشكلة الكبيرة التي أثارها جدي ـ رحمه الله ـ في احتفال المولد الذي أقيم في دمشق في السنة التي كُتِبت فيها هذه المقالة، وهي المشكلة التي تسببت في عقوبته ونقله إلى دير الزور في أقصى الشمال الشرقي من سورية. انظر تفصيلات الحادثة في «ذكريات علي الطنطاوي» ١٤٧/٤ (مجاهد).

الذنب[1]، فإن عاد بعدها إلى الذنب ثم تاب منه توبة صادقة غُفر له، ولو كثرت ذنوبه حتى صارت مثل زبد البحر: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾. أما من تاب من ذنب وهو لا يزال مُقيماً عليه أو يفكر في أن يعود إليه، فهذا كالمستهزئ بربه والعياذ بالله.

و«اعتقد» أن كل شيء بقدَر الله، وأن الله قسم للعبد سعادته وشقاءه ورزقه وعمره، فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك، وما كان لغيرك لن تناله بقوّتك، ولو بقي في عمرك يوم واحد لا يقتلك أهل الأرض ولو اجتمعوا عليك، وإذا جاء أجلك أدركك الموت ولو كنت في برج مشيّد، رُفِعت الأقلام وجفّت الصحف، ولا رادَّ لما قضى الله ولا دافِعَ لمشيئته، ولكن الله أمر بالعمل وبذل الجهد.

* * *

والمسلم -بعد ذلك- من يُقِرّ ويشهد بلسانه أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيم الصلاة ويؤديها على وجهها في أوقاتها محافِظاً على فروضها وسننها خاشعاً لله فيها، ويصوم رمضان إيماناً واحتساباً، ويؤدّي زكاة ماله طيّباً بها قلبُه، ويحج البيت إن استطاع.

ثم إنه لا يكذب ولا يغتاب ولا يشي ولا يؤذي أحداً ولا يظلمه، ويكون عفيف العين واليد والفرج، ساعياً إلى مكارم الأخلاق، آخذاً الحكمة من حيث وجدها، يحب لأخيه ما يحب لنفسه، مبتعداً عن الفحشاء والمنكر، يعاون على البر والتقوى ولا يعاون على الإثم والعدوان، ينكر المنكر بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان، ويؤدّي حقوقَ المسلمين فيساعد ضعيفَهم ويمد فقيرَهم ويعود مريضَهم، ويغض بصره عن نسائهم ويحفظ لهم أعراضهم، ويعُدّ كل شيخ في المسلمين أباً له، وكل شاب أخاً، وكل صبي ولداً، وكل فتاة بنتاً، وكل امرأة أختاً، ثم إنه يجتنب الخمر ويدع الربا، ويخاف الشُّبَهَ كيلا تقوده إلى المحرَّمات، ولا يحوم حول الحمى حتى لا يقع فيه.

ويريد بذلك وجه الله، مبتعداً عن حظ النفس ما استطاع الابتعاد، عالماً أنه بشر فيه غرائز لا يملك الانفكاك عنها ولا يؤاخذه الله إلا بما ملك.

هذا هو المسلم الحق... فاجعلنا اللهم مسلمين حقاً.

* * *

---

(١) كان جدي يفصّل دائماً شرائط التوبة الصادقة فيذكر هذه الثلاثة، ويضيف إليها رابعاً هو رد الحق إلى صاحبه إن كان الذنب عدواناً على حقوق الآخرين (مجاهد).

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحة من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



المثل الأعلى للشاب المسلم

خلاصة محاضرة ألقيت في بيروت
سنة ١٩٣٧.

كلما أراد الشاعر الفرنسي الأشهر بول فاليري أن يحاضر بدأ بتعريف مدلول الكلمات التي يتألف منها عنوان المحاضرة. وهذه هي عادة أجدادنا إذا أخذوا في الكلام على علم من العلوم أو مطلب من المطالب، فليس عليّ إذن من بأس إذا اتبعتها هذه الليلة، فبدأت محاضرتي بتعريف المثل الأعلى والكلام على صفات الشباب الأساسية، وتلخيص القول في الإسلام.

* * *

إنه ليس فيكم -أيها السادة- من هو راض عن حالته مطمئن إليها، وليس فيكم من لا يتصوّر حالة خيراً منها؛ فإن كان عالماً فكر فيمن هو أعلم منه، وإن كان غنياً تصوّرَ من هو أغنى، فإذا صار مِثلَ مَن يتصوره من الأغنياء أو يفكر فيه من العلماء طمح إلى درجة أعلى ومنزلة أسمى، لا يكاد يبلغها حتى يزهد فيها ويطمع فيما وراءها.

وإذا أنتم استعرضتم أعلم العلماء وأجمل الفتيات وأبهى الرياض وأبرع الصور وأفخم البنى، لرأيتم الذهن البشري يتخيل -على أهون سبيل- عالِماً أكبر وفتاة أجمل وروضة أبهى وبنية أفخم وصورة أبرع... ثم يبالغ في التخيل حتى يستقر على مرتبة، ويثبت في منزلة لا يرى فوقها منزلة، فتكون هي «المثل الأعلى».

فالمثل الأعلى -إذن- هو أسمى ما يتصوره العقل البشري. والمُثُل تتعدد بعدد الناس فلكلٍّ مَثَله الأعلى في الحياة، وعدد الأشياء فلكلٍّ صورته الكاملة، ولكنها تجتمع كلها -على افتراقها- وتتحد -على تعددها- في أشياء ثلاثة نبّهَ إليها أفلاطون وأخذ بها الناس في كل عصر ومصر، وأجمعوا على إجلالها واتخاذها مُثُلهم العليا وغاياتهم السامية؛ وهنّ: الحق والخير والجمال.

هذا هو «المثل الأعلى».

أما الشباب... وهل أحتاج إلى تعريف الشباب؟

الشباب الحياة والحياة الشباب:

روائح الجنة في الشباب[1]

خَلَقُ العيشِ في المشيب ولو كا نَ نضيراً وفي الشباب جديده[2]

الشباب -يا سادتي- الواحة الفريدة في صحراء الحياة، وهو الربيع في سنة العمر، هو البسمة الوامضة على ثغر الزمان القاطب.

(١) أبو العتاهية.
(٢) البحتري، والخلق: العتيق.

لست أعني هذا الشباب الغض الغريض الحلو الناعم، الذي يجرح خدَّيه لمسُ النسيم ويدمي بنانَه مسُّ الحرير، والذي ترِقُّ عنده الحياة حتى تسيل من العيون نظراتٍ ساحرةً مغريةً، وتدق جلائل الأعمال فيها حتى تستحيل إلى فكرة تطير كالفراشة بين أزهار الجمال في روضة الحب، أو نسمة معطرة تهب من حواشي فتاة فتانة، أو قبلة تجمع لذائذ الدنيا في رشفة مسكرة...

لست أعني هذا الشباب الفاتن المتأنّث الذي يعيش للهوى والأحلام ويبدأ تاريخ حياته بالحاء (حـ) فلا يلبث أن ينتهي بالباء (ـب)... إنما أعني الشباب الحيَّ العامل، القوي المتين، الذي وضع له غاية في العيش أبعد من العيش، ونظم نفسه حلقة في سلسلة شعبه، واتخذ له مطمحاً ومثلاً عالياً، ثم عمل على بلوغه، وسعى إليه باندفاع الصواعق المنقضّة، وقوة العواصف العاتية، وثبات الطبيعة، وألقى في سِفر حياته الراء بين الحاء والباء؛ وهل الحياة إلا «حرب» دائمة ونضال مستمر، وتنازع على البقاء وتسابق إلى العلاء؟

لا يبقى غير الصالح ولا يصلح غير القوي... هذه هي الحقيقة الباهرة، هذا هو القانون المقدس الذي لا يلغيه برلمان ولا يعبث به إنسان ولا يخرج عليه إنس ولا جان ولا حيوان؛ لأنه من قوانين الله التي كتبها على صفحة الوجود يوم أخرجه من العدم وقال له: كن، فكان.

الجراد يأكل البعوض، والعصفور يفترس الجراد، والحية تصطاد العصافير، والقنفذ يقتل الحية، والثعلب يأكل القنفذ، والذئب يفترس الثعلب، والأسد يقتل الذئب، والإنسان يصطاد الأسد، والبعوض يميت الإنسان... هذه هي السلسلة الخالدة، لا تبديل لها ولا تغيير.

إما أن تقتل الأسد، وإما أن يقتلك البعوض.

فيا شباب، لا يغلبْكم البعوض، ولكن اغلبوا الأسود!

* * *

الحق ثقيل، ولكن الحق أحق أن يقال، فأرجو ألاّ يغضب مَن ههنا ممّن يحسبون أنفسهم شيوخاً إن خاطبت الشباب وقلت: إن المستقبل للشباب[1].

ولكن من هم الشباب؟

يصف أندريه موروا الشباب بالرغبة الأكيدة في حياة العاطفة والحب وحياة الحماسة والبطولة؛ أي بالمجون والاستهتار، والميل إلى الإصلاح، والإخلاص للمبدأ والزعيم، والاندماج والفناء في المجموع (في الجمعية أو الحزب أو الأمة)، وبأنهم أدنى إلى المثل العليا، وبأن شعارهم الإقدام والتعجل والسرعة وبعض الأناة والانتظار[2].

---

(١) ألقيتُ هذه المحاضرة وأنا شاب، ففيها حماسة الشباب وفيها شيء من قلة الحكمة عند الشباب.

(٢) أندريه موروا في كتاب «طريق السعادة»، وهو مجموعة محاضرات في السعادة والزواج والأسرة.

الشباب بهذه الصفات ليس الشباب بورقة النفوس[1] وسجلّ الميلاد، فكل مَن مات قلبه وانطفأت شعلة حماسته، وضاعت مثله العليا وأحسّ بأنه قد بلغ مأمله فلم يعُدْ له أمل، فهو شيخ ولو كان في العشرين من سنّه. وكل من كان له قلب، وكانت له آمال ومطامح، وكل متحمس مندفع شابٌّ ولو شاب!

فلا تغضبوا يا سادتي الكهول إذا قلت إن المستقبل للشباب ورفعت من شأن الشباب، فإن فيكم شباباً ولو ابيضّت لحاهم ورؤوسهم وانحنت ظهورهم وتجعدت جباههم؛ هم شباب العزائم والقلوب! وهؤلاء الخاملون من الشباب هم الشيوخ. لا تعجبوا يا سادتي، فلقد كان شوقي شيخاً في مطلع شبابه يوم كان شاعر الأمير، ثم عاد شوقي شاباً في كهولته يوم صار شاعر الآمال والآلام، شاعر العروبة والإسلام.

* * *

بقي عليّ تعريف الإسلام، ولكن من العبث -يا سادتي- أن أعرّف الإسلام وأنا أحاضر قوماً هم بحمد الله مسلمون. ولا يكون مسلماً من لا يعرف ما هو الإسلام، ولا صلة له بعلومه ولا اطّلاع له على أحكامه، ولا وقوف له على أمره ونهيه وعند أمره ونهيه.

إن من العبث أن أقول لكم: إن ديننا إيمان وعقائد، وإسلام وعبادات، وإحسان وأخلاق، وسياسة وشريعة، وإن له في كل جانب من جوانب الحياة مصباحاً يضيء ومناراً يهدي، وإنه لا يفارق المسلم أبداً ولا يدعه لحظة؛ إن كان وحده منفرداً بنفسه

(١) هذا هو الاسم الشائع لشهادة الميلاد في الشام (مجاهد).

كان معه الإسلام يأمره بأن يحاسب نفسه، ويتوب من ذنبه ويتأمل في بديع صنع الله في نفسه وفي العالم، ويستدل بالصنعة على الصانع وبالأثر على المؤثر: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أكبر الدلائل وأقوى الحجج، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أوَلا يتفكّر هؤلاء الجاحدون ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾؟ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾؟ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؟

وإن كان المسلم في المجتمع كان معه الإسلام، يبيّن له سبيل الحكمة ويدلّه على صراط الأخلاق المستقيم ويأمره بأن يحسن استعمال هذه القوى التي وهبها له الله، فلا يتبع بها ما ليس له به علم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، ولكن يستعملها في سبيل العلم، العلم كله حتى الفلك والجيولوجيا وعلم الأجناس... هذه العلوم من آيات الله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾.

ينظم الإسلام العلاقة الاجتماعية خير تنظيم ويبني الأمة أمتن بناء، يبدأ بإنشاء الأسرة فيجعل لها رأساً مسؤولاً له حق الطاعة لينتظم الأمر وتتم المصلحة، وعليه واجب العدل والعمل، وجعل الرجل هو الرأس[1] لطبيعة تكوينه وخلقته ونوع عمله وغايته: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، وجعل على النساء واجباً ولكنه أعطاهن حقاً

(١) ومن آيات الله في ملكوته أن الرأس لا يكون إلا مذكراً في اللغة وفي=

مثله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ورفع من شأن التربية وجعل للمربين الأولين، للوالدين، أرفع مقام، وجعل طاعتهما مقرونة بالتوحيد الذي هو رأس الدين وبيت قصيده ودعامة بيته. قال عزّ من قائل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾، ووضع خير القواعد وأحكمَها للزواج والطلاق والإرث.

وينظّم الإسلام أمور الأمة ويقيمها على أساس من الفضيلة والعدل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. ويشرع لها القوانين الثابتة المحكمة في معاملاتها، والقواعد الأخلاقية السامية في علاقاتها الخاصة.

ويدعو إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والدليل الواضح والبرهان القاطع، لا بالإرهاب ولا بالترغيب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾، ودعا المخالفين إلى المحاجّة والمناظرة وإقامة الأدلة: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾، ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾. وعاب الإسلام التقليد والجمود واتباع الآباء والأجداد وإهمال العقل، ودفَعَ الناسَ إلى التفكير وإقامة البراهين العقلية والأدلة اليقينية؛ أي إنه دعا منذ ألفٍ وأربعمئة سنة إلى الطريقة العلمية التي يفخر بها علماء اليوم ويظنونها من ابتكارهم وأثراً من آثار حضارتهم. قال تعالى يذمّ أهل الجمود وينعى عليهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

= الحياة، ولكن أكثر الناس غفلوا عن الآيات فأنّثوه فقالوا بأقلامهم في صحفهم: هذه الرأس، وقالوا بأفعالهم في بيوتهم: هي الرأس.

إنكم تعرفون هذا كله أيها السادة لأنكم مسلمون، وإن من العيب أن ألقيه عليكم، فما جئت لأعرِّف الإسلام ولا أردت تعريفه، ولكن أحببت أن أوجه أبصاركم إلى مسألتين مهمتين:

أما المسألة الأولى فهي أن ديناً يضع للعقل قواعد التفكير، ويشرع للعلم طريق البحث، وينظم حياة الفرد وحياة الأسرة، ويكون هو القانون المدني والجزائي، والقانون الدولي، والأخلاق والفلسفة... إن ديناً هذا شأنه لا يصحّ أن يُعَدّ مع الأديان التي لا تتجاوز أحكامُها عتباتِ معابدها، ولا يجوز أن نطلق عليه ما يطلقونه عليها من أحكام.

فإذا قبلنا بمبدأ فصل الدين عن السياسة مثلاً، فلا يصح أن نستنتج منه وجوب فصل الإسلام عن السياسة، لأن الإسلام ليس ديناً ولكنه دين وسياسة. هل تستطيعون -يا سادتي- أن تحذفوا سورة براءة مثلاً من القرآن لأنها سياسة؟

وإن قبلنا مبدأ استقلال العلم عن الدين لأن الدين لا يستند إلى البحث العلمي ولا إلى العقل، فلا يصح أن نسحب هذا الحكم على الإسلام، لأن الإسلام ليس ديناً وسياسة فقط ولكنه دين وسياسة ومنطق وعلم.

هذه -يا سادتي- حقيقة ظاهرة ظهور الشمس، ولكن أكثر شبابنا لا يرونها؛ خفيت عليهم وغربت هذه الشمس من أفق تفكيرهم، فتخبّطوا في ظلامِ ليلٍ أَلْيَل، فلذلك ترونهم يأخذون كل ما يقوله الإفرنج عن دينهم فيطبقونه على الإسلام، على الاختلاف بينهما والتباين بين طبيعتيهما. ولعل من هذا الباب

تسمية العلماء برجال الدين، وإنها لتسمية باطلة فشت على الألسنة وعمّ بلاؤها. ونسي المسلمون أنهم كلهم رجال الدين، دين الإسلام، دين المساواة والسمو والعمل؛ ليس فيه طبقات مميزات من طبقات، وليس أحد أحق به من أحد، وليس فيه جماعة هم وكلاء الله، يُحِلّون ويحرّمون وهم أصحابه الأدنَون وأهلوه الأقربون وغيرهم الأبعدون، ولكن المسلمين كلهم -أبناءَ النبي وعترتَه والفارسيين والصينيين، وكلَّ من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله- لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى والعلم والقيمة الشخصية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»، «يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً»...

فلا تقولوا للعلماء «رجال الدين» ولا تحمّلوهم وحدَهم واجبات الدين، فإن رجال الدين هم كافة المسلمين؛ ليس عندنا إلا العلم والتقوى، فمَن كان عالماً عظّمناه وسألناه، ومن كان تقيّاً أحببناه وأجللناه، ومن أخطأ وحرّف رددناه أو ردعناه، كائناً مَن كان ذلك المخطئ وذلك الناقد؛ ليس الناقد بأقل من تلك العجوز وليس المنقود بأجلّ من عمر!

هذه المسألة الأولى.

أما المسألة الثانية التي أحب أن أوجّه إليها أنظاركم، فهي أن الدين على ما يفهمه العلماء من أهل أوربا هو الذي ينظم علاقة الإنسان بالله وبما خلق الله من المخلوقات المغيَّبات وراء المادة وبالعالم الآخر، فلا علاقة له بالحياة السياسية ولا الأوضاع الاجتماعية ولا بالقوانين والنظم، ولا يصح أن تبنى عليه الجامعة القومية.

هذا ما يقرره العلماء الذين بحثوا في هذه الجامعة وطبيعتها وقيمتها، وفي مقدمتهم رينان في محاضرته المشهورة التي ألقاها في الصربون سنة ١٨٨٢. وهذا صحيح في الأديان ولكنه ليس بصحيح في الإسلام، لأن الإسلام ذاته قومية ورابطة اجتماعية معنوية، ليست قائمة على لغة ولا على أرض. ولكن على ما يسميه أرنست رينان بالإرادة المشتركة ويجعله أساس الرابطة الوطنية.

فليس وطن المسلم مكة ولا المدينة ولا البلد الذي وُلد فيه، ولكن وطن المسلم المبادئ الإسلامية؛ فحيثما وُجدت هذه المبادئ وحيثما كان أهل «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فثَمّ وطن المسلم.

وعندي أن هذه الرابطة الإسلامية، رابطة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ معجزة من أعظم معجزات الإسلام، لأنه أقرّ منذ أربعة عشر قرناً المبدأ الذي اهتدى إليه العقل البشري سنة ١٨٨٢، وسار منذ أربعة عشر قرناً في الاتجاه الذي يسير فيه العالَم اليوم. ولقد سقط اليوم مبدأ القوميات الذي دعا إليه الرئيس ولسن بعد الحرب[١]، ونهضت المبادئ الفكرية الاقتصادية، فانقسم العالم -كما ترون- إلى جبهات ثلاث: الديمقراطية والشيوعية والفاشية[٢]. وكما أن

(١) أي الحرب العالمية الأولى، ولم تكن الحرب الثانية قد بدأت يوم أُلقيت هذه المحاضرة (مجاهد).
(٢) ذهبت الفاشية وستتبعها الأخريان إن شاء الله.

الشيوعي الفرنسي أخو الشيوعي الروسي ولو تناءت الديار وتباينت اللغات واختلفت الأجناس فكذلك المسلم أخو المسلم، أينما كان وكيفما كان.

* * *

لقد انتهينا من تعريف المثل الأعلى والشباب والإسلام، فلنشرع في الموضوع:

قلت إن أندريه موروا وصف الشباب بصفتين أساسيتين؛ هما الحب والبطولة. أما الحب فهو عماد الحياة وركنها وأساسها، لا معدى عنه ولا منجى منه. وأحسب أن الشباب الحاضرين، بل وكثيراً من الشيوخ، يصفرون لي وينزلونني عن المنبر إذا أنا قلت لهم: "لا تحبّوا". وكيف أقولها؟ أجننت حتى أقولها؟ أنا لا أقول حطموا القلوب ودوسوا العاطفة، وماذا يبقى لنا إذا خسرنا العاطفة؟

لقد خسر إدوارد عرش بريطانيا العظمى، ولكنه ربح العاطفة فلم يخسر شيئاً. لقد أنسته عينا مدام سمبسون مُلْك إنكلترا، فهل كان ينسيه هذا الملك الضخم وهذا التاج المرصَّع عينَي سمبسون لو أنه هجرها[1]؟

العاطفة هي التي تدير دولاب حياتنا وتسيِّر أمورنا كلها، أما العقل فلا يصنع وحده شيئاً. ومن يذكر منكم أنه مشى خطوة واحدة

(١) سلوه الآن لتروا كيف يعض أصبع الندامة؛ على أن باع مجد العمر بلذة ساعة وترك واقعاً ملموساً لوهم وحقيقةً قائمة لحلم!

برأي العقل وحده؟ العقل -يا سادتي- فيلسوف أعمى، حكيم مُقعَد ينادي بصوت خافت ضعيف... أما العاطفة فهي القوة، هي النشاط، هي الحياة.

أنا لا أقول: اقتلوا العاطفة؛ لأن في موتها موتنا. ولكن أقول إن العاطفة تضيق حتى لا تشمل إلا شخصاً واحداً، وتنحطّ حتى تنزل من قلب هذا الشخص إلى ما تحت القلب، إلى ما تحت... السرة! وتسمو حتى تحيط بالمثل الإنسانية العالية وتعمَّ حتى تشمل الأمة كلها، بل الإنسانية جمعاء.

فاسموا بعواطفكم عن مواطن شهواتكم، واخرجوا بها من ذواتكم، وقِفُوها على أمتكم وبلادكم. أحبّوا، فإن الذي لا يحب لا يكون إنساناً، واذكروا واحلموا وتأملوا... ولكن افهموا الحب بمعناه الواسع الذي يشمل كل ما هو حق وخيِّر وجميل، لا المعنى الضيق العقيم الذي لا يتجاوز حدود جسم امرأة.

أحِبّوا، ولكن ابقوا مسلمين.

إن للمسلم قلباً؛ قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ[1] أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، ولكن المسلمين يغضُّون عيونَهم وقلوبهم وفروجهم ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

أحِبّوا، ولكن ابقوا رجالاً.

(١) مهما كان معنى القلب هنا.

إن الرجل إذا أحب لم يبكِ ويتذلل ويأرق الليل، ولم يُلقِ شفتيه على قدمي المرأة (كما كان يفعل لامارتين)، ولكنه يقوم قائماً على مشط رجله، ثم يقول لها بعينيه النافذتين وعضلاته الحجرية وإرادته الماضية ورجولته البادية: "تعالي"!

أحِبّوا، ولكن ابقوا أفراداً من هذه المجموعة البشرية التي هي الأمة، لا يقطعكم الحب منها ويُعِدكم إلى الحياة الفردية الوحشية، فتنكروا كل شيء وتنسوا الدنيا وتتجاهلوا الحياة إلا إذا أشرقت عليها نظرة المرأة وأضاءت في أرجائها كلمة منها. ولا تُقيموا الدنيا وتُقعدوها وتُغرقوا الأرض بالدموع لأن الحبيبة المحترمة لم تمنح قبلة وعدت بها ولم تصل وقد لوّحت بالوصل، تنظمون الأشعار في هذه الكارثة وتنشئون فيها الفصول، تبكون وتستبكون، ثم تنامون آمنين مطمئنين والنار من حولكم تأكل البلاد والعباد.

الشعر شعور، فأي شعور وأي حس فيمَن يرى أمة كريمة مجيدة بقضها وقضيضها، ومفاخرها وتاريخها، وحياتها وأمجادها، تُطرَد من ديارها وتخرج من بيتها (وهي أمته، وأفرادها إخوته) لتعطى مساكنها إلى أمة من أسقط الأمم، أمة ضُربت عليها الذلة والمسكنة وباءت بغضب من الله وغضب من الناس ومن الحق والفضيلة والتاريخ، ويرى صدورَها مفتَّحة للرصاص، وشيوخَها مَسوقين إلى حبال المشانق، وشبابَها في شعاف الجبال وبطون الأودية يدفعون الظلم بالدم، وأطفالَها ونساءها بين لصين: لص ديار ولص أعراض، لص يحارب بالذهب ولص يقاتل بالبارود، ثم لا يحس بهذا كله ولا يدري به ولا يفكر فيه. لماذا؟ لأن الشاعر المسكين مصاب متألم. ما له؟ ما مصابه؟ إن حبيبته لم تعطه خدها ليقبله!

إن العاطفة إذا بلغت هذا المبلغ كانت جريمة.

* * *

وما دمنا في حديث الحب فلنوفِّ الحديث حقه.

إن لي تعريفاً قديماً للحب هو أنه المُرْقِد (البنج) الذي وضعه الله لتمام عملية التناسل التي لا بد منها لبقاء النوع البشري، والتي لا يصبر الإنسان على احتمال قذارتها وآلامها لولا هذا المخدّر؛ فأول الحب إذن ووسطه وآخره الاجتماع الجنسي، والسلام. أما الحب العذري الأفلاطوني العفيف فليس إلا إحدى الأكاذيب الجميلة التي لا يصدّق بها عاقل؛ من أجل ذلك يشك العقلاء في عفاف المرأة المحبوبة وينظر المسلمون إلى الحب نظر الريبة.

إني لألحظ في وجوهكم معنى الاستنكار والاعتراض وأرى فيها بوادر الثورة. لا يا سادتي، أنا لا أنتقد الحب ولا أشك في جماله، ولكن أسألكم وأرجو أن تجيبوني بإنصاف: مَن هو الذي يسمح فيكم أن أحب زوجته أو أخته؟

لا تغضبوا يا سادتي؛ فما أردت إلا التمثيل فجاء المثل غليظاً نابياً، وإني ليسرني أن تستهجنوه لأن هذا دليل على أنكم للحقيقة أشد استهجاناً. فلنعلن -إذن- أن هذا الحب المعروف اليوم مما يأباه الإسلام ويتنافى مع المثل الأعلى للشباب المسلم. ولكن ماذا يصنع الشباب؟

الجواب: يتزوجون. نعم، يتزوجون.

إن حياة العَزَب[1] حياة خطرة على نفسه وعلى المجتمع. إنه صندوق (ديناميت) يوشك أن ينفجر في كل لحظة فيدمر سعادة أسرة من الأسر وينقض دعامة من دعائم الوطن؛ إن حياة العَزَب حياة فارغة من كل شيء لأنها فارغة من الزوجة ولو امتلأت بكثير من النساء (غير الزوجات).

إن أفكار العزب، مهما اختلفت مناحيها وتعددت، متوجهةٌ إلى وجهة واحدة، تسعى إليها بشدة وعنف كما تسعى السيول من كل جهة إلى قعر الوادي؛ إنه لا يجتمع عزبان إلا نظّما مؤامرة على الأخلاق والعفاف.

وإن قسطاً كبيراً من ثقل التبعة يقع على عاتق الآباء، فهل فيكم أب مسلم له بنات يكون قدوة طيبة للآباء المسلمين الطيبين، فيفتّش عن شاب صالح جاد فيزوجه بما يستطيع من المهر والنفقات: بخمسين ليرة سورية[2] بثلاثين، لِمَ لا؟ أهي تجارة؟ أتريد زوجاً لبنتك صالحاً تَسعد به ويسعد بها ويُنشآن أسرة شريفة مستورة أم تريد ذهباً تبيع به ابنتك[3]؟

هذا دواء هذا المرض العضال. هذا حل المشكلة، فإذا لم تحلوها اليوم لا تنحل أبداً، إذا لم تداووا المرض يموت المريض.

فيا وجهاء هذا البلد: الوجاهة بالعمل النافع وبالتقوى والإصلاح، لا بالمال ولا بالفَخْفَخَة الفارغة ولا بالعظمة الجوفاء ولا بالمراتب العالية، فاعملوا أو فتنحّوا عن أماكنكم لمن يعمل!

وإن من الحماقة التي ليس وراءها حماقة أن تُبنى الأسرة الثابتة على عاطفة متبدلة متحولة، ومن الحماقة أن يُبنى الزواج على الحب. مَنذا الذي يبني داره على كثيب من الملح في طريق السيل؟

الحب فراشة حلوة فيها أجمل الألوان، ولكنها لا تعيش إلا يوماً واحداً. الحب زهرة فوّاحة ليس لها في الروض مثيل، ولكنها تذبل عند أول لمسة. من رأيي في الحب أنه لا يكون إلا إذا كان أمل وكان مع الأمل حرمان؛ كالكهرباء لا تضيء المصباحَ إلا إذا التقى فيها القطبان المختلفان.

أنت تحب المرأة لأنك لا تقدر عليها، فتسبغ عليها من خيالك ثوباً تراها فيه أجمل الناس، فإذا قدرت عليها وخلعت هذا الثوب عنها عادت امرأة كسائر النساء. انظروا إلى الزوجين الحبيبين في شهر العسل، وقد ذهبا يسيحان ينعمان بالخلوة الحلوة في أجمل البقاع أو أكبر المدن، تحسبوا أن السعادة قد جُمعت لهما من أطرافها، ولكن اقتربوا منهما تروا أنها لا تمر إلا أيام حتى لا يجدا

---

(١) قال في القاموس: "العَزَب والعَزيب من لا أهل له، ولا تقل أعزب". وفي الوسيط: "الأعزب استعمال قليل، والأجود عَزَب" (مجاهد).

(٢) كانت الخمسون ليرة يومئذ تعدل في الصرف عشر ليرات ذهبية وكان كيلو الخبز بثلاثة قروش!

(٣) حين ألقى جدي هذه المحاضرة لم تكن له زوجة ولا بنات، ثم لم يلبث أن تزوج ورزقه الله خمسَ بنات كبراهن أمي، فزوجهن بأيسر مهر زُوِّجت به بنات قط، ثم صارت هذه سنة في حفيداته بعد بناته، فتزوجت أنا= ابنة خالتي بمهر قدره عشر ليرات سورية (وكانت تساوي أقل من ثلاثة دولارات يوم تزوجت) وبنحو ذلك تزوجت سائر حفيداته (مجاهد).

ما يتحدثان به إلا حديث الأيام الأولى، يوم كان أمل وكان حرمان، ثم تمضي الليالي وتبلى جِدّة هذا الحديث فلا يبقى بينهما كلام.

وماذا في لغة الحب غير «أحبُّكِ» و«أحبُّكَ»؟ ردّدوها مئة مرة فإنكم تنامون.

فلنعلن -إذن- أن بناء الزواج على الحب وحده لا يرضاه الإسلام لأنه لا يرضاه العقل. فهل نعود إذن إلى طريقتنا الأولى: تخطب لي عمتي أو خالتي وتنتقي لي الزوجة على رأيها، وأنزل أنا على حكمها وأعلّق مستقبلي بها، وأمضي العقد وأمشي إلى حفلة العرس وأنا لا أعرف ما لون عين العروس وما شكل أنفها؟

هذه طريقة سقيمة عقيمة، فماذا نصنع إذن؟ ما هي الطريقة المُثلى؟

هي -يا سادتي- طريقة الإسلام. إن الإسلام منح الخاطب (بعد أن يتم الرضا عنه ويرجَّح جانب قَبوله صهراً) أن يرى وجه المرأة وكفيها، أن يجلس معها (بحضور وليها)؛ هذه هي سنة الدين، ولكن الآباء جاهلون، يأبون أن يرى الخاطب الصالح وجه الفتاة ثم يخرجونها إلى الأسواق متبرّجة متهتكة يرى أكثرَ من وجهها وكفّيها الفاسقُ الخبيث وكل من كان في الطريق، حتى الحمار!

إننا تركنا قواعد الإسلام، فتركنا الفلاح والنجاح.

هذه هي الصفة الأولى للشباب، وهذا هو المثل الأعلى فيها: تزوّجْ ثم أحبّ زوجتك، وأوْلِها قلبك وامنحها عاطفتك.

أما الصفة الثانية فهي البطولة، وحظ الشباب المسلمين فيها أوفى من حظوظ شباب الأمم، وعلى الشباب المسلمين واجب أضخم؛ ذلك أن المصلحين كانوا يتلفتون قبل عشرين عاماً فلا يرون حولهم إلا ظلاماً لا تسطع في ثناياه بارقة أمل، ونوماً (أو قُلْ موتاً) لا ترى في خلاله أمارة حياة، وخيبة مستمرة في السياسة والعلم والعمل، ثم انجلت الحرب العامة عن جسم واحد حاول الأقوياء الغالبون أن يخالفوا فيه سنة الله ونواميسه في كونه، فيجعلوا الرأس يحيا وحده واليدين تعيشان وتفكران على استقلال والقلبَ يصبح إنساناً برجلين، فقرروا أن تكون هذه الحكومات الكثيرات المضحكات في بلد مجموع سكانه أقل من نصف سكان لندن[1]، فكأنهم جربوا ألاّ يكون الواحد ربع الأربعة، بل يكون كل واحد أربعة كاملة!

كان المصلح يرى ذلك ولا يرى إلى جانبه ما يبعث في النفس أملاً أو يحيي فيها رجاء، فكان يتشاءم ويقنط، ولكن الزمان -يا سادتي- قد تحول وختمت يدُ القدرة المجلدَ الثاني من تاريخ الأمة الإسلامية، ذاك الذي سجلت فيه عصر الانحطاط والتأخر، وافتتحت اليوم المجلدَ الثالث من التاريخ لتسجّل فيه عهد البعث والتقدم. إن المصائب التي اشتدّت وآلمت وتتالت وتعاقبت قد نبّهت وأيقظت، وحذّرت وأنذرت، فأفاقت شعوب هذا الشرق الإسلامي مذعورة تفتّش عن طريق الحياة وتبحث

(١) كان في سورية الطبيعية عقب الحرب العامة سبع دول: دولة دمشق ودولة حلب ودولة العلويين ودولة جبل الدروز ودولة لبنان ودولة فلسطين ودولة شرقي الأردن.

عن سبيل العمل، وظهرت بوادر يقظة قوية ونهضة شاملة. ولكن -يا سادتي- ينقصنا الإيمان بهذه الحقيقة الواقعة، فليكن اجتماعنا هذا تبشيراً بها ودعوة إليها. يجب أن نؤمن بهذه النهضة إيماننا بوجود أنفسنا، ويجب ألاّ يبقى فينا متشائم.

لقد نهضنا، ولكن القافلة تجتاز اليوم أشد مرحلة من الطريق وأخطرَ مفازة في هذه البادية. كانت القافلة تسير نائمة يقودها أدلاّء جهلوا الطريق، وحادوا بها عن المحَجّة، وتنكّبوا بها الصراط المستقيم، فلما سمعت صوت القدر على لسان أولئك الأعلام: الأفغاني، ومحمد عبده، والقاسمي، والشيخ طاهر، والألوسي، وسعد، ورشيد رضا، وشكيب أرسلان، والرافعي وأمثالهم... أفاق منها من أفاق، فنهض وفتح عينيه من لم ينهض. وقال كلٌّ كلمته، فوقعت المعركة بين الداعين المصلحين والأدلاّء الجاهلين، وانقسم الناس بينهم أقساماً، فكانت بلبلة وكانت جلبة وكان اضطراب، ولكن القافلة تمشي... تمشي على الطريق لأنها أفاقت، ومَن أفاق وانتبه لا يتبع دليلاً جاهلاً.

إن هذه النبتة -على قوّتها- مختفية بين مئات الأعشاب الجافة التي بقيت من الموسم الماضي، إنها ستشق طريقها من بينها وتحيا من دونها لأن النبتة الجديدة أم المستقبل، نصيبها الغد، وتلك الأعشاب بنت الماضي فستذهب مع الأمس إلى غير ما رجعة. إن صوت النهضة الجديدة، صوت الحق، ضائع في الصيحات التي تدوّي اليوم في الأسماع صدىً للأصوات الماضية لا يلبث أن يخفت، لأن الصدى ينتهي، أما الصوت فإنه يبدأ.

* * *

هذه النهضة واضحة، فآمنوا بها يا شباب، وانظروا إلى الحياة من ناحية الأمل المشرق الواسع لا من جهة اليأس الضيق القاتم.

إن شبابنا متشائمون. اقرؤوا قصائد الشعراء من الشباب؛ إنها مليئة بالآلام، مغمورة بالكآبة، غارقة بالدموع. اسمعوا موسيقا الشباب؛ كلها بكاء، كلها نحيب: (يا لوعتي يا شقايا، ضاع الأمل من هوايا...) فما لشعرائنا وموسيقيينا الشباب لا يرون في الدنيا لذة ولا سروراً؟

لِمَ يبصرون ظلام الليل ولا يرون بهاء الشمس؟
لِمَ يفكرون في وحشة الخريف ولا يفكرون في روعته؟
لِمَ ينتبهون إلى عُري الشتاء ولا ينتبهون إلى خشوعه؟

إن كل ما في الدنيا جميل بهيٌّ ولكن في عين الشاب الصحيح القوي. أما المريض، أما المسلول المَحطوم، فلا يرى إلا الظلام. فيا شبابنا، داووا نفوسكم من سل اليأس.

* * *

لقد استدار الزمان كيوم ظهر الإسلام، واحتضرت الحضارة وكادت تأتي عليها مادية الغرب فتذهب بها كما ذهب بالحضارة الأولى تفسخ الحكومتين الكبيرتين فارس والروم.

إن العالم اليوم بين حجرَي الرحى التي تطحن المدنية وتتركها هباء منثوراً كما تكهن وِلز. العالم بين مادية الغرب وحياته الحديدية



الآلية وروحية الشرق الأقصى وفناء الهنود إلى ما وراء المادة، ولا سبيل إلى النجاة إلا بالنهج السويّ، نهج الإسلام.

فيا شباب المسلمين، تجردوا لأداء الواجب وإسماع العالم صوت الإسلام.

إن هذا الدور الذي تجتازه اليوم أمم الشرق الإسلامي يشبه دور البعث[1] (الرونِسانس) في أوربا، وعلى الشباب أكبر الوجائب في هذا الدور.

على الشباب واجب علمي، هو أن يبعثوا المكتبة العربية القديمة بحلل جديدة وأساليب مستحدثة. إن في هذه الكتب الصفراء علماً جماً ولكنه مطمور تحت أنقاض الأسلوب الماضي؛ في كتب الفقه -مثلاً- ما يُستنبط منه القانون الأساسي والقانون الجزائي والقانون المدني والقانون الإداري وقانون أصول المحاكمات، ولكن هذه الكتب موضوعة على طريقة لا نسيغها اليوم ولا نألفها ولا تصلح لنا ولا نصلح لها، وإن كانت تصلح كل الصلاح في عهد مَن ألفوها، فيجب على الشباب أن ينقطع منهم فئة إلى دراسة هذه الكتب وتفهمها ومعرفة ما فيها، واستخلاص موادها العلمية وعرضها بشكل جديد.

إن الأساليب -يا سادتي- أزياء، وقد تبدل الزي اليوم، فليأخذ الخياط الماهر هذا الثوب القديم وليصنع من قماشه ثوباً جديداً، على ألاّ يُضيع منه خيطاً واحداً.

(١) أنا أول من استعمل كلمة «البعث»، ولقد أنشأت من نحو ثلاثين سنة مجلة اسمها «البعث» صدر منها خمسة أعداد.

إن من العار أيها السادة أن تترقى أساليب التأليف في كل العلوم ونبقى نحن في علومنا على ما كنا عليه. إن الذين كتبوا هذه الشروح وهذه الحواشي وهذه التقارير عظماء أجلاء لأنهم أنتجوا شيئاً وعرضوه على أحسن شكل يألفه عصرهم، وليس عليهم ذنب، ولكن الذنب علينا نحن الذين لا يؤلّفون ولا يشتغلون ولا يُنتجون، وإنما يعيشون عالة على أجدادهم كهذا النبات الطفيلي الضعيف الذي يتمسك بأقدام النخلة الباسقة.

وإن على الشباب واجباً اجتماعياً، هو أن يدرسوا الإسلام ويكشفوا عن رأيه في هذه المعضلة الاجتماعية. إن العالم سيضيع بين الاشتراكيين والماليين الفرديين، ولا طريق إلى النجاة إلا الطريق الأوسط الذي يهبط عن خيالات الشيوعيين وأحلامهم التي لا تتحقق أبداً، ويترفع عن أفق الماليين الذين يستعبدون الناس بأموالهم ويسخّرون المجموع لمصلحة الفرد.

وإني على يقين أن للإسلام القول الفصل في هذا الباب، ولكن أحداً من العلماء لم يكلف نفسه عناء البحث عن رأي الإسلام الاجتماعي[1].

وإن على الشباب المسلمين واجباً أخلاقياً، هو إنقاذ العالم المتردي في مهاوي الرذيلة التائه في مَهامِه الظلام.

ارفعوا منار الإسلام، وانشروا مكارم الأخلاق التي بُعث نبيكم ﷺ لإتمامها.

(١) كان ذلك يوم ألقيت المحاضرة من نحو ربع قرن، وقد ظهرت اليوم بحوث وكتب جزى الله مؤلفيها خيراً ونفع بها.

أليس من العجيب يا سادتي أن يُسأل النبي ﷺ عن المؤمن: هل يسرق؟ فيجيب باحتمال ذلك وإن كان نادراً، فإذا سُئل: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا. أليس من العجيب أن يجعل النبي ﷺ الكذب ثلث النفاق، وإخلافَ الوعد الثلث الثاني، ثم يكون في المسلمين اليوم من يكذب ويخلف المواعيد؟ أليس عجيباً أن يأخذ الإفرنج غيرُ المسلمين أخلاقَنا فتكون لهم عادة وطبعاً، ويضيع المسلمون أخلاقهم؟ أليس عجيباً أن يقول الله في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم يكون في المؤمنين مَن هو ذليل في نفسه مضيع لكرامته؟

فيا شباب المسلمين، تخلّقوا بأخلاق الإسلام وانشروها بين الناس وأنقذوا بها العالم.

* * *

أتحبون -بعد هذا- أن ألخص لكم المثلَ الأعلى للشابِّ المسلم؟

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وعلموا أنه الأول والآخر، وأنه المريد القادر، وأيقنوا أن كل شيء بإرادته، لا شريك له في ملكه ولا شفيع عنده إلا بإذنه ولا يعلم الغيب إلا هو، فلم يغفلوا عنه ولم يعبدوا غيره ولم يقدّسوا سواه، ولم ينتظروا النفع والضر إلا منه. وعلموا أن له جنداً لا نراهم وملائكة وجنّاً، وعوالم لا نبصرها، وآخرة وجنّة وناراً، وسماوات وعرشاً... وأنه بعث أنبياء وأنزل كتباً.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فأدّوا حق الله عليهم من صلاة وزكاة وصيام وحج، وتقربوا إليه بالنوافل والأعمال الحسنة، وأدّوا حق الناس فلم يتعدوا على أحد في ماله ولا عرضه ولا جسمه، وأدّوا حق أهليهم ووالديهم ومَن له فضل عليهم، وأدّوا حق الأمة بالسعي في نجاحها وتقوية روابطها وضمان مصالحها، والعمل على كل ما يرفع شأنَها ويُعلي مقامَها بين الأمم، من علم أو صناعة أو زراعة أو وعظ وإرشاد أو تعليم وتهذيب.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أوصوا به نفوسهم ووصّوا به غيرهم وتحرّوه في أمورهم، فكان الحق إمامَهم ودليلهم ورفيقهم وقائدهم، ولم يكونوا من أنصار الباطل أبداً؛ فلا يقبلون من المبادئ والعلوم والفنون إلا ما هو حق لا باطل فيه.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على أداء الواجب وعلى التواصي بالحق واجتناب الباطل، والابتعاد عن الرذائل مع منازعة النفس إليها وإقبالها عليها.

هذا هو المثل الأعلى للشباب المسلم: إيمان كامل لا شرك فيه، وتصديق بكل ما جاء من عند الله، وعبادات منزَّهة عن البدعة، وعمل صالح ينفع الفرد والمجموع، ودعوة إلى الحق وتمسك به، وصبر على تحقيق هذا المنهج وأداء هذه الواجبات.

* * *

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحة من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

الحقيقة الكبرى

نشرت سنة ١٩٤٣

انتهيت الآن من قراءة «حياة دزرائيلي» الذي ألفه «أندريه موروا» وترجمه حسن محمود، والذي أشهد أني وجدت فيه مواقف تركت في نفسي أبلغ الأثر وهاجت عاطفتي أكثر مما تهيجها أقوى القصص، وشعرت لمّا فرغت منه كأني كنت في عالم مسحور، فيه متاع للعقل ولذة للروح. فخرجت منه... وجلست أفكر:

* * *

فكرت في هذا الرجل الذي جامل وناضل، وسالم وقاوم، وعرف الهزيمة والظفر، ولمس الحب والبغض، وفرّت منه الشهرة وهرب السلطان يوم كان يركض وراءهما بساقين من طموح الشباب وعنفوانه، ثم طاعت له الوزارة حين فترت همته عن طلبها ووَنى جسمه عن حملها وصار مثابة للأمراض ومأوى للعلل. لقد بلغ القمة ودنت له الأماني بعد أن أوسعته نأياً وهرباً، فهل سعد بالرياسة مثلما كان يُخيِّل إليه -من قبل- شبابُه المحروم؟

أوَلم يكن له مثل هذه السعادة لو أنه خُلق رجلاً داني المطامع قليل المطالب، كل ما يؤمل فيه أن يكون أديباً ناجحاً أو طبيباً بارعاً أو محامياً موفقاً؟ أوَلم يكن أبوه إسحاق أسعدَ منه إذ حصر مطامعَه كلها في القراءة ومصاحبة الكتب وتدوين المذكرات؟

لقد بلغ ما لم يبلغه أبوه إسحاق فعرف لذة الصعود إلى الوزارة مراراً، ولكنه عرف كذلك آلام النزول، وإنها لأشد وأقوى.

إنّ حزناً في ساعةِ الموتِ أضعا   فُ سرورٍ في ساعةِ الميلادِ

وهَبْهُ لم ينزل قط، وهبه عاش حياته كلها العَلَم اللوّاح والبطل الأشهر، ترتجّ البلاد لحِلّه وارتحاله وتمتثل طائعة لإشارته أو مقاله، لا تهتف الألسنة إلا له، والأكفّ لا تصفق لغيره، والأنظار لا تعلق إلا به، فما جدوى ذلك؟

صار كلَّ شيء بعد أن لم يكن شيئاً، وبلغ غاية المجد السياسي، وكان موته مأتم الوطن، وخُلّد اسمه على كل شفة ولسان... فماذا بقي له من ذلك كله؟

ما الشهرة؟ ما المجد؟ ما خلود الاسم؟ أهي حقائق تستحق القتال عليها والسعي لها أم هي ضلالات وأوهام؟

* * *

أما أنا فأحلف أني لم أرَ ذلك كله إلا سراباً خادعاً! وقد أبصرت السراب مئة مرة في بادية الشام وصحارى الحجاز فلم أجده يختلف عن مرآه من بعيد عن مرأى غدير ماء، فإذا جئناه لم نجد شيئاً. ووجدت ما تزاحم الناس عليه من مُتَع هذه الدنيا مثلَ

السراب، تُظَن من بعيد لذة فمَن قاربها ووصل إليها لم يُلفِ فيها المتعة التي كان يتصورها!

الفقير يتمنى مثل طعام الغني ويألم لفقده ويقدّر لذته تقديراً لو جعلناه رقماً لكان مئة، ولكن الغني الذي يأكله كل يوم لا يلقى من هذه المئة واحداً، وربما تشهّى أكلة من أكلات الفقير وفضّلها عليه. والمريض يتصور النعم كلها في الصحة ويحسب أنه يتذوق من لذتها إذا عاودته مثلَ ألمه لزوالها، فإذا رجعت إليه صحته رآها شيئاً عادياً. وكذلك السجين ونعمة الحرية، والأعمى والنظر...

والحياة الدنيا كلها، ماذا يبقى منها إن رُفع الإيمان؟ ألعاب أطفال؛ أحزانها تُنسى، وأفراحها تُفقَد، وكل شيء فيها إلى زوال. لذائذ الطعام كله تقف عند الشبع، ومسرات الوصال الجنسي لها حد. قال سليمان بن عبد الملك (أو غيره، فما أحقق القائل الآن): لقد أكلت الطعام حتى ما أبالي أأكلت حلواً أم حامضاً؛ وأتيت النساء حتى ما أبالي أأتيت امرأة أم جداراً، ولم يبق لي من اللذات إلا الحديث الحسن.

يريد أنها بقيت له اللذات الروحية لأنها أوسع وأكبر، ولكنها هي الأخرى إلى زوال. إني لأعرف من ارتقى سلّم السياسة، فكان كلما صعد درجة نظر إلى فوق، فشغلته لذة التأميل حتى يتحقق أمله ويعلو درجة... ثم بلغ أعلاه، ولم يبق له «فوق» ينظر إليه ولا أعلى يؤمل فيه، فوقف قانعاً، فكأنما لم يصعد سلماً قط، إلا أن يكون كعمر بن عبد العزيز العامر القلب بالإيمان حين قال: "إن لي نفساً توّاقة، ما أُعطيَتْ شيئاً إلا تاقت لما هو أعلى؛ تشهّت الإمارة فأُعطيَتْها، فاشتهت الخلافة فبلغتها، فتاقت إلى الجنة"، فزهدت في هذه الحياة الفانية وعرفت أنها لا تدوم. أي فرق بينه وبين دزرائيلي الذي بلغ الذروة فأقبل يشكو الوحدة النفسية والمرض وضياع الأمل بعد أن لم يبقَ له ما يؤمل فيه، وفقد الحب بعد موت ماري آن زوجته، وشقي بالسلطة شيخاً كما شقي بطلبها شاباً؟! إن عمر لم يَشْكُ شيئاً ولم يكن ليشكوه ولو فقد كل شيء، لأنه يعمل لله، وعند الله العوض من كل مفقود.

اعلموا -أيها الناس- أن كل ما تتزاحمون عليه سراب؛ أمور تألمون لفقدها ولكن لا تلتذّون بوجودها: تحنّون إلى الماضي لأنكم خسرتموه، ولم تكونوا تسرون به يوم كان حاضراً، وتأسون على مَن مات لكم أضعاف فرحكم به وهو حي.

وما الحياة؟ من يقدر على مقابلتها خالياً من توافه الشواغل؟ من يستطيع الخلوة بنفسه ومواجهة الزمان؟ من ذا الذي يقوى على احتمال ساعات الانتظار بلا ضيق؟ من ينفرد بنفسه الأيام الطوال يأنس بها ويناجيها؟

إنكم تقطعون أعماركم بحديث تافه، أو كتاب سخيف، أو عمل لا قيمة له، لتنجوا من حمل أعباء الحياة المجردة. فلماذا؟ لماذا؟

لأن لهذه الحياة غاية، فإذا لم تُفهم غايتها صارت عذاباً لنا قبل عذاب الآخرة. وما غايتها إلا الاتصال بالله ومعرفته والاستعداد للحياة الثانية. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

* * *

هذه هي «الحقيقة الكبرى»، وهي أقرب الحقائق إلينا، ولكنا لم نفكر فيها فصارت أبعدَها عنا.

إننا نشتغل عنها بالترّهات والأباطيل، فإذا طوّحت بأحدنا الأسفارُ إلى بلدٍ ناءٍ فعاش فيه غريباً لا تربطه بما حوله رابطة من ذكرى، قد تنكّرت له الوجوه والمعالم فانطوى -مضطراً- على نفسه يفكر أو حطّ عليه مرضٌ ضلّ فيه سعي الأطباء، أو نزلت على كاهله مصيبة لم تنفع معها حيلة... تنبّهَ وانقشعت الغشاوة عن عينيه وتبلّجت له الحقيقة، فساءل نفسه: ما هي غاية الحياة؟ لماذا خُلقنا؟ وما أنا في هذا الكون؟

هنالك يدرك أنه في هذا الكون كذرّة في مهب الريح، ولكنها ذرة مغرورة حمقاء تظن أنه في وسعها تحويل الرياح التي تحملها عن وجهتها، ويرى أن عقله الذي حسب أنه يسيّر به الدنيا ويحيط بكل شيء ويتطاول من غروره حتى يسأل عن ذات الله ذي الجلال، هذا العقل لم يعرف كنهَ نفسه وليس هو الذي أبدعها، ولم يدرك -بعد- الأقلَّ من المخلوقات حتى يظن أنه سيدرك حقيقة الخالق، وهو خاضع لقوانين وضعها مَن برأه من العدم وقال له كن (بعد أن لم يكن) فكان!

هنالك يشعر أن السفينة سائرة من الأزل على طريقها المرسوم، لا يمكن تحويلها يمنة أو يسرة، وليس هو ربانها ولا رأيَ له في مسيرها، وأنه كان محصوراً في غرفة منها قد شَغَله ما فيها من الهِنات فصعد على سطحها ورأى الدنيا وما حولها والبحر المحيط بها.

وكذلك نحس أحياناً بالسموّ والتخلص من قيود الحياة اليومية، وتتفتح أبصارنا على هذه الحقيقة التي نسمعها ونحن غافلون فنحسبها -لغفلتنا- أوهاماً.

* * *

ليس الموت فناء ولكنه نقلة إلى عالَم أوسع وحياة أطول؛ كنقلة الجنين بالولادة إلى هذه الدنيا. وإن بعد الموت لحياة فيها سعادة وفيها شقاء ولها أفراح ولها مآس، والمجنون مَن يشكّ في الحياة الأخرى أو يماري فيها أو يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

وإن حياتنا هذه[1] لا تقوم على الأسس التي أسسها العقل ولا على القواعد التي وضعها الدين؛ إن فيها لظلماً وعدواناً وخروجاً عن سنن الفضيلة: الكذب فيها منجاة والنفاق مفازة، يُعاقَب فيها البريء ويَسلم المجرم. فإذا سلّمنا بأن الله عادل (ولا يكون الإله إلا عادلاً)، والعادل لا يقر في ملكه الظلم، لم يكن بدٌّ من حياة أخرى يحق فيها الحق ويدفع فيها الظلم. وإذا قدسنا العقل والفضيلة امتنع علينا القول بأنه ليس إلا هذه الحياة التي يُكفر فيها بالعقل وتُنتهَك الفضيلة، ومن قال بذلك كان مجنوناً ورذيلاً؛ إذ ما بعد العقل إلا الجنون، وما بعد الفضيلة إلا ضدها.

ولماذا ينكر الآخرة منكروها؟ ألأنهم ما شعروا بها ولا عرفوها ولم يروا إلا هذه الحياة التي تنتهي بالموت؟ إذن يحق

(١) الحياة التي يحياها أكثر الناس وليس التي هي نقيض الآخرة (مجاهد).

للمرء أن ينكر طفولته واستجنانه في بطن أمه، لأنه لم يدرك ذلك بعقله! إن عقله وُلد بعده بعشر سنين، فكيف يسلم بأنه كان قبل أن يحس بنفسه ويعرفها وينكر أنه كائن بعد أن ينقطع هذا الحس؟ هذا إذا كان الحس ينقطع بالموت...

ألا إنما هذه الدنيا فترة من حياتنا الطويلة التي تمتد من وجودنا في أصلاب الآباء إلى ما بعد يوم الجزاء.

وكيف كانت الحياة لتُحتمَل من غير البوارق الروحية؟ كيف كنا نصبر عليها لولا الأمل، لولا الصداقة، لولا الحب؟ هذه هي نِعَم الحياة ولكنها تنفد إذا بلغت حدها، وليس في الدنيا إلا متعة واحدة ليس لها حد تقف عنده، هي نعمة الإيمان.

ولن تبقى حضارة تعنى بالمادة وحدها وتنسى الروح ولن تثمر للناس سعادة. إنما السعيد في هذه الدنيا هو المؤمن، الذي عرف حقيقة الدنيا فلم يعطها من نفسه أكثر مما تستحق، وأدرك غايتها فسعى لها سعيها، فراقب الله وجرى على ما شرع له على ألسنة أنبيائه؛ فعاش صحيح الجسم، سعيداً في بيته، هانئاً في نفسه، مخلصاً لأمته، عاملاً لدنياه (من غير أن يرتكب محرَّماً) كأنه يعيش أبداً، عاملاً لآخرته كأنه يموت غداً، عالماً أن العبادة ليست في المسجد وحده بل الأرض كلها مسجد والأعمال النافعة كلها عبادة.

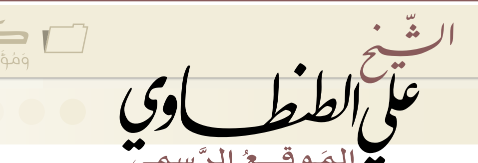
ليس في ديننا الفرار من الحياة واعتزالها في بقعة من الأرض حولها جُدُر عالية وأسوار، وليس منا قوم لبسوا الصوف وأظهروا شارة الزهد ليأكلوا الدنيا بالدين، ولكن ما عرفنا عليه أسلافَنا الأولين الذين زهدوا في الدنيا حقاً، وأهْوَنوا أمرها وحَقَروها، وهم سادتها وأساتذتها وفاتحوها.

* * *

لقد خرجت من قراءة هذا الكتاب وأنا أزهد ما يكون إنسانٌ بالشهرة والمجد، وأفهم ما يكون لغاية الحياة وحقيقتها، وأنها إن لم تكن مزرعة للآخرة لم تكن شيئاً، وأن مسرّاتها أوهام ومُتَعها سراب وكل ما فيها إلى زوال، إلا ما كان لله فهو الباقي.

* * *

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)



صلاة ركعتين

أكثرنا لا يصلي، وإنما يقوم ويقعد ويركع ويسجد. وإن العامل الذي يذهب ليقابل رئيس الشركة، والمعلم الذي يمضي ليدخل على وزير المعارف، وكل من يكون منا على موعد مع رئيس أو أمير أو ملك يستعد لهذه المقابلة بزيه وثيابه ويهتم بها بفكره وقلبه أكثر مما يستعد للصلاة ويهتم بها.

وهذه الحقيقة لا نستطيع أن ننكرها (مع الأسف)، مع أن المصلي إنما يدخل على الله، ملك الملوك، ومَن كل خير عنده وكل أمر بيده، ومَن إن أعطى لم يمنع عطاءَه أحدٌ وإن حرم لم يُعطِ بعده أحد.

وإن كان من يدخل على الملك المطلق لا يفكر في سؤال حاجته وزيراً أو عاملاً، بل يسأل الملك الذي يأمر الوزير والعامل، فكيف نقوم بين يدي الله وعقولنا متعلقة بغيره وأفكارنا مشتغلة بسواه؛ نرجو النفع من البشر ونخاف منهم الضرر، ولا يخطر على بالنا أن نتوجه إلى الله الذي نقوم بين يديه نطلب منه هذا الذي ينفعنا ونسأله دفع ما يضرنا؟

ونحن نتلو بألسنتنا ما لا تصغو إليه قلوبنا ولا تعيه عقولنا، فلا تكون صلاتنا إلا رياضة للأعضاء وتحريكاً للّسان، مع أن هذه الرياضة كالجسد من الصلاة، والخشوع هو الروح، فكيف تصعد صلاتنا إلى الله وهي جسد بلا روح؟ وهل تطير جثة لا حياة فيها؟

وأنا لا أصف لكم الصلاة الكاملة التي كانت قرة عين رسول الله ﷺ، الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ويكون لها الأثر الدائم في سلوك صاحبها وفي أخلاقه وطباعه، الصلاة التي يحسّ صاحبها القوة بالله فلا يخشى في الحق أحداً، ويستشعر الضعف أمام الله فلا يحاول التعدي على أحد.

لا؛ ولكن أصف لكم أدنى درجات الخشوع في الصلاة، وهي أن يفكر المصلي في معاني ما يتلو وأن يتدبر بقلبه ما يتحرك به لسانه. فإذا سمع المؤذن يدعوه إلى هذه «المقابلة» استعد للوقوف أمام الله، فطهّر جسده وثوبه ومكانه، وذكر أن الله لا تخفى عليه خافية وأنه يعلم السر وأخفى، وأنه لا ينظر إلى الصور وحدها ولكن إلى النيات والسرائر، فلم يكتفِ بتطهير ظاهره من الأنجاس المادية حتى يطهّر قلبَه من الأرجاس المعنوية: من الشرك والرياء والطمع والحسد وهاتيك الأوضار كلها.

ثم يستقبل القبلة فيتصور الكعبة أمامه، لا يستقبلها على أنها صنم يُعبَد أو على أنها تنفع أو تضر، بل لأنها هدف جامع ينظم المسلمين في أرجاء الأرض في دوائر تقترب وتبتعد، لا تمنعها الجبال ولا الصحارى ولا البحار من أن تلتئم وتستدير حول هذا الهدف، ثم تتراصّ بنظام وإحكام، كجيش مستعد لبذل الروح والمال إرضاء لله وإعلاء لكلمة الله وإقراراً للعدل والخير والفضيلة في هذه الأرض.

ويحاول أن يحضر في نفسه بواعث الخشوع، فيتصور أن قد انقضت هذه الحياة (وهي حتماً إلى انقضاء)، وأن قد جاء يوم الحساب (وهو قادم لا محالة)، فيبصر الصراط أمامه، والجنة عن يمينه تدعوه بنعيمها المقيم، والنارَ عن شماله تلوح له بعذابها الدائم.

ثم يفكر في عظمة الله، فتهون حيالها الدنيا والآخرة والجنة والنار، لأنه أكبر منها ومن كل ما يخطر على العقل البشري من كائنات، هو أوجدها من العدم بكلمة وهو قادر على أن يذهب بها بكلمة. ويرفع يديه حيال أذنيه كأنه يطرد شواغل الدنيا عن ذهنه، ويقول من أعماق قلبه: «الله أكبر». وبذلك يكون قد وقف أمام الله.

ولو تُرِك البشر لعقولهم لما استطاعوا أن يحصوا الثناء على الله، فكان من نعم الله على المسلم أن علّمه كيف يرفع التحية إلى ربه في مطلع صلاته وكيف يثني عليه. فهو يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك»، ومعنى التسبيح التنزيه، تنزيهه تعالى عن كل ما يمر في فكرك من الصفات البشرية المادية (كل ما خطر على بالك فالله بخلاف ذلك).

أو يبدأ إن شاء بالتوجه إلى الله: «وجهت وجهي» لمن؟ لبشر أو لحجر؟ لا، بل ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وكل ما فيها من خلائق.

فإذا استوفى التحية يطلب حمايته أولاً من عدو البشر الألد، الذي يتربص به يزين له الشر ويحبّب إليه المعصية، ويفضل له هذه الدنيا الزائلة ولذاتها الذاهبة على الآخرة الدائمة ونعيمها المقيم. ويسأله أن يعيذه منه حين يقول: «أعوذُ باللهِ من الشّيطانِ الرّجيم».

ثم يعلن الابتداء باسم ربه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، لا باسم جلالة الملكة كما يقول الإنكليز، ولا باسم الشعب كما نقول نحن، ولا باسم صنم ولا وثن، ولا باسم رابطة قومية أو حزبية أو رابطة منفعة أو مال، بل بما هو أعلى من ذلك كله وأعظم وأسمى. بما تمّحي أمامه فروقُ اللون والجنس واللسان، وما تسكت أمامه أصوات الشهوة والسيطرة والجاه والغنى، وما يعود البشر أمامه عبيداً سامعين مطيعين متجردين للفضائل والخيرات: باسم الله.

ثم يقرأ الفاتحة. ولكل كتاب بَشَري فاتحة: مقدّمة تُجمل مقاصدَه وتوضح مطالبه. وهذه مقدمة الكتاب الإلهي الباقي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي نزّله الله وتعهد بحفظه.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الحمد لله على نِعَمه التي لا تُحصى: نعمة الحياة، نعمة الصحة، نعمة الأمن، نعمة السمع والبصر، نعمة الأهل والولد... إن الإنسان لا يعرف قيمة النعم إلا عند فقدها؛ إن سد أنفَك الزّكامُ عرفت قيمة الشم، وإن أغلق عينَك الرمدُ عرفت قيمة البصر، وإن دهمك الخوف عرفت قيمة الأمن، وإن لُويت قدمك فلم تقدر أن تمشي عرفت قيمة الرجل. فتصوروا هذه النعم حين تقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

هل تعرفون معنى الرب؟ ليس معناها الحاكم ولا الملك ولا الإله؛ الرب فيه معنى العناية والتربية والحفظ والإنماء. الرب المربّي، والعالَمون جمع عالَم؛ فعالَم الأرض، وعالَم النجوم، وعالَم السماء، وعالَم الجن، وعالَم الشياطين، وعالَم الملائكة... والعوالم كلها هو حافظها وموجدها ومربيها. فتصوروا هذه المعاني كلها حينما تقرؤون هذه الكلمات الأربع: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. وصَفَ نفسه بالرحمة وكرّرها لتكرر رحمته، ولم يقل: الجبار المنتقم، ولا القوي العزيز، ولكن الرحمن الرحيم.

أشعرَنا رحمته التي وسعت كل شيء. أترون رحمة الأم بوحيدها الذي ترضعه على صدرها؟ إن الله أرحم بعباده منها بولدها. إن الأم إذا أساء إليها ولدها أو خالفها، أو استعمل مالها في معصيتها، هجرته وحجزت المال عنه. والكافر يستعمل لسانه الذي أعطاه الله إياه في الكفر بالله، والله يرحمه ويرزقه ويحسن إليه. والفاجر يستعمل ماله الذي أعطاه الله إياه في معصية الله، والله يرحمه ويرزقه ويحسن إليه... وإن الله أنزل في الدنيا رحمة واحدة فبها يتراحم الناس وتعطف الأم على ولدها والأخ على أخته والرجل على امرأته، وأبقى تسعاً وتسعين ليوم القيامة. ورحمة الله هذه من أولى النعم التي تستحق الحمد.

بعد أن يقول العبد في الصلاة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ويستشعر رحمة الله يقول: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيستشعر عظمته، ليعلم أن الله رحيم فلا ييأس من رحمته وأنه جبار فلا يأمن بطشه.

ويوم الدين هو يوم القيامة؛ يوم يقف الناس جميعاً، من قُتل في الحرب ومن مات على فراشه، والذي أكله السبع والذي غرق في البحر، والذي احترق وصار جسده فحماً... يجمعهم الله جميعاً، الأوّلين والآخرين، فيقف الملك بجنب الصعلوك، والغني بجنب الفقير، وتسقط الفوارق ولا يبقى من فرق إلا بالعمل الصالح، هنالك ينادي المنادي: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؟ للسلاطين؟ للجبارين؟ للأغنياء؟

لا؛ بل ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾. ذلك هو رب العالمين ومالك يوم الدين.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ أي لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك.

والعبادة هي كل ما فيه إقرار بالربوبية للمعبود؛ فالصلاة عبادة، والسجود عبادة، والدعاء عبادة، والطواف بالقبور بنيّة التعظيم وقياساً على طواف الكعبة عبادة لغير الله. والاستعانة هنا هي الاستعانة بما هو وراء الأسباب، فلا تُمنع الاستعانة بالطبيب على وصف الدواء، ولا الاستعانة بالمحامي على حسن الدفاع، ولا الاستعانة بأرباب الصناعات، بل الاستعانة الممنوعة إلا بالله وحده هي طلب ما وراء الأسباب. كمَن يطلب من غير الله أن يشفي

مريضه بلا علاج، أو يرجع فقيده بلا بحث، أو يطلق سجينه بلا شفاعة، أو يفرّج كربه بغير سبب مادي.

بعد أن حمدت الله على نِعَمه، وعرفت بأنه رب العالمين وأنه أرحم الراحمين وأنه هو مالك يوم الدين، وبعد أن نزّهته عن الشريك (الشرك الظاهر والشرك الخفي) وخصصته وحده بالعبادة، فإن الله يعلّمك كيف تطلب منه ما ينفعك، وقد أجمل لك الخير كله في كلمة واحدة: الصراط المستقيم.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي دلّنا على الطريق الموصل إلى كل خير في الدنيا وفي الآخرة.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. المغضوب عليهم عرفوا الحق ولم يتبعوه، ومنهم اليهود. والضالون لم يعرفوه ولم يتبعوه، ومنهم النصارى. والذين أنعم الله عليهم عرفوه واتبعوه، وهم الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون.

«آمين»، أي اللهمّ استجب لنا وتقبّل دعاءنا.

ثم يقرأ السورة متدبراً معناها مفكراً فيها. ولنختر لك سورة من أقصر سور القرآن، «الماعون».

في هذه السورة بيان ثلاثة أصناف من الناس. الصنف الأول: الذين يؤمنون برسالة محمد ﷺ، وهؤلاء يتّصفون أبداً بالكمالات الإنسانية ويجمعون أطراف الخلق الكريم.

الصنف الثاني: الذين يؤمنون ولكن لا يعملون بما يؤمنون به ولا يحافظون عليه، فهم ينسون الصلاة ويمتنعون عن القيام بأيسر أعمال الخير، وهو إعارة ماعون للجار.

الصنف الثالث: المكذّبون بالدين، الذين فقدوا مزايا الإنسانية، حتى إنهم ليقسون على اليتيم ولا يبالون بالعطف على المسكين.

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؟[1] الخطاب من الله إلى رسوله محمد ﷺ يقول له: ألا تعجب من هذا الذي يكذب الحقائق الظاهرة وينكر بلسانه ما يصدق به قلبه ويؤمن به عقله؟ وهل في الحقائق كلها ما هو أثبت من وجود الله؟ وهل في طرق الخير ما هو أقرب وأظهر من هذا الدين؟

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾، أي يقسو عليه ولا يرحم ضعفه، وتلك هي نتيجة للتكذيب بالدين وملازمة لها، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾، ولا يرغّب فيه ولا يفكر في آلام غيره، ما يهمه في الحياة إلا نفسه. وهذا هو النموذج للصنف الثالث.

أما الصنف الأول فيُفهم من هذه الآيات؛ فكما أن المكذِّب بالدين يَدُعّ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، فالمصدّق بالدين يرحم الأيتام ويهتم بإطعام المساكين، ويكون عاملاً على كل ما فيه الخير للناس.

---

(١) ما جاء في هذه المقالة من وجوه التفسير هو ما فهمته من التلاوة ولم أنقله عن أحد، فإن وافق المراد فالحمد لله، وإلا فإني أرجع عنه وأستغفر الله.

والقسم الثاني ضرب الله مثلاً عليه المصلين الذين يسهون عن صلاتهم، تهاوناً بها واشتغالاً عنها. ﴿فَوَيْلٌ﴾ والويل كلمة عذاب ﴿لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ إن صلّوا بصلاتهم، لا يقصدون بها وجه الله، ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ لأن من صفتهم أنهم لا يقدّمون لأحد خيراً مهما قلّ. فمَن غفل عن صلاته ثم تاب وأداها مخلصاً لا مرائياً وكان ممن يحب الخير لم يكن من هذا الصنف.

❋ ❋ ❋

ثم يقول: «الله أكبر» ويركع، يحني رأسه ليجمع بين الخشوع المادي والمعنوي، خشوع الجوارح وخشوع القلب.

وقد جُعلت «الله أكبر» شعار الصلاة، يرددها المصلي عند كل حركة لتكون سلاحاً بيدك، فكلما وسوس إليك الشيطان وقال لك: عجّل في صلاتك فإن فلاناً ينتظرك وهو كبير في الناس، قلت: اسكت واخنس، فإني بين يدي الله والله أكبر. وإن شغل فكرك بتجارة أو ربح، أو لذة أو متعة، أو رغبة أو رهبة قلت: الله أكبر.

وتسبّح الله ربك العظيم ممتلئاً قلبك بتنزيهه والتفكير في عظمته، وتخرج من جسدك ومن مطامع دنياك، ويكون الشرع هو الذي يتكلم على لسانك، يقول لك مبشراً: «سمع الله لمن حمده»، فتقول أنت مستبشراً فرحاً: «ربنا لك الحمد».

ثم يكون سجودك تعبيراً آخر أقوى وأظهر على خضوعك واستسلامك، تضع جبينك خضوعاً لله على الأرض فتقول: «سبحان ربي الأعلى»، فيجمع الله لك لذة العبودية بهذا الخضوع ولذة العزة بهذا التسبيح، وتذوق حلاوة الإيمان. ولذلك جاء: «إن العبد يكون أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد».

❋ ❋ ❋

ثم تعود فتقرأ الفاتحة وسورة أخرى.

ولنأخذ سورة قصيرة من ثلاث جمل صغار، ولكنها تصلح أن تكون دستوراً للفرد وللجماعة، لم تترك باباً من أبواب الخير إلا فتحته ولا خلة من خلال صلاح الفرد والجماعة إلا تعرضت لها، حتى إن من العلماء من قال (وأظن أن القائل هو الشافعي): لو لم يُنزل الله من القرآن إلا هذه السورة لكفت الناس.

ومن معجزات القرآن أنه جمع تلك المعاني كلها في آيات ثلاث صغار، هي: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وأنا لا أسرد أقوال الناس في العصر: هل هو الدهر أو هو وقت العصر أو هو صلاة العصر، لأن الله كشف لي معنى آخر، هو أن العصر «الزمان»، وكل إنسان يخسر بفعل الزمان. يخسر عمره، إذ لو كان مقدَّراً له أن يعيش سبعين سنة فإنه يخسر سنة منها كلما عاش سنة، ويخسر شبابه، ويخسر قوته، ثم ينتهي بمرور الزمان إلى الموت فيخسر كل شيء، حتى الحياة، ولا يبقى له إلا الإيمان والعمل الصالح.

فالإيمان -كما أفهم- يتعلق بصحة «المذهب» والعمل الصالح يتعلق بالتطبيق، والمعنى أن على الإنسان الذي يريد اجتناب الخسارة أن يبني مذهبه في الحياة على معرفة الحق من الباطل ويؤمن بالحق وحده، فيكون صحيح النظر والفكر، وأن يطبق الحق الذي عرفه وآمن به على حياته.

وهذا دستور شامل لحياة الفرد العقلية والعملية، ومن عرف الحق وعمل به فقد بلغ أعلى درجات الكمال.

وفي الآية التالية دستور لحياة الجماعة، فلا يكفي أن يعرف الفردُ الحقَّ في نفسه، بل ينبغي أن يوصي غيره به ويدله عليه. ولا يكفي أن يعمل به وحده، بل لا بد من التواصي على العمل الجماعي والصبر على مشاق هذا العمل.

وهنا تعليقات ثلاث لا بد منها: الأولى: أن القسم من الناس لا يكون إلا بالله، لا يجوز لهم الحلف بغير الله أصلاً، لأن هذا الحلف يدل على التعظيم المطلق والعبادة. أما قسم الله في القرآن بأشياء مخلوقة (والعصر، والضحى، والليل، والسماء...) فهو للدلالة على مزايا فيها ولفت الأنظار إليها.

الثانية: أن أولى الحقائق التي ينبغي أن يؤمن بها الإنسان لينجو في الآخرة هي وجود الله، وأن له وحده الخلق وله الأمر وهو المخصوص بالعبادة، ثم التصديق برسالة محمد ﷺ والعمل بها.

الثالثة: أن الصبر على أنواع: منها الصبر على المصيبة. والدنيا مملوءة بالمصائب ولا ينجو أحد من نكبة في صحة أو مال أو موت أو فقد قريب، ولا عزاء عنها إلا بالتواصي بالصبر وذكر ثواب الله للمصلين، ولعله إذا اطلع على ما أعد الله له فرح بالمصيبة، كمَن يذهب ماله أو يخرب بيته في زلزال أو حريق، إذا عوضته الحكومة ثمنه أضعافاً فرح بذهاب المال وخراب الدار.

والصبر على ألم الطاعة، فمن ترك فراشه الدافئ وقام إلى صلاة الصبح في ليالي الشتاء يتألم، ومن حمل الجوع والعطش في أيام الصيف في رمضان يتألم، ومن قهر نفسه على إخراج الزكاة يتألم، ولكنه إن ذكر ثواب الله وصبّر النفسَ تحول هذا الألم لذة.

والصبر عن المعاصي، وهذا أصعب أنواع الصبر، وهو الامتناع عن لذة المعصية مع القدرة عليها، كالموظف الذي يرى زملاءه يرتشون ويسرقون وهو يقدر على ذلك ولكنه يمتنع عنه ويصبّر نفسَه، والشاب الذي يرى التبرج والإغراء ويسمع من إخوانه أحاديث مغامراتهم الغرامية، ولكنه يمتنع عن مجاراتهم خوفاً من الله ويصبّر نفسَه، إن الله يظله بظلّ العرش يوم الموقف الأكبر، يوم لا يجد الناس ظلة ولا وقاية من أمر الله.

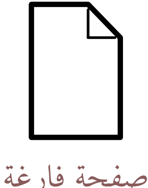
ثم يكبّر ويركع ويسجد. فإذا فرغ من هذا كله قعد يرفع إلى ربه تحية الخروج من الصلاة كما رفع في أولها تحية الدخول فيها، فأثنى على ربه الذي توجه إليه وحده، مخلصاً له مريداً ثوابه طالباً منه كل خير يريده، ثم صلى على رسوله محمد ﷺ الذي كان واسطة هذا الخير، ثم سلم على نفسه التي تطهرت بهذه الصلاة وعلى عباد الله الصالحين.

وهذه أعظم مكافأة للمصلي، أن يكون من الصلاة تحية نفسه

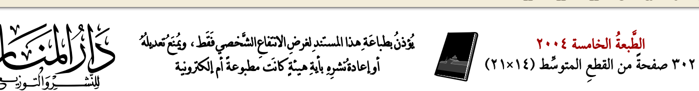
مع تحية الله ورسوله. ثم يجدد البيعة ويؤكد العهد بترديد الشهادة لله بالوحدانية ولمحمد بالعبودية والرسالة، ثم يطلب ما يشاء من الحاجات فيبدؤها بسؤال الله الرحمة والسلام والبركات على من كانت هذه النعم عن يديه، محمد ﷺ، مصلّياً الصلاة الإبراهيمية، وهي أفضل صيغ الصلاة على الرسول على الإطلاق، وسأل لنفسه وللمسلمين.

ثم يعود بالسلام: «السلام عليكم ورحمة الله»، ويعود إلى هذه الدنيا ولكن بغير النفس التي تركها بها، يعود وفي قلبه حلاوة الإيمان ولذة المناجاة، وهذه المعاني التي أثارها فيها ما تلا من قرآن وذكر، وهذه الخشية التي أحسّ بها، وهذه القوة التي استشعرها.

❊ ❊ ❊

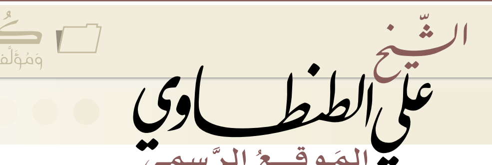


صفحة فارغة



الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



كتاب في «الدين الإسلامي»

نشرت سنة ١٩٣٩

كان الأعرابي الجلف الجافي يقعد بين يدي النبي ﷺ ساعة من زمان يستمع فيها إليه، فلا يقوم إلا وقد فهم الإسلام وعرفه وصار من المبشرين به والداعين إليه. وكان يصحب النبي أياماً، فلا تنقضي حتى يغدو عالماً يبعثه النبي إلى قومه معلماً ومرشداً، فيعرّفهم الحدود ويبيّن لهم الحلال من الحرام.

كان هذا يوم لم يكن تدوين ولم تصنَّف المصنفات ولم تُجمَع الأحاديث، وها نحن أولاء نملك أكثر من مئة ألف كتاب ورسالة في التفسير والحديث والفقه والأصول والتصوف والسيرة والخلاف، وكل ما يخطر على بال باحث من المسائل المتصلة بالإسلام، ولكننا لا نجد فيها كتاباً واحداً لخّصَ الإسلام كله تلخيصاً وافياً وعرضه عرضاً واضحاً، يقرؤه الشاب فيفهم فيه الدين كله كفهم الوافدين على النبي ﷺ الدين حين دخلوا فيه أفواجاً.

ولقد أحسست بهذا النقص منذ ابتداء عهدي بالطلب، وعرضت له في رسائل «في سبيل الإصلاح» التي نشرتها في دمشق (إثر عودتي من مصر سنة ١٩٢٩)، بيد أني لم أعرف خطره إلا أمس، حين درّست الدين في مدارس العراق وشرحت للطلاب مزاياه وكشفت لهم عن عظمته، فكانوا يتشوّقون إلى زيادة الاطلاع ويرغبون في متابعة الدرس، فيسألونني عن الكتاب الذي يجدون فيه خلاصة الدين كما يجدون خلاصة الطبيعة أو الهندسة في كتاب واحد، فأفكر فيه فلا أجده، ولا أجد إلا علوماً كثيرة من كلام وفقه وحديث وتفسير فيها آلاف من الكتب يعتدّها المؤرخون أثمن تراث للعقل البشري وأغناه، ولكنها أصبحت اليوم بالية الأسلوب قديمة الطراز، كحلية من الذهب، ما نقص الذهب ولا خاس ولكن أنكر الشكل وتغيرت الأذواق، والصائغ الماهر يحوّل الحلية من حال إلى حال. وكنت أخاف أن ينصرف الطلاب عن دراسة الإسلام وتموت في نفوسهم الرغبة فيه إذا أنا دللتهم عليها وأردتهم على قراءتها. وليت شعري أأقول للطالب الذي لم تدع له دروسه الكثيرة إلا بقية من وقت آثر أن يشغلها بدراسة الدين عن أن ينفقها في حق نفسه وراحتها، أأقول له إنك لا تفهم الإسلام حتى تقرأ «النسفية» و«السنوسية» وأشباهها وتدخل في كل باب من أبواب الفلسفة الفارغة والجدل العقيم، وتدور مع المذاهب الباطلة والرد عليها والآراء الخاطئة ودفعها، وتحفظ كفر أقوام انقرضوا وانقطع دابرهم، كل ذلك لتفهم التوحيد الذي جاء به النبي ﷺ واضحاً سهلاً لا فلسفة فيه ولا جدال... وتقرأ «الطحطاوي والشرنبلاني» أو «الباجوري» أو غيرهما من كتب الفروع، وتملأ الرأس منك فروضاً مستحيلة واحتمالات بعيدة، تتخلل الأحكام وتجيء مع قوانين الشريعة، كل ذلك لتعرف كيف تصلي وتصوم، وقد كان البدوي يتعلم الصلاة والصيام في ساعة واحدة ويؤديهما من بعدهما على وجه الكمال... وتقرأ «شروح المنار» أو «جمع الجوامع» وتكسر دماغك في كلام هو (والله العظيم) أشبه بالطلاسم والأحاجي منه

بالعلم وأسلوبه المبين، لتفهم أصول الفقه. والأصول في هذا الدين ثابتة ثبوت الجبال، واضحة وضوح الشمس، مستقيمة كخيوط النور لا عوج فيها ولا التواء ولا غموض ولا إبهام... وتقرأ «النخبة» أو «مقدمة ابن الصلاح» لتفهم مصطلح الحديث، وتقرأ بعد ذلك شيئاً كثيراً... ثم لا تنجو بعده من أن يتهمك الصوفية بأنك وهّابي، والسلفيون بأنك قُبوري[1]، ولن تعدم من يتبرع بتكفيرك من أجل بحث في كرامات الأولياء أو كلام في السفور أو رأي في ابن عربي... فأين الشاب المشغول بدروسه المتهيئ لفحصه في هذا الخضمّ الذي يغرق فيه لو خاضه؟ أوَلا يُعذَر الشبان إذا لم يقدروا على درس الدين في كتبه، ولم يجدوا من يفهم عنهم أو يفهمون عنه من علمائه، فآثروا السلامة وابتغوا من العلوم والدراسات ما له كتب مفهومة وخلاصات واضحة؟

أحسست بهذا النقص البيّن، فكتبت في وصفه وخطبت مراراً وسألت مَن توسّمت فيه من العلماء سده وإكماله[2]، فوجدت من علمائنا من لا يحسن شيئاً إلا إقراء الكتب التي كان قرأها على مشايخه من قبل وشَرْحها كما شُرحت له، فإن خرجتَ به عن الحواشي والشروح عاد عامياً لا يكاد يصلح لشيء. ووجدت أكثرهم بعيداً عن الأدب ليس من أهل البيان، ومنهم من لا يزال

(١) كذا يقولون، والقياس الإفراد عند النسبة. هذا وليس الغرض إهمال هذه الكتب، فإنها المصادر التي لا بد منها لمن يحب التخصص في علوم الشرع، ولكن الكلام على طلاب المدارس.

(٢) انظر مقالتَي «كتاب في الدين الإسلامي» و«تعميم الثقافة الإسلامية» في هذا الكتاب (مجاهد).

يظن -جهلاً- أن الإسلام كَرِه الشعر وحرّمه ويحتج بحديث: لأن يمتلئ جوف أحدكم... ولقد ثبت أن الذي يروونه جزء من الحديث كرواية ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾[1]. ومن ابتعد عن الأدب ولم يتمرّس بأساليب البلغاء لم يأتِ منه خير، لأن علمه يقتصر عليه فلا يقدر على بثه بقلم ولا بلسان... ووجدت أكثر علمائنا يعيش في دنيا أهل القرن التاسع ويفكر بعقولهم، ومنهم من شغله منصب يحرص عليه أو مال يبالغ في جمعه وادّخاره، ومنهم من أخلد إلى الراحة وابتغى الجاه والغِنى من شر الطرق وأقصرها، فمَخْرَقَ على العامة وأظهر الورع فيهم والتواجد، فإن قلت له: صباح الخير، أو سألته عن مسألة، أجابك: «لا إله إلا الله» أو بالحوقلة والاستغفار، يقلّب سبحته في يده ويغمض عينيه ويصمت حيناً خاشعاً مراقباً، ثم يصرخ في وجهك صرخة من أفلت من «العصفورية» أو «العباسية». ورأيت من هؤلاء من العجائب ما لو قصصته لخفت أن أكذَّب فيه لغرابته، فأيست منهم أو كدت، ودفعني هذا اليأس إلى محاولة الكتابة في هذا الموضوع على قصر يدي فيه وقلة بضاعتي، وأعددت -في نفسي- أكثرَ مباحثه، ثم رأيت أن أفتح هذا الباب في الرسالة (بإذن الأستاذ الزيات) لكل من أراد أن يكتب فيه وارتضى الأستاذ ما كُتب، ورجوت أن يُقبل على الكتابة العلماء والباحثون، ينشئ كل منهم فصلاً من الكتاب يُنشَر اليوم في الرسالة، ثم إذا اجتمعت الفصول ونقّحها أصحابها وأعادوا النظر فيها أودعت صفحات كتاب يبقى إن شاء الله وينتفع به الناس.

(١) انظر كتاب «الإجابة» الذي نشره أخي سعيد الأفغاني وحققه وعلق عليه ونشرته المكتبة الهاشمية بدمشق.

ولعل الذي يمنع تحقيق هذا الرجاء أن أكثر من يكتب من الشباب ويملك الأسلوب المشرق المبين لا اطلاع له على كتب الدين ولا إلمام له بها، وأكثر العلماء (كما قدمت القول) غير مشتغلين بالكتابة، وعلاج ذلك أن يشترك في البحث عالم مطّلع وأديب كاتب، فيمشي الشاب الذي يحسن الكتابة إلى عالم يدله على المراجع ويبيِّن له الأحكام، وينشئ هو الفصل بعد ذلك، فيجتمع له فوائد، منها أن البحث قد كُتب وتم، ومنها أنه اطّلع على نواح من العلم جديدة، ومنها أنه أَلِفَ هذه الكتب القديمة وعرف أسلوبها[1].

ولْنأتِ الآن إلى الموضوعات التي ينبغي أن يشتمل عليها الكتاب: ما هي وما حدودها؟ ولست أحب أن أحددها وحدي بل أبين المراد إجمالاً، والمراد أن يُلخَّص الدين الإسلامي في كتاب يضم بين دفتيه الإسلام الذي جاء به النبي محمد ﷺ خالياً من الحشو والزيادات والبدع والخلافات، يقرؤه الشاب المسلم الذي لا يعرف الدين فلا يحتاج بعده إلى شيء، ويقرؤه العامي فيفهم منه دينه، ويقرؤه الغربي (مترجَماً) فيحصل له عن الإسلام فكرة واضحة صحيحة. وإذا كان المسلم الكامل هو الذي أخذ الإسلام علماً وعملاً واعتقاداً، وإذا كان حديث جبريل المعروف قد قسم الدين إلى إيمان وإسلام وإحسان، وشرح الأول بأنه التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وشرح الثاني بأنه النطق بالشهادة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، وفسّرَ الإحسان بأنه عبادتك الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك؛ فإن من المستطاع تحديد موضوعات كتاب «الدين الإسلامي» بأنها:

الإيمان وما يتصل به: الإيمان بالله (التوحيد)، الإيمان بالملائكة والجن والشياطين، الإيمان بالكتب، القرآن وما يتصل به من نزول وجمع وإعجاز، الرسالة والرسل، حياة محمد ﷺ ورسالته، اليوم الآخر، القضاء والقدر، الصلاة: حكمتها وفائدتها وكيفيتها وبيان المتفَق عليه من أحكامها، الصوم، الزكاة، الحج، الأخلاق الشخصية في الإسلام، الأخلاق الاجتماعية في الإسلام، الإسلام من الناحية التشريعية، الإسلام من الناحية السياسية، فكرة عامة عن العلوم الإسلامية، المذاهب الأربعة والكلام عليها، إلخ.

هذه هي المباحث المهمة، وأهم منها أن تكتَب بأسلوب لا هو بالأسلوب العلمي الجامد ولا هو بالأسلوب القصصي الخيالي، وأن تكون تعليمية قبل أن تكون علمية، وأن ترتفع عن كل خلاف أحدثه المتأخرون وتعود إلى المنبع الصافي الذي استقى منه المصدر الأول خير القرون.

هذا وفي الموضوع مجال للإيضاح والنقد والتعديل، ولعل صفحات الرسالة لا تخلو من ذلك.

* * *

(١) كتب جدي ـ رحمه الله ـ هذا الكتاب أخيراً ولخّص في أوله قصته معه. انظر فصل «قصة هذا الكتاب» في أول كتاب «تعريف عام بدين الإسلام» (مجاهد).

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

خطب الجمعة

نشرت سنة ١٩٥٩

كان وفد من العلماء يزور واحداً من كبار أولي الأمر من عهد قريب، يشكو إليه فساد الأخلاق وانتشار المعاصي وهذه المنكرات البادية، فقال لهم: أنا أعجب من أمركم؛ عندكم هذه المنابر التي تستطيعون أن تصلحوا بها كل فاسد وتقوِّموا كل معوَجّ، ثم تشكون إليّ ما تجدون!

وهي كلمة أجراها الله على لسانه لتقوم بها الحجة علينا مرتين: مرة لأنها كلمة حق لا ينازع في صحتها منازع، ومرة لأنها جاءت موعظة منه هو لمن يتصدّون لوعظ الناس.

ولو كان عُشر هذه المنابر في أيدي جماعة من الجماعات العاملة المنظَّمة لصنعت بها العجائب. فما بالنا وهي في أيدينا لا نصنع بها شيئاً؟ وما أذهب في الاستدلال إلى عرض أوجه الاحتمال وعندي الواقع الذي ليس فيه جدال، هو منبر رسول الله ﷺ وهذه المنابر.

كان للرسول صلوات الله عليه منبر واحد: درجات من الخشب ليس فيها براعة النقش ولا فيها روعة الفن، وليس عليها قبة ولا لها باب، دعا منها فلبَّت الدنيا واستجاب العالم، وترك بها على الأرض أعظم أثر عرفه تاريخ الأرض.

وعندنا اليوم مئة ألف منبر مبثوثة ما بين آخر أندونيسيا وآخر المغرب، كلها مزخرف منقوش استنفد جهد أهل العمارة وعبقرية أهل الفن، وفيها المكبّرات والإذاعات تحمل الصوت منها إلى آفاق الأرض فيُسمِع خطباؤها الملايين، ولا نرى لها -مع ذلك- أثراً في إصلاح ولا عملاً في نهضة.

فما هو السر في تلك القوة وفي هذا الضعف؟

تعالوا نفكر في ذلك جميعاً؛ نعرض أحوال هذه الخطب ونفتّش عن حالها، ولا يغضَبْ مني أحدٌ فما أريد الفضيحة ولا التشهير، إن أريد إلا الإصلاح. وأنا -بعد- واحد من الخطباء لست غريباً عنهم ولا مبرَّأً من عيوبهم، وما يقال فيهم يقال مثله فيّ أنا، ومن أجراك مجرى نفسه ما ظلمك. ولو سألت من شئت من المصلين عن هذه الخطب لسمعت منه طرفاً من عيوبها.

فمن عيوبها هذا التطويل وهذا الإسهاب، حتى لتزيد الخطبة الواحدة أحياناً على نصف ساعة، مع أن السنة تقصير الخطبة وتطويل الصلاة، وألاّ تزيد الخطبة على سورة من أوساط المفصَّل، أي على صفحتين اثنتين فقط. وهذه خطب الرسول المأثورة وخطب الصحابة، منها ما هو صفحة واحدة أو أقل من ذلك.

ويا ليت دائرة الإفتاء أو الأوقاف تُلزم الخطباء بألاّ تزيد أطول خطبة يلقونها عن ربع ساعة. وأنا أخطب في مسجد جامعة دمشق، فلا تمر ثلث ساعة أو خمس وعشرون دقيقة على أذان

الظهر حتى تكون قد انتهت الخطبة والصلاة، ذلك لأننا تركنا هذه البدع التي تكون قبل الخطبة، فلا نقرأ ما يسمى «الصمدية» ولا يجهر المؤذن بهذه الصلوات، بل نسمع أذان الظهر فنصلي السنة ويصعد الخطيب المنبر فوراً. وكذلك كان يفعل رسول الله وأصحابه، ولا خير فيما لم يفعله رسول الله ﷺ.

ومن عيوبها أنه ليس للخطبة موضوع واحد معين، بل تجد الخطيب يخوض في الخطبة الواحدة في كل شيء؛ ينتقل من موضوع إلى موضوع، فلا يوفي موضوعاً منها حقه من البحث. فإذا جاء الجمعة الثانية عاد إلى مثل ما كان منه في الجمعة الأولى، فتكون الخطب كلها متشابهة متماثلة وكلها لا ثمرة له ولا يخرج السامع له بنتيجة عملية. ولو أن الخطيب اقتصر على موضوع واحد -جلَّ أو دقَّ، كبر أو صغر- فتكلم فيه ولم يجاوزه إلى غيره لكان لخطبته معنى، ولأخذ السامع منها عبرة وحصل منها فائدة.

ومن عيوبها أن الخطيب (أعني بعض من يخطب) يحاول أن يصلح الدنيا كلها بخطبة واحدة، فلا يخاطب الناس على قدر عقولهم ولا يكلمهم على مقتضى أحوالهم ولا يسير بهم في طريق الصلاح خطوة خطوة، بل يريد أن يبلغوا الكمال بقفزة واحدة، مع أن الطفرة في رأي علمائنا محال.

ومن عيوبها أنها صارت (كليشات) معينة، ألفاظ تردَّد وتعاد، لا سيما في الخطبة الثانية. مع أن الخطبة الثانية لا تختلف في أصل السنّة عن الأولى، وما يلتزمه الخطباء فيها من الصلاة الإبراهيمية والترضّي عن الخلفاء والتابعين بأسمائهم لم يلتزمه أحد من السلف.

وخطبة الجمعة عند الحنفية لا يشترط لصحتها إلا أن تكون دينية وأن يكون فيها تذكير بالشرع، وهذه (الكليشات) كلها ليست من شروط الخطبة، والدعاء الذي يكون في آخر الخطبة ليس شرطاً ولا كان السلف يواظبون عليه.

والدعاء مطلوب وهو مخ العبادة وروحها، ولكن الدعاء المطلوب هو الذي يكون عن قلب حاضر ومراقبة الله وثقة بالإجابة، فإن كان دعاء بالمأثور كان أحسن، أما أن يكون الغرض منه إظهار سعة الحفظ وبلاغة اللفظ فلا. والدعاء للسلاطين بأسمائهم بدعة، وقد نص الحنفية على أنه مكروه إن ذُكر السلطان بالتعظيم، فإن قال عنه ما ليس فيه (كما كان بعض الخطباء في مصر يقولون عن فاروق) فكذب وافتراء.

وآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ التي يلتزمها الخطباء في آخر الخطبة ويظنها العامة من شرائط الخطبة ليست شرطاً فيها، فإن تلاها أو تلا غيرها، أو لم يتلُ في ختام الخطبة شيئاً، لم يكن عليه شيء.

وكونهما خطبتين والقعود بينهما سنّة، فإن جعلها خطبة واحدة (ولو جملاً معدودات) فقالها ونزل لا شيء عليه عند الحنفية. ولما ولي عثمان الخلافة صعد المنبر ليخطب أول جمعة فأُرْتِج[1] عليه ولم يستطع الكلام، فقال: "إن مَن كان قبلي كان يُعدّ

(١) أي انسدّ عليه باب الكلام. والإرتاج الإغلاق، ومنه رِتاج الباب.

لهذا المقام كلاماً، وأنا إن أعش فستأتيكم الخطب على وجهها إن شاء الله". ونزل، وكانت هذه هي الخطبة ولم يعترض عليها أحدٌ من الصحابة.

ومن عيوبها هذا التكلف في الإلقاء، وهذا التشدق في اللفظ، وهذه اللهجة الغريبة. وخير الإلقاء ما كان طبيعياً لا تكلُّف فيه، والرسول قد كره المتشدقين وذمهم.

ومن أعظم عيوب الخطبة في أيامنا أن الخطيب ينسى أنه يقوم مقام رسول الله ﷺ ويتكلم بلسان الشرع، وأن عليه أن يبيّن حكم الله فقط لا آراءه هو وخَطَرات ذهنه، ويحرص على رضا الله وحده لا على رضا الناس، فلا يتزلف إلى أحد ولا يجعل الخطبة وسيلة إلى الدنيا وسبباً للقبول عند أهلها.

ومن عيوبها أن من الخطباء من يأتي بأحكام غير محقَّقة ولا مسلَّمة عند أهل العلم، يفتي بها على المنبر ويأمر الناس بها، ولو اقتصر على المسائل المتفَق عليها فأمر بها العامة وترك الخلافيات لمجالس العلماء لكان أحسن. ومنهم (وهذا كثير) من يأتي بالأحاديث الموضوعة أو الضعيفة المتروكة، مع أنه لا يجوز لأحد أن يسند حديثاً إلى رسول الله ﷺ حتى يتوثق من صحته (بأن يصححه أحد المحدثين الموثوق بهم كأصحاب الكتب الستة على اختلاف شروطهم في تصحيح الأحاديث، أو يعتمده فقهاء مذهب من المذاهب الأربعة ويتفقوا على الأخذ به). ومن أخذ كل حديث يجده في كتاب أو يسمعه من فم إنسان، فنسبه على المنبر إلى الرسول من غير أن يعرف درجته من الصحة ومن غير أن يبحث عن مخرجه وراويه، أوشَكَ أن يكون داخلاً تحت حديث:

«من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». فلينتبه الخطباء إلى هذا، فإنه من أهم المهمات.

ويا ليت خطيب كل مسجد يعد لخُطَب الشهر برنامجاً يعلقه على باب المسجد، أو يبين للناس -على الأقل- أن خطبة الجمعة القادمة موضوعها كذا ومدتها كذا، ليكون المصلي على بينة من أمره، ويجعل الخطبة الثانية مطلقة يتكلم فيها عما يجدّ بعد إعلان موضوع الخطبة الأولى أو يجعلها موعظة عملية[1].

وأن يكون منهج الخطيب أن يعمل لإصلاح الأفراد أولاً، ثم يتكلم عن إصلاح الأسر والبيوت، ثم يبحث في الإصلاح العام. وأن يبدأ بما بدأ به الشرع فيصحح التوحيد أولاً، ثم يأمر باجتناب المحرمات، ويعدّدها ويجعل لكل منها خطبة، من آفات اللسان كالكذب والغيبة والنميمة، إلى السرقة والزنى والغش وعقوق الوالدين وشهادة الزور وأمثالها، ثم يأمر بالفرائض ويجعل لكل

---

(١) هذه الاقتراحات طبّقها جدي لمّا تولى خطابة الجمعة بعد ذلك. انظر الجزء الثاني من «فتاوى علي الطنطاوي»، ص٨٤، وفيه: وأنا قد توليت خطبة الجمعة احتساباً بلا راتب سنين طويلة، في مسجد جامعة دمشق ثم في جامع المرابط في حي المهاجرين في دمشق، فكنت أعلن من أول الشهر (وألصق الإعلان على باب المسجد) موضوع الخطبة الأولى لكل جمعة ليعرفه المصلون قبل أن يأتوا إلى الصلاة، كما يعرفون موضوع كل محاضرة يذهبون لاستماعها. أما الخطبة الثانية فأجعلها لبيان حكم الشرع فيما يجدّ من الأحداث. أما ما يمشي عليه أكثر الخطباء من جعل الخطبة الثانية أدعية لا تتبدل (حتى إن من السامعين من يحفظها غيباً) فهذا مخالف لما شُرعت له الخطبة (مجاهد).

منها خطبة يبين فيها أحكامها، لا بيان الفقيه الذي يعدد الشروط والأركان والسنن والمكروهات، بل بيان المرشد الذي يبين الأعمال ويدل على طريق الإخلاص فيها، فيتكلم عن الصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف وما إلى ذلك.

وعلى السامعين أن يعلموا أن سماع الخطبة ليس للبركة فقط، بل للاتّعاظ بها والعمل بما يتعلمه منها، والعاقل منهم من استفاد من صحة القول ولو شكّ في حال القائل، والحكمةُ ضالة المؤمن يأخذها من حيث وجدها.

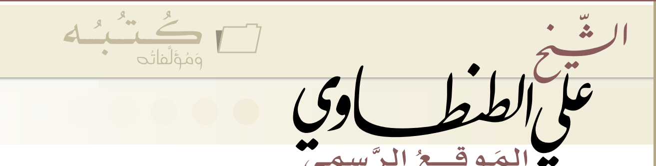
هذه خواطر في الموضوع، لم أقصد فيها لَمَّ جوانبه وجمعَ أطرافه واستيفاءَ القول فيه، لأن الكلام فيه طويل والمجال قليل، والقصد التنبيه.

* * *

صفحة فارغة

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحة من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



الإيمان

نشرت سنة ١٩٣٩

معناه اللغوي

إذا قال لك قائل إن جزء الشيء يساوي مجموعه، أنكرت ذلك عليه وكذبته فيه، لأنك «تؤمن» بأن الجزء أصغر من الكل، وتقطع بذلك قطعاً ولا ترى عنه معدلاً. وإذا وجدت من يبذل دمه في سبيل وطنه، ويفديه بنفسه وماله، ويحرص على خدمته، قلت إنه من ذوي «الإيمان» الوطني.

والإيمان بهذا المعنى هو العقيدة الثابتة في النفس، أو العاطفة القوية الراسخة التي لا تتبدل ولا تتزعزع. ولا يحتاج إلى التدليل عليها، لأنها من البديهيات بالنسبة لصاحبها المؤمن بها.

فالإيمان -في اللغة- التصديق، وفعله آمن، وأصلها «أأمن» بهمزتين ليّنت الثانية.

أنواع الإيمان

يتضح لك مما مثّلنا أن للإيمان نوعين: فإيمانك بأن الرغيف أكبر من نصفه وأن الواحد ثلث الثلاثة «إيمان عقلي»، لا أثر لك فيه ولا عمل، وإنما هو من الفطرة التي فطر الله الناس عليها. أما «الإيمان الوطني» فهو «إيمان قلبي» لا دخل للعقل فيه، هو فردي شخصي يختلف عن «الإيمان العقلي» الذي يتّصف بكونه عاماً شاملاً العقلاء جميعاً.

وهذا التقسيم جديد، استنبطته من الأمثلة المختلفة للإيمان ورأيت فيه نفعاً، لأنه يثبت جنس الإيمان، ولأنه -بعد ذلك- يساعد على تحديد البحث. أما الإيمان بأصول الدين فهو من نوع الإيمان القلبي، ولكن للعقل دخلاً فيه من حيث إنه يقبل مبدأه ويقر نتائجه، ولا يناقضه وإن كان لا يفهمه تماماً.

وبيان هذه المسألة المهمة أن العقل «يؤمن» بادي الرأي بوجود الله وبأنه عادل، ولا يناقض نتائج الإيمان بالقدر إجمالاً، ولكنه لا يستطيع أن يفهمها ولا أن يعقلها.

ومنشأ ذلك أن العقل مقيد في أحكامه بالحواس والخيال والاختبارات السابقة، لا يستطيع أن يتخلى عنها أو يخرج عليها؛ فهو يحكم على عدل الله بما يعرف من حدود العدل البشري وما لديه من الاختبارات، فيقع في الخطأ لاختلاف فكرة العدل البشرية النسبية عن فكرة العدل الإلهية المطلقة. فالعقل إذن لا يستطيع أن ينقض نتائج الإيمان ولكنه لا يؤمن تماماً، وإنما الذي يؤمن هو القلب.

الإيمان في الدين الإسلامي

عرفنا معنى الإيمان في اللغة. أما معناه في الدين فهو التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر، فمن صدق بها تصديقاً جازماً فهو المؤمن حقاً.

وقد جعل الله هذا التصديق أصلَ الدين وأساسه، وأقام الأدلة على هذه المسائل وخاطب بها العقل. لكن الذي أفهمه أن العقل يقبل مبدأ الإيمان إجمالاً ثم يدع دقائقه للقلب؛ أي أنه كالملك في الدولة، يوقع على المرسوم ولكنه يدع لغيره من الموظفين فهمه وتطبيقه ومراعاته دائماً. فالعقل يؤمن بأن الله موجود وأن القرآن كتابه الذي أنزله وأن محمداً نبيه الذي لا ينطق عن الهوى، ثم يقف ويدع للقلب «الإيمان» بكل ما جاء في الكتاب وما نطق به الرسول، والاطمئنان إليه والتصديق به وقبوله بلا شك ولا ريبة.

وليس في أصول الإسلام ما يرفضه العقل أو يتعذر عليه قبوله لمخالفته لبديهياته الثابتة أو أحكامه الصحيحة، وهذه ميزة الدين الإسلامي عن كل دين.

العلاقة بين الإيمان والإسلام

الإسلام هو «إظهار» الإيمان والتعبير عنه «عملياً» بالنطق بالشهادة عليه والقيام بالعبادات التي تنشأ عنه، وهو الأساس الذي يُبنى عليه تقسيم الناس إلى متّبع ومخالف، وما يتفرع عن هذا التقسيم من أحكام مدنية وحقوقية، لأن الناس لهم «الظواهر» ولا يستطيعون أن يشقّوا عن قلوب الناس ويعرفوا سرائرهم.

وهذا معنى ما جاء في الحديث القائل: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[1]. فإن

(١) قال السيوطي: حديث متواتر، وهو (كما قال المناوي) أصل من أصول الإسلام.

نطق بالشهادة وأدى الفرائض ولكنه غير «مصدّق» بها ولا «معتقد» وجوبها، ولا يفهم إلا جسمها دون روحها وشكلَها دون معناها، فهو غير مؤمن، وهو ما كان عليه بعض الأعراب الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾.

وإن «أظهر» الطاعة عن تصديق وجزم وأدّى الصلاة معتقداً وجوبها مراقباً الله فيها، فهو المؤمن المسلم.

نقل في اللسان عن ثعلب اللغوي قال: المؤمن بالقلب والمسلم باللسان (أي وبالجوارح). وقال الزجّاج: صفة المؤمن أن يكون راجياً ثوابه خاشياً عقابه. وقال الزمخشري في الكشاف في المسلم الكامل: "هو مَن اعتقد الحق وأعرب عنه بلسانه وصدّقه بعمله، فمن أخلّ بالاعتقاد -وإن شهد وعمل- فهو منافق، ومن أخلّ بالشهادة فهو كافر، ومن أخلّ بالعمل (أي بالعبادة من صلاة وصيام وحج) فهو فاسق".

الإيمان ضروري ومفيد

بدا لك مما تقدم ذكره أن الإيمان ضروري لا يستطيع إنسان أن يعيش بدونه، فإن لم يؤمن بأصول الدين آمن ببعض المبادئ العقلية والمبادئ الاجتماعية والأخلاقية، وإن لم يؤمن بشيء منها أحبّ وعرف الحب، والحب والإيمان من طبيعة واحدة في الأصل؛ فليس في الدنيا -إذن- إنسان إلا وهو «مؤمن»، لأن «الإيمان» شيء مستقر في طبيعة البشر، ومن آمن بهذه الحقائق الصغيرة أو الأباطيل التي يتوهمها حقائق (كما يتوهم المحب العاشق) لم يستطع الكفر بالحقيقة الكبرى، وهي وجود الله.

وسنرى بعد أن وجود الله بديهية عقلية، وأن التأليه والتطلعَ إلى المجهول والبحثَ عن الخالد الباقي من الفطرة الإنسانية.

ثم إن مصلحة الإنسان أن يكون مؤمناً بالله، لأن الحياة مملوءة بالآلام فيّاضة بالمكاره، فإذا لم يكن للمرء وَزَر[1] من إيمانه يلجأ إليه كلما حاقت به الشدائد أو انتابته الأمراض، كانت حياته جحيماً محرقاً لا يحتمل، وربما أدت به إلى الانتحار كما يفعل الجاهلون.

فلا سعادة إذن إلا بالإيمان، ولا أنس بالحياة إلا معه. ومن مصلحة المجتمع أن يكون الناس مؤمنين لأن القوانين والقوى التي تؤيدها والعقوبات التي تحميها، كل ذلك لا يؤدّي إلى إنشاء مجتمع خَيِّر صالح إذا نقصه الإيمان. وكيف -لَعَمري- يصلح الرجل ويستقيم وهو لا يتجنب السرقة إلا خوفاً من الشرطي وهرباً من العقاب، فإذا أمن الشرطي ونجا من العقاب سرق وقتل وفعل الأفاعيل. فإذا كان «مؤمناً» بالله يخشى عقوبته، «مؤمناً» بمبادئ الأخلاق التي أمر بها الله ووعد بالثواب عليها، استقام دائماً لأن الله مطّلع عليه مراقب له دائماً.

وشيء آخر، هو أن الدافع إلى كل ما يفعله الإنسان المنفعةُ أو اللذة؛ فالمؤمن يعمل الصالحات ولو لم يره أحد، ولو لم يعلم به أو يشكره، لاعتقاده أن الله يثيبه ويعطيه. فلماذا يعمل الصالحاتِ غيرُ المؤمن إذا لم يكن مَن يراه أو يشكره أو يذيع فضله أو يجزيه بعمله خيراً؟

(١) الوزر (بفتح الواو والزاي) الملجأ والمعقل والمعتصَم (مجاهد).

الإيمان الكامل

والمؤمن الكامل الإيمان هو الذي يتصور في كل لحظة أنه بِسَمْع الله وبصره، وأن الله مطّلع عليه ناظر إليه، فإذا لم يمنعه من المعصية خوفُ الله منعه الحياء منه.

ولذلك جاء في الحديث: «إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلّة، فإذا أقلع (أي تاب توبة صحيحة) رجع إليه». فلا يستطيع الزاني أن يزني وهو مؤمن إيماناً حقاً ومتصور أن الله ناظر إليه، بل هو لا يستطيع أن يزني إذا كان أبوه وأستاذه يراه ويشرف عليه. فالإيمان إذا كان على هذه الصورة يمنع صاحبه من كل فاحشة ويصرفه عن كل ذنب.

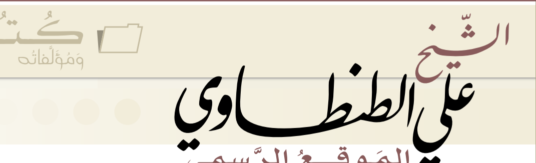
الصالحات بلا إيمان

فإذا عمل الرجل من الصالحات وهو غير مؤمن لم يكن له ثواب في الآخرة. وقد يبدو ذلك غريباً لأول وهلة ولكنه نهاية العدل من الله، وهل من العدل أكبر من أن تعطي المحسن المصلح كل ما يطلب؟ فإذا كان يقصد ثواب الآخرة وكان مؤمناً بها أعطاه الله ما يطلب، وإن لم يطلب إلا الشهرة في الناس وخلود الذكر فيهم أُعطي الشهرة والخلود ولم يكن له في الآخرة شيء ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

* * *

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحة من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



الوعاظ والخطباء

نشرت سنة ١٩٤١

تواردت الخواطر والأقلام -هذه الأيام- على نقد أساليب الوعاظ في الدعوة إلى الله، فساء ذلك بعض الواعظين عندنا. ولو فكروا في مغزاه وما يلزم منه لسرّهم، ولعلموا أنه لولا الاعتراف بخطر الوعظ وأهله ومنزلتهم من الأمة وعلو قدرهم عند العامة، ما كتب في «الرسالة» عنهم ولا اشتغل الكتّاب بنقدهم.

ثم إن أَولى ما ينبغي أن يتحلى به الواعظ أن يبدأ بنفسه فيعظها، وأن يخلص قوله لله وعمله، وأن يفرغ من شهوات نفسه، فلا تملكه شهوة الشهرة والجاه ولا شهوة الغنى ولا شهوة النساء، وأن يكون في فعله أوعَظَ منه في قوله. فلا يأمر الناس بالزهد ثم يخالفهم إلى ما زهّدهم فيه فيزاحم المتكالبين عليه، ولا يتظاهر بالدين ابتغاء الدنيا وتوصلاً إليها، فيجمع من حوله العاملين على الكسب الحلال والجادّين في جمع المال من حقه ليأخذ من أموالهم ما يتعالى به عليهم، وليذوق لذائذ العيش من عطاياهم، وليسلبهم -فوق ذلك- حريتهم وعقولهم وكرامة أنفسهم عليهم، فيصرّفهم في مآربه ويسيّرهم حيثما شاء، ويذلّهم بين يديه ليستكبر عليهم ويجعل الدين وسيلة إلى ذلك، فيجعل طاعة نفسه من طاعة الله، بل ربما جعل نصيبها من هذا الشرك أكبر، والعياذ بالله من ذلك.

ولقد حدثني من أقطع بصدقه أنه سمع مرة واعظاً من هؤلاء «يقصّ» على تلاميذه قصة مريد سمع شيخه يقول: "يا الله"، ثم يمشي (زعم القاص) على وجه الماء الجاري. فسأله أن يتبعه، فقال له الشيخ: "قل يا شيخي فلان (يعني الشيخ نفسه)، ثم اتبعني فإنك تمشي مثلي". ففعل المريد ذلك، وتابعه أياماً، ثم خطر له (يقول الواعظ) أن يقول: "يا الله" مكان قوله: "يا شيخي"، فقالها فغرق في الماء ومات!

فهل يشك مسلم في أن هذا الوعظ مخالف للإسلام مباين له؟ وهل يغضب الواعظ العالم الصادق أن ينتقد الواعظ الجاهل المُمَخرق الكذّاب؟

أَوَليس من دأب الواعظ الصادق أن يتقبل النصيحة ويشكر عليها ويعمل بها، وأن يتخلص من شرور نفسه قبل أن يتصدر للوعظ والإرشاد، حتى يكون الإسلام هو الذي يتكلم على لسانه، وحتى يتوهم السامعون أن مَلَكاً هو الذي يعظهم أو جسداً إنسانياً ضم روح مَلَك من الملائكة، قد ارتفع عن شهوات الأرض ليتصل بكمالات السماء، وأنه لا يزهّدهم في دنياهم ليحوزها من دونهم؟ فإن أَنِسوا منه غير ذلك زهدوا فيه هو وفي وعظه.

كان في مسجد من مساجد دمشق خطيب جهير الصوت طلق اللسان، معتزل مستور، يعتقد الناس إخلاصه ودينه وتخطّيه أهواء نفسه ماشياً قدماً على صراطه المستقيم. صعد المنبر جمعة من

الجمع، فاستهلّ خطبته بآية من القرآن فيها وعيد للكافرين شديد، ومضى من بعدها يُبرق ويُرعد ويسوق الجُمَل آخذاً بعضها برقاب بعض وكلها من مادة «كفر يكفر...»، حتى إذا ظن أنه أقنع وأشبع وملأ نفوس السامعين سخطاً وغضباً، عمد إلى التصريح بعد التلويح، فإذا الذي انصبّت عليه هذه الحمم ونالته رجوم الشياطين "رجل تجرأ على دين الله، فتكلم في الداعين إليه والدالّين عليه ومن رضي عنهم الله وعقلاء خلقه: خطباء المساجد"!

فلما قُضيت الصلاة استقرى الناس الخبر، فإذا هو صاحب جريدة كتب مقالاً معتدلاً في الدعوة إلى إصلاح الخطب المنبرية، فبعث الخطيب بمقالة يردّ بها عليه فلم ينشرها وإنما أشار إليها، فكان جزاؤه أن تكون الخطبة في ذمه وتكفيره. فانصرف الناس من يومئذ عما كانوا يعتقدون في الخطيب ولم يعد يبلغ وعظه ذلك المبلغ من نفوسهم، وجعلوا يرون فيه خطيباً له «نفس»، وهيهات ينفع واعظ أو خطيب له «نفس».

فتعالوا أنبئوني: مَن الذي جعل المنبر مُلكاً لهذا الخطيب يتصرف فيه تصرفه بثوبه ودابته، ويجعله سلّماً له إلى شهرته وشهوته... وهذا المنبر إرث رسول الله، والخطيب خليفته في الدعوة إلى دين الله وإطراح النفس والهوى؟

ألم يروِ الرواة أن علياً أمير المؤمنين رضي الله عنه كان يتبع مشركاً (في المعركة) ليقتله، فلما أيس المشرك من الحياة تلفّتَ إلى علي فبصق على وجهه، فكفّ عنه علي، فقيل له، فقال رضي الله عنه: كنت أنوي قتله لله وحده، فلما بصق عليّ خفت أن يكون قد داخلني غيظ منه، فخشيت أن يكون قتله انتصاراً لنفسي، فلذلك كففت عنه.

أليس في هذا الخبر (وإن لم يأتِ عن الثقات) عبرة وأسوة للواعظين؟ وكيف أستطيع الاتّعاظ بالخطيب الذي جاء في خطبته مرة بحديث موضوع، فلما انتهت الصلاة وتفرق الناس أقبل عليه شاب من المشتغلين بالحديث[1] والمنقطعين إليه، فذكّره بأن ذلك الحديث موضوع لا أصل له، فما كان منه إلا أن رجع من الجمعة المقبلة فجعل خطبته في هذا الشاب وأصحابه «الوهابيين أعداء الرسول...» وأثار عليهم العامة حتى نالهم شر وأذى. فأين مكان الإخلاص من نفس هذا الخطيب؟

إن أول شرط للواعظ أو الخطيب أن يكون مخلصاً في وعظه لله.

والشرط الثاني أن يكون عالماً بالعربية، عارفاً بالتفسير والحديث روايته ودرايته، والفقه أصوله وفروعه، وإلا كان وَبالاً على الدين وأهله. ولقد أدركت -والله- من العامة من كان يكوّر العمامة ويطيل اللحية، ثم يقعد للتدريس في مسجد دمشق الجامع، فيقول ما شاء له الجهل والهوى ويجعله ديناً، والمفتي والقاضي والعلماء يمرّون عليه أو يعلمون به فلا ينكرون عليه، ولو اعتدى هذا الرجل على جبة أحدهم لأقام عليه الدنيا. أفكان الدين أهون على أحدهم من جبته؟!

(١) صار هذا الشاب اليوم ـ بدأبه على الدرس واشتغاله به ـ مرجعاً من المراجِع في رواية الحديث في بلاد الشام.

وأدركت عامياً آخر ذكياً خدع طائفة من أذكياء البلد وعلمائه، فاعتقدوا به وتأدبوا بين يديه وأخذوا عنه تفسير الآثار.

وأعجب من هذا رجل يدّعي النبوة يقيم الآن[1] في غوطة دمشق، وقد آمن به أكثر فلاحي قرية حرستا. ولقد خبّرني من شهد صلاته بأصحابه أنهم يقهقهون ويكركرون كلما جاءت آية نعيم ويتصايحون مستبشرين ويهنئ بعضهم بعضاً، وأنهم يكون منتحبين مولولين كلما سمعوا في الصلاة آية عذاب. وربما «أخذ بعضَهم الحالُ» فقفز في الصلاة أو صاح أو التبط بالأرض. ولهذا المتنبي (أو المتمهدي) ضريبة دائمة على أصحابه يؤدّونها إليه باسم الزكاة، فيشتري بها العقارات والحقول[2]!

والشرط الثالث حسن الأسلوب في الوعظ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم، وابتغاء طريق اللين واللطف. وللواعظين أسوة في ذلك بسيدنا رسول الله ﷺ، ولهم من سيرته قدوة صالحة، فأين هم عنها؟ وما لأكثر مَن عرفنا منهم لا يعرفون إلا أسلوب العنف الذي يبعد الناس عن الدين ويغلظ قلوبهم عليه وينفّرهم منه؟ فلا يرون في مجالسهم شاباً من تلاميذ المدارس -مثلاً- إلا جعلوا الموضوع في تفسيق من يحلق لحيته ومن يتشبه بالنساء، وأمثال ذلك، حتى تأكل هذا الشابَّ الأنظارُ فيغرق في عرَقه خجلاً، ثم لا يعود إلى المسجد أبداً. ولو أنهم حاسنوه وجاملوه لكان من المتقين.

(١) أي حين كتابة هذا المقال.

(٢) ثم انكشف أمره عن فضائح له مع عشرات النساء فأودع الحبس.

حضر درسَ الشيخ بدر الدين رحمه الله تعالى[1] شابٌّ حليق حاسر من شبان (الموضة)، وكان الشيخ -على عادته- مُطرقاً، فقال له أحد الثقلاء من الحاضرين: "سيدي، ما حكم الشبان الذين يتشبهون بالنساء ويتزيون بزي الكفار؟". فأدرك الشيخ بذكائه النادر أن في المجلس غريباً، فرفع رأسه فلمح الشاب، فدعاه فأجلسه بجواره وأكرمه، وقال للسائل مؤنّباً بأسلوبه الناعم: "يابا... هذا يُتبارك به". يعني أن شاباً مثله يطلب العلم ويؤمّ مجالسه ويستهدي الطريق إلى الله، أهلٌ لأن يتبرك به أمثال ذلك الثقيل الذين «قطعوا الطريق» إلى الله بغلظتهم وغباوة قلوبهم.

والشرط الرابع أن يعلم الواعظون أنه ليس في الإسلام طبقة هي أَولى بالله من طبقة، وليس بين العبد وربه وسيط؛ فإذا علموا ذلك اقتصدوا في تكفير الناس لأتفه الأسباب وراجعوا الآثار الواردة ليعلموا حقيقة الكفر والإيمان، فلا يرمون بالكفر كل من خالفهم في رأي أو ناقشهم مسألة، فقد يكون لها وجوه، ولا يُصدرون مثل الكتاب الذي أصدره منذ بضع سنين عالم معروف في دمشق، كان أصدر قبله بأكثر من عشر سنين كتاباً آخر، كفَّرَ فيهما كل من يقول بحركة الأرض وكفّر الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا، وردّ أشنع الرد على ابن حزم والشيخ محمد بخيت المطيعي، رحم الله الجميع. وأخذ بقوله بعض خطباء المساجد فكفّروا على المنابر من يقول إن الأرض دائرة حول الشمس! ولا نسمع أحداً يجعل قيامك للضيف يدخل عليك كالسجود له سواء

(١) بدر الدين الحسني، وانظر الحديث عنه في كتاب «رجال من التاريخ» (مجاهد).

حكمهما، لأن كلاً منهما -على دعواه- من أركان الصلاة استويا في ذلك. ونسي أن القعود أيضاً من أركان الصلاة، أفيحرم قعودك بين يدي صديقك أو أستاذك؟!

* * *

والخطابة يوم الجمعة من أكبر أبواب الوعظ، فإذا صلحت صلح بصلاحها فساد الأمة وإن فسدت أفسدت. فمتى يتم تنظيم الخطابة بحيث يُختار لها الكفؤ العالم ويعدل عن طريق الوراثة فيها؟ فلا تنتقل بعد الخطيب إلى ابنه الصغير الذي لا يُدرى ما يكون منشؤه ومرباه ويقام له وكيل رحمي؛ بل يعلن عن الخطابة الخالية ويُجعَل بين الطالبين سباق وامتحان، ثم يُنتقَى أقدرهم عليها وأصلحهم لها. ولو كانت وراثة لورّثها أبو بكر ابنه ولدفعها عمر إلى ولده، فمن أين جئتم بهذه القاعدة الواهية؟

فإذا تم الاختيار على ما ترتضي المصلحة الإسلامية أخذ الخطيب بنوع رقابة أو إشراف، يمسكه أن يحيد فيختار من الموضوعات ما يؤذي المسلمين أو يكون فيه منفعة للخطيب شخصية، ويجعله ينتقي أقرب الموضوعات لأحداث الأسبوع، فيبين فيها حكم الله ويأمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر، بشرط أن يقوم بهذه الرقابة جماعة العلماء أنفسهم وألاّ تمنع إلا ما يخالف الإسلام ومصلحة المسلمين، وألاّ تمس حرية الخطيب فيما عدا ذلك. وإذا تم الحصول على هذه الثمرات من غير رقابة أصلاً فذلك هو الأَولى، وهو ما عليه المسلمون من قديم الزمان.

* * *

هذا وإن الموضوع خطير ومجالَ القول فيه ذو سعة. والواعظون العالِمون الصادقون أحق الناس بالكتابة فيه، فإن صاحب الدار أدرى بما فيها، وأحسن شيء أن يُعطى القوس باريها، وإننا نسأل الله أن يجعلنا من أهل الإخلاص.

* * *





















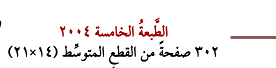




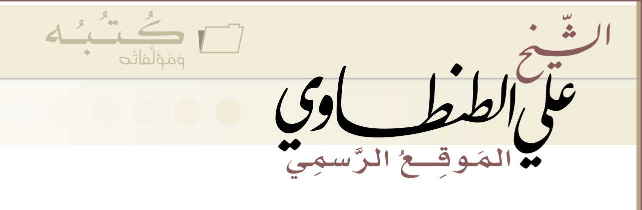




الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)







كتاب «الدين الإسلامي»

نشرت سنة ١٩٣٩

أما والله لولا اعتقادي بأن شباب المسلمين هم أحوج اليوم إلى هذا الكتاب منهم إلى الخبز الذي يأكلونه والهواء الذي ينشقونه ما عدت إليه بعد إذ تكلمت فيه، ولا ألححت عليه هذا الإلحاح بعد أن وجدت من علمائنا ذلك الإعراض.

وإني لأومن بما أقول، لا أبالغ ولا أغلو. وإن بالهواء والخبز لحياة الشاب في هذه الدنيا، ولكن بهذا الكتاب حياته في الأخرى. وما الدنيا في الآخرة إلا هباء، ولا يُؤْثِر الفانية على الباقية إلا جاهل أو غافل.

ولو أن علماءنا داخلوا الشباب وخالطوهم وأخذوا منهم وأعطوهم، لوجدوا الكثرة منهم تجهل المعلوم من مبادئ الإسلام وتنكر المعروف من أحكامه، ولوجدوا فيهم من لا يعرف إذا أراد الصلاة كيف يصلي، وفيهم من لا يفرق بين كلام الله والثابت من حديث رسوله وشروح الأئمة المعتبَرين وبين كلام المشعبذين والدجالين، ويضع ذلك كله في سطر واحد، فيقرؤه جملة أو يطمسه جملة، ثم لا يعمل بشيء منه ولا يراه لازماً له في حياته ولا مرافقه في غدواته وروحاته، ولا يدخله في عداد الأمور الجدية التي يوليها عنايته ويجعل فيها همه.

وإذا تكلم أحدهم في الدين، صلتِه بالحياة أو مساسِه بالسياسة، أعاد ما حفظ من أقوال الأوربيين والنافخين في مزاميرهم من الشرقيين.

ولقد غدا من المفهوم المشهور الذي لا يحتاج إلى إيضاح، أن هؤلاء الشباب لا يمكن أن يقرؤوا كتب الفقه والتفسير والحديث ولو طبعتها لهم على ورق أبيض فأخرجتها عما ينبزونها به من أنها «كتب صفراء»، ولا يمكن أن يدخلوا المساجد فيستمعوا فيها درس العلم أو يحضروا مجالس الوعظ لأنهم نُفِّروا منها وأُبعدوا عنها، ولا يمكن أن يتعلموا علوم الدين في مدارسهم «النظامية» الرسمية لأن القائمين عليها (في مصر والعراق والشام) لم يقتنعوا إلى اليوم بأن للدين علوماً محترَمة تستحق أن تضيع في درسها سبع ساعات في الأسبوع، ولم يروا في علوم الدين ما هو أهل ليعنى به كعنايتهم بالرسم والغناء!

ونسوا، أو هم لم يعلموا، أن من الأوربيين من يهتم بهذه العلوم ويرفع من قدرها ويعلي مكانها، وأن رجلاً جرمانياً اسمه (بِرتْزِل) قدم علينا الشام منذ سنوات فعرّفنا بنفسه وأرانا بطاقته، وإذا هو قد كتب عليها: «فلان: متخصص بقراءة القرآن»، يفخر بذلك ويعتز به، وسأل عن الذي طبع كتاب «النشر في القراءات العشر» فلما لقيه أكبره وعظّمه، وعلمنا -بعد- أنه ملم بعلم القراءات عارف برواياتها، قارئ للقرآن، ناشر لكتب في هذا

العلم عدة، ومن شبابنا من لا يعرف ما الإدغام وما الإخفاء وما المخارج وما الأداء، ويرى اشتغاله بذلك ذلّة له لأنه لا يشتغل به (على ما أفهموه...) إلا رجعي غير متمدن وشيخ جامد. وأمثال (برتزل) أكثر من أن يحيط بهم حصر.

* * *

تتابعت الحملات على الإسلام، تأتيه من كل صوب وتهاجمه من كل ناحية، من ناحية الأخلاق بنشر الفسوق والخمور، وتهوين أمر العرض، ونشر أدب الشهوة وصور العراة، ومن ناحية العبادات بصرف الناس عنها والتزهيد فيها، ومن ناحية العقائد بإدخال الشكوك عليها ووضع الشُّبَه من حولها، ومن ناحية العلم بإبعاد الناشئة عن علوم الإسلام بصرفهم عن كتبه وتحقير علمائه في أنظارهم، فماذا فعل علماؤنا حيال ذلك كله؟

لا أشك في جلال العمل الذي قام به الشباب في مصر والشام ولا أبخسهم قيمتهم ولا أهمل ذكر جهادهم، وأعلم أن لهم بما عملوا لذكراً في الناس ومجداً، وثواباً عند الله وأجراً.

ولكن كلامي هنا عن كبار العلماء. ماذا عملوا في رد هذه الحملات؟ أوَأقل من أن يؤلفوا للشاب المسلم كتاباً، يعرف به دينه إذا ألهمه الله الرجوع إلى الدين وخلّصه من كيد الشياطين؟

* * *

لقد فهمت من الرسائل الكثيرة التي جاءتني تبحث في فكرة تأليف الكتاب أن الذي يمنع العلماء من تأليف هذا الكتاب أن عندهم علوماً متميزة وفنوناً متباينة، فهم لا يدرون: أيجعلون الكتاب فقهاً أو حديثاً أو أصول فقه أو مصطلح حديث؟

وهذه إن تكن هي «العلة» فإن عندي «دواءها» الذي يشفيها بإذن الله؛ يقسَّم الكتاب إلى ثلاثة أبواب كبار: باب العلم، وباب العمل، وباب الاعتقاد.

ففي «**باب الاعتقاد**» يبيَّن للشاب كل ما يجب عليه الإيمان به بأسلوب «عصري» بيّن بعيد عما أُحدث من الخلاف، يُعرض فيه عرضاً لأهم الشُّبَه التي تتردد كثيراً فيُجاب عنها جواباً حاسماً باتاً، ويكون مقصد هذا الباب تكليف الشاب بالإيمان بما لا يكفي أقل منه للنجاة في الآخرة؛ وهو الذي جاء في الكتاب والحديث المتواتر الذي يفيد العلم، أما ما لم يثبت بالتواتر (كنزول المسيح وظهور الدجال) ولا يكفر منكره فلا يُبحَث فيه في هذا الكتاب.

وفي «**باب العلم**» يلخَّص له الأصول والمصطلح مع طرف من علوم القرآن، ويكون على فصول:

الفصل الأول: في الأدلة جملة؛ الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وبيان منزلة العقل من الشرع، وأن الحَسَن ما رآه الشرع حسناً، وأن العقل شارح لا شارع.

الفصل الثاني: في القرآن؛ نزوله وجمعه ومكّيه ومدنيّه ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه (مع بيان أن النسخ الذي هو إبطال الحكم السابق وإلغاؤه بالمرّة قليل جداً) وحكمة النسخ، وإعجاز القرآن من جهة عجز فصحاء العرب (الفعلي) عن محاكاته ومن جهة ألفاظه وأسلوبه وعلاقته بالشعر والنثر العربيين، ومن

جهة إخباره بالمغيبات وإشارته لبعض نواميس الكون التي لم يكن يعرفها على عهد محمد ﷺ بشر على ظهر الأرض، ومن جهة إحاطته بكل شيء، وأن فيه الإيمان والعلم والقانون والأخلاق مع أنه ليس كتاب تاريخ ولا علم، وما أراد القرآن التقصّي وإنما ضرب الأخبار أمثلة وأمر بالنظر في نواميس الكون لإدراك عظمة الخالق. والتفسير والمفسرين وطبقاتهم، والتلاوة والأحرف السبعة والقراءات السبع، وأنها ليست هي الأحرف السبعة وإنما هي على حرف واحد، وعربية القرآن وترجمته، وأن ترجمته غير ممكنة لمكان المتشابه منه ولأن الترجمة لا تمكن في بليغ الشعر فضلاً عن القرآن لأنها تفقده أحد عنصريه (وهو «موسيقية» الألفاظ)، ثم تشرح آيات من القرآن.

الفصل الثالث: في الحديث؛ المتن والسند، ورجال الحديث، وأقسامه المتواتر والمشهور والصحيح وما دون الصحيح، والمرفوع والموقوف والمرسل، وعن تدوينه وكتبه وما يوثق به منها وتصح الرواية عنه، مع شرح نماذج منه.

الفصل الرابع: في الاجتهاد؛ معناه وشروطه، وكبار المجتهدين وأسباب الاختلاف بينهم، وكون الاختلاف في تأويل آية أو فهم حديث لا في الأصول، وحكم التنقل بين المذاهب.

الفصل الخامس: في الإجماع وفي شرح القواعد الفقهية العامة؛ كالمواد التي في صدر مجلة الأحكام الشرعية التي يفهمها الناس على غير وجهها، فيحسبون أن قولهم: «لا يُنكَر تغيّر الأحكام بتغير الأزمان» معناه تبديل كل حكم، مع أن الحكم الثابت بالقرآن أو السنّة الصحيحة القطعية لا يمكن تبديله، وفي المجلة أيضاً أنه «لا مساغ للاجتهاد مع ورود النص».

الفصل السادس: في ميزة الإسلام ونظره إلى السياسة والقوانين والإدارة والأخلاق. ومقصد هذا الباب أن يعلم الشاب قارئ الكتاب كل ما ينبغي للمسلم أن يكون عالماً به باختصار ووضوح وبعد عن المصطلحات العلمية، على الأسلوب الذي يدعونه اليوم تبسيط العلم أو تعميمه.

الباب الثالث «في الأعمال»، ويشتمل على فصول:

الفصل الأول: حقوق الله على العبد؛ ويكون تلخيصاً لباب العبادات من الفقه، بشرط أن تذكَر كيفية العبادة وفائدتها من غير تفصيل لسننها وواجباتها وفرائضها ومكروهاتها ومبطِلاتها، وأن تُقرَن بما ورد في الترغيب فيها والترهيب من تركها.

الفصل الثاني: حقوق النفس؛ كنحو تحريم الانتحار والإقدام على التهلكة وإضعاف الجسم، وفضيلة السموّ بالنفس عن الأخلاق المنحطة والأدواء الباطنة.

الفصل الثالث: حقوق الأسرة؛ كنحو حق الوالدين والأولاد والزوجة والأخ وفقراء الأسرة.

الفصل الرابع: حقوق المسلمين؛ من نحو عيادة المريض منهم ومساعدة الضعيف ونصيحتهم وحرمة غيبتهم والنميمة بينهم.

الفصل الخامس: حقوق غير المسلمين؛ من نحو إحسان معاملة الذمّي وحفظ ماله ونفسه وضمان حريته التي هي له ما دام

على الوفاء بعهد الذمة، والوفاء لذي العهد من المحاربين، واحترام المبادئ الإسلامية الإنسانية في الحرب.

الفصل السادس: ما يسمى حقوق الوطن؛ من نحو احترام المصلحة العامة والاستعداد للجهاد في سبيل الله والذود عن الحمى، والتهيؤ للتضحية، وتعلم الإيثار، ونحو ذلك.

الفصل السابع: درجة الورع والصلاح، وبيان الصورة الكاملة للمسلم وأنه يعمل للدنيا ولا يجعلها في قلبه، ويعمل للآخرة ويستعد لها دواماً، وتُضرَب الأمثلة من أخبار الصالحين من طبقة الفضيل والسفيانَين[1] وابن المبارك وابن حنبل ممن كان ورعاً وعالماً وعاملاً للدنيا في وقت واحد.

* * *

فمن اطّلع من علمائنا على هذا المقال وكان قادراً على كتابة فصل من هذه الفصول فلم يكتبه ولم يمنعه منه مانع، فليعلم أنه يعين بسكوته أعداء الإسلام على ما هم فيه، وأن لنا موقفاً معه بين يدي أحكم الحاكمين فنقول: يا ربنا، سله لِمَ قَدِرَ على إرشادنا

(١) لعلهما سفيان الثوري وسفيان بن عيينة. ولكل هؤلاء الذين ذُكروا هنا ترجمات وافية في «صفة الصفوة» لابن الجوزي، وانظر الحديث عن ابن المبارك في «أعلام التاريخ» لعلي الطنطاوي، وفي «رجال من التاريخ» أحاديث ممتعة عن أمثالهم من العبّاد الزهّاد والعلماء العاملين (انظر: «العالم العامل» و«من ورثة الأنبياء» و«الإمام الأعظم» و«جمع الدين والدنيا» و«ناصر السنّة» و«شيخ من دمشق») (مجاهد).

فلم يرشدنا وهو يروي قول نبيك محمد ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعَم»؟

فليهيئ لهذا السؤال جوابه... وهيهات!

* * *

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحة من القطع المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

بمناسبة ليلة القدر

نشرت سنة ١٩٥٦

لما كنا صغاراً كانوا يحدّثوننا عن ليلة القدر التي تسجد فيها الأشجار والبيوت والجبال، ويملأ الدنيا فيها نورٌ سماوي لا يشبه نور المصباح ولا ضياء الشمس، وتفتح فيها أبواب السماء للدعاء، فلا يدعو داع ولا يسأل الله شيئاً إلا استُجيبت دعوته وأُعطي سُؤله في الحال، وأنها لا تدوم إلا لحظة ولكن هذه اللحظة تكفل لرائيها سعادة الأبد، وأن الجماعة من الناس تكون في المجلس الواحد فيرى ليلةَ القدر من أراد الله له الخير منها ولا يرى الباقون شيئاً.

وكانوا يقصّون علينا القصص الطوال عمّن رآها وعمّا دعا به فيها، وأنها قد تكون في ليلة سبع وعشرين من رمضان، فكنا نُكثر تلك الليلة من الصلاة، وننام على طهر، ونأمل أن نقوم من الليل فننظر فإذا الدنيا كلها سهل واحد منبسط لا شجر ولا جبال ولا بنيان وقد لبست حلة من هذا النور السماوي، ثم تنقضي فتقف الشجر ويقوم البناء وتنهض الجبال ويعود كل شيء إلى ما كان عليه من قبل... وبلغ من وضوح هذه الصورة ورسوخها في خيالي أنها لا تزال ماثلة في نفسي إلى اليوم، كأني رأيتها فعلاً.

ولكن الأيام قد مرت وتعاقبت السنون وأنا لم أرها، وعلمت -بعد- أن ليلة القدر هي ليلة نزول القرآن وأنها خير من ألف شهر، لأن الأيام لا تقاس بطولها ولكن بآثارها؛ فرب ألف شهر تمر خالية من كل خير، ورب ليلة تأتي فيها الخيرات كلها وتفيض فيها النعم على الوجود، وتبقى على وجه الدهر آثارها وتخلد مآثرها، ولم تعرف الدنيا نعمة أجَلّ ولا خيراً أعظم من نزول القرآن... وأن هذه الليلة المباركة تدور في الليالي[1]، ورويت الأحاديث الواردة فيها، ولكن هذه الصورة التي عرفتها في طفولتي لم يذهب من نفسي رواؤها ولبثت أتمنى أن أبصرها يوماً.

فلما طال العهد ولم أجدها، وانغمست في خضمّ الحياة، وأصبت (والحمد لله) كثيراً من النعيم وقليلاً من البؤس، نظرت فإذا أنا -على ما أتقلب فيه من النعيم- أحس بوحشة في نفسي وفراغ، وتطلّع إلى شيء لا أجده ولا أعرف ما هو، وأرى لَذاذات الحياة كلها ناقصة محدودة، لكل لذة منها نهاية إذا بلغتها انقطعت عني وبقي التشوّف إلى مثلها في نفسي؛ آكل أطيب الطعام فأشبع، فلا يبقى للذّة الأكل وجود ويصير مجرد التفكير في طيباته أو النظر إليها ألماً، وأمارس اللذة الأخرى فأشبع منها، وتمر عليّ أُويقات أحس فيها بالشبع الجنسي فلا تغريني أجمل صور الحسن بالتفكير في تلك اللذة، وأشعر كأن النفس تطلب شيئاً وراء هذا كله، وراء هذا العالم المادي، شيئاً روحياً... ولكن عالم الروح مغيَّب عنا لا نعرفه ولا ندري به، والله -لحكمة أرادها- لم يرد لنا أن نعرفه،

---

(١) سألت الصديق الشيخ ناصر الدين الألباني (وهو الثقة في رواية الحديث) قال بأن أصح ما جاء فيها أنها في ليلة سبع وعشرين من رمضان أو في العشر الأواخر منه بلا تعيين.

وتركنا نجهل حقيقة أرواحنا التي بها نكون أحياء وبها نفترق عن الجثث، ولم يخبرنا عنها إلا بأنها ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾. فكيف أصل إلى تلك الحياة؟

إن النفس لا تزال تحنّ إليها، إن فيها فراغاً لا تسده اللذاذات المادية، إنها تسد فراغ النفس لحظة واحدة، لحظة واحدة تنسى فيها النفس مطالبها الروحية، فإذا انقضت عادت إليها. وقد وصف هذا الشعورَ ابنُ الرومي في أبيات ثلاثة ليس في شعر الغزل كله مثلها ولم يصل شاعر إلى أعمق من معناها:

أعانقُها والنفس بعدُ مَشوقَةٌ ... إليها، وهل بعد العِناق تداني؟
وألثُمُ فاها كي تزولَ صَبابتي ... فيشتَدُّ ما ألقى من الهَيَمانِ
كأنّ فؤادي ليس يَشفي غليلَه ... سوى أن يرى الرّوحين تمتزجانِ

يحس بالفراغ النفسي وهو مع حبيبته في الحال التي هي أقصى ما يتمناه عشاق الأجساد، ويطلب شيئاً أبعد وأعمق هو امتزاج الأرواح. وقد لمّح إلى مثل هذا المعنى الأستاذ الأثري في قصيدة له وصف فيها الحسن بأنه الذي تشتهي أن تأكله عضاً (وقد نسيت البيت)، وما الرغبة في الأكل إلا تحقيق لأمنية ابن الرومي، كأن الإنسان إذ يئس من الاندماج الروحي قنع بالاندماج المادي.

وقد قرأت في كثير من القصص أخبار جماعة أوتوا المال الوفير، وكان تحت أيديهم من النساء الكثير، وكانوا يستطيعون أن ينالوا كل لذة مادية، ومع ذلك أقدموا على الانتحار هرباً من الفراغ الفظيع الذي كانوا يحسونه، وفهمت -من هنا- هذه الآية العجيبة (والقرآن لا تنقضي عجائبه): ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾. وأي عقوبة أكبر من أن ينسى الإنسان نفسه؟

ولبثت أفتّش عن لذائذ العالم الروحي، فكنت أجد لمحات منه أحس معها كأني كنت سجيناً في مطبق[1] راكد الهواء فاسد الرائحة فهبت عليّ نسمة خاطفة منعشة، أو كأني وراء ستار مسدل فحركه الهواء لحظة فلمحت من خلاله بهاء المنظر الفاتن الذي يحجبه عني، أو كأني في ظلمة فبرق البرق فأبصرت في لمعانه الدنيا التي يخفيها عني الظلام.

كنت أجد هذه اللمحات عندما أسمع الأغنية الحالمة تتقلب في حضن الليل الساكن، أو أقرأ القصة العبقرية التي تطرق أبواب المجهول، حتى إذا انتهت الأغنية أو ختمت القصة أحسست كأني كنت في حلم واستيقظت منه، أو كأني سقطت من عالم السماء الأرحب الأنور إلى حفرة في الأرض ضيقة مظلمة، فعلمت أن هذا العالم المادي ليس كل شيء، بل إن وراءه عالماً أجلّ وأجمل. وإني في هذه اللحظات أستروح رائحته أو أطيف بأفقه. ثم دنوت أكثر من هذا العالم ورأيت لحظات لذة لا تقاس بها اللذائذ كلها، هي اللحظات التي أشعر فيها بالاتصال بالله وأجد فيها شيئاً من حلاوة الإيمان.

من ذلك أني لمّا خطبت تلك الخطبة المعروفة في إذاعة دمشق أيام الحكم العسكري، وأنكرت فيها الحفلة التي أقامتها في دمشق مدرسة أهلية للبنات جعلت فيها من بنات الأسر المسلمة

(١) المطبق: السجن.

في دمشق راقصات يرقصن أمام الرجال الأجانب[1]، تحامل عليّ الرؤساء ممّن حضر تلك الحفلة أو كانت بنته ممّن رقص فيها، وآذوني في منصبي ورزقي، وأثاروا عليّ أصحاب الجرائد. وكبُرَ عليّ الأمر، وآلم نفسي أن يتحكم فيّ رجالٌ مثلي ويُنقصوا رزقي، وقعدت مفكراً، وإذا بابنتي تفتح الرادّ، وإذا القارئ (أقسم بالله) يقرأ قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وإذا أنا أحس بشيء لا أقدر ولا يقدر أدباء الأرض على وصفه، بشيء من الاطمئنان والرضا واللذة العجيبة؛ كأن ما كنت فيه كان ألماً مبرحاً فسكن فجأة وأعقبه خدر لذيذ، وكأن الغضب الذي كان يشتعل في نفسي جمرةٌ صَبَبتَ عليها كأسَ ماء، وكأني ما سمعت هذه الآية قط وكأنما نزل بها الوحي الساعة. وقلت: يا رب، إني كنت آلَمُ أن يتحكم فيّ بشر مثلي، أما وقد كان منك أنت وكنت أنت الذي قسمته لي فقد رضيت.

وكنت مرة أمشي وراء مدرسة التجهيز في الليل وأنا أبعد ما أكون عن التفكير في نفسي أو في الله، فإذا أنا أقرأ لوحة في مطعم المدرسة تبدو من النافذة فيها: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وإذا أنا -من حيث لا أحس- أعرض في ذهني نِعَم الله عليّ وأتصورها، فيمتلئ قلبي مسرة بها وحمداً لله عليها، وأحسست أن قد قربتني هذه اللحظة من الله أكثر مما تقربني عبادة عشر سنين.

وكنت مرة في مصر، وكنت شاباً قوياً بعيداً عن أهلي، والمغويات من كل جانب والتكشف في كل مكان، وغلبت عليّ غريزتي حتى لقد هممت أن أقارف الإثم، وكنت أسير في الطريق فتوجهت بقلبي إلى الله، قلت: يا رب، الطلب في نفسي وسبيل المعصية مفتحة أمامي، وليس لي من قوة إلا بك، يا الله! ووجدتني أردد بإخلاص وابتهال: يا الله، يا الله... وأحلف أن لقد أحسست بالمغويات تضمحلّ من حولي كأنها صورة في سينما تمّحي شيئاً بعد شيء، وأحسست بالشهوة تملص من نفسي كأنها تُسَلّ من أعصابي سلاًّ، وشعرت بالرضا والاطمئنان وبلذة نفسية دونها لذة الوصال الجسدي، أستغفر الله، بل لا سبيل إلى المفاضلة بينهما، فتلك نشوة عارمة تهز أطراف الأعصاب وهذه لذة مستمرة عميقة تصل إلى قرارة القلب.

وما أدّعي التقى والصلاح، ولا أحب أن أجمع على نفسي بين الغفلة عن الله وبين الكذب على الناس، وأنا من أهل المعصية وقسوة القلب، ورأس مالي كله هذه اللحظات.

هذه اللحظات علّمتني أن الحقيقة ليست الحياة المادية وأن اللذات العميقة هي لذة الروح؛ هذه التي يقول عنها الصالحون: "لو عرف الملوك ما عندنا لقاتلونا عليه بالسيف"، وأن ليلة القدر ليست التي تسجد فيها الشجر وتخضع الجبال ولكن التي يسجد فيها القلب وتخشع النفس. وأن المرء قد يرى ليلة القدر في كل زمان وكل مكان، في رمضان وغير رمضان، يراها وهو في غرفته بجنب الرادّ، وفي الطريق الخالي وراء التجهيز في دمشق، وفي الشارع المائج بالفتنة في وضح النهار في القاهرة...

(١) انظر تفصيل الواقعة في الحلقة ١٣٥ من «الذكريات»، في الجزء الخامس، ص ١٠١ (مجاهد).

إنها لحظات، ولكن هذه اللحظات هي التي نقلت أناساً من حال إلى حال.

لقد سمع سورة طه ولا يزال يسمعها كثيرون لا يحصيهم العد، ولكن لمّا أدركت لحظةُ العناية عمرَ جعلته آياتٌ من هذه السورة يتحول من ذلك الرجل الجاهل الكافر الغليظ الذي جاء ليقتل سيد الخلق ﷺ ويقترف أكبر الجرائم البشرية إلى عمر العبقري العظيم، الذي كان يدير وحده إحدى عشرة دولة من دول اليوم، وكان القاضي فيها والإمام ووزير المالية ووزير الداخلية والمحتسب، وكان قائدَ ثلاث جبهات، وكان يحمل -مع ذلك- الدقيقَ على ظهره ويطبخ للمرأة الفقيرة ويطعم أولادها، وكان يعيش على الخبز والزيت، وكان يبكي خشية أن يكون قصّرَ في أمر المسلمين.

ولقد سمع آية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ؟﴾ ولا يزال يسمعها كثيرون لا يحصيهم العد، ولكن لما أدركت لحظةُ العناية مالكَ بن دينار جعلته هذه الآية يتحول مما كان عليه إلى ما صار اليه.

ولقد قرأ سورة التكاثر ولا يزال يقرؤها كثيرون لا يحصيهم العد، ولكن لمّا أدركت لحظةُ العناية «ليوبولد» جعلته هذه السورة «محمد أسد» المسلم الذي أحسن للمكتبة الإسلامية بكتابه «الإسلام على مفترق الطرق».

بل إنها إذا جاءت لحظة العناية سمع المرء الموعظة في كل شيء ورآها في كل شيء، كما سمع ذاك الرجلُ بيّاعَ الصّعتر ينادي: «يا صعتر بري» فظنها «اسعَ ترَ برّي»، وكما رأى الآخر -بعدما خاب مرات في طلب العلم- النملة تصعد فتسقط فتعاود الصعود حتى وصلت بعد عشرين سقطة، فوعظته النملة وصيّرته من العلماء.

إن لحظة العناية هي -لمن تصيبه- «ليلة القدر»، وهي منحة من الله يمنحها مَن يشاء، ولكن على الصياد أن يبسط شبكته وعلى الماتح أن يدلي دلوه وعلى طالب الرزق أن يسعى، والذي يريد الماء يَرِد الينابيع والأنهار لا يقصد الصحارى والقِفار، والذي يبغي الزاد يؤمّ الأسواقَ لا يطلب شَعَفات الجبال، كذلك يطلب «لحظات التجلّي» من يريدها في مظانّها.

يطلبها بصحبة الصالحين وسماع أخبارهم وقراءة كتبهم والمشي على آثارهم. ويطلبها في المساجد الحافلة بالمصلين والذاكرين والمشتغلين بالعلم، وفي المقابر الماثلة عبرة للمعتبرين. ويطلبها بصلاة الليل في بطون الظلام والناس نيام، وبالمناجاة في الأسحار، حين تتحرك مواكب الملائكة ويتجلى الله على الخلق ينادي: ألا من سائل فأعطيه؟ ألا من مستغفر فأغفر له؟

إن موجات الأصوات موجودة في كل مكان، ولكنك لا تسمعها إلا بالجهاز اللاقط، بالرادّ. وليلة القدر موجودة في كل مكان، ولكنك لا تراها إلا بالقلب المخلص لله المتوجّه إليه.

تراها إذا رأيت نفسك أولاً، ثم رأيت الكون، ثم رأيت الله[1] فيهما. وإذن تكشف لك آفاق بعيدة لا يبلغها أبناء المادة،

---

(١) أي صنعه وخلقه الدالّ عليه، لا أن المخلوق هو عين الخالق كما يقول الاتحاديون الضالون.

ولا يحمل الفنّانَ إليها جناحُ الفن، ولا يوصل إليها إلا الإيمان. وتشعر باللذة الحقيقية التي لا تزال النفس تحسّ بالشوق إليها وتشكو الفراغ منها وهي في أوج النشوة الجنسية. هذه اللذة التي شكا فقدها ابن الرومي وهو في غمرة الوصال الجسدي، والتي انتحر الأغنياء لمّا عدموها وهم في ذروة الغنى والجاه والسلطان، وهي غاية كل إنسان.

ولا أقول اطلبوها من كل طريق؛ فإن من الطرق إليها «اليوغا» الهندية المجوسية وأختها في الصفة وفي الأصل «وحدة الوجود»، ولكن من طريق الشرع، طريق الكتاب والسنة، طريق السلف، طريق المراقبة وأن تحسّ دائماً أن الله معك، لا معية ذات (تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً) بل معية السمع والبصر. هو معك يسمعك ويراك وهو أقرب إليك من حبل الوريد، فإن أحسن إليك أحدٌ كافأته لأن الإحسان جرى على يديه ولكنك رأيت أن الله هو المحسن الحقيقي، وإن أساء إليك أحد رأيته واسطة وما كان فهو من الله، ولعله كان لخير يريده بك، فتكون راضياً في الحالين؛ فترى الآلامَ لذائذَ وتحس في غمرة القلق بردَ الأمان.

لمّا كنت في رحلة المشرق وامتدّت بي تسعة أشهر تباعاً كنت أفكر في بناتي: هل عراهن شيء؟ هل أصابتهن مصيبة؟ ثم أقول لنفسي: يا نفسُ ويحكِ، هل كنت تخافين لو كان معهن أخ يحنو عليهن أو جدٌّ يحفظهن؟ فكيف تخافين والحافظ هو الله؟ ولو كنت أنا معهن هل أملك لهن شيئاً إن قدّر الله الضُّرّ عليهن؟ فلا ألبث أن أشعر بالاطمئنان.

ودهمني مرة همٌّ مقيم مُقعِد، وجعلت أفكر في طريق الخلاص وأضرب الأخماس بالأسداس، ولا أزال -مع ذلك- مشفقاً ممّا يَأتي به الغد، ثم قلت: ما أجهلني إذ أحسب أني أنا المدبّر لأمري وأحمل همّ غدي على ظهري! ومَن كان يدبّر أمري لما كنت طفلاً رضيعاً ملقى على الأرض كالوسادة، لا أعي ولا أنطق ولا أستطيع أن أحمي نفسي من العقرب إن دبّت إليّ والنار إن شبّت إلى جنبي أو البعوضة إن طنّت حولي؟ ومَن رعاني قبل ذلك جنيناً، وبعد ذلك صبياً؟ أفيتخلى الله الآن عني؟

ورأيت كأن الهمّ ثِقَلٌ كان على كتفي وأُلقي عني، ونمتُ مطمئناً.

وباب الاطمئنان والطريق إلى بلوغ حلاوة الإيمان هو الدعاء. ادعُ الله دائماً واسأله ما جَلَّ ودَقَّ من حاجاتك، فإن الدعاء في ذاته عبادة، وليس المَدار فيه على اللفظ البليغ والعبارات الجامعة، وما يدعو به الخطباء على المنابر يريدون إعجاب الناس بحفظهم وبيانهم أكثرَ مما يريدون الإجابة، فإن هؤلاء كمن يتكلم كلاماً طويلاً في الهاتف (التلفون) وشريط الهاتف مقطوع! بل المدار على حضور القلب واضطرار الداعي وتحقق الإخلاص، ورب كلمة عامية خافتة مع الإخلاص والاضطرار أقرب إلى الإجابة من كل الأدعية المأثورة تُلقى من طرف اللسان.

فإن أنت أدمت صحبة الصالحين، ومراقبة الله، ولازمت الدعاء، وجدت ليلة القدر في كل يوم. ولو لم تفد من هذا السلوك

إلا راحة النفس ولذة الروح لكفى، فكيف وأنت واجد -مع ذلك- سعادة الأخرى ورضا الله؟

* * *

وبعد، فهذه خواطر بمناسبة ليلة القدر. لا أريد أن أفسّر ليلة القدر بأنها ما ذكرت، ولكن أردت أن أضيف إلى معانيها معنى جديداً. وأكرر القول مرة ثانية: إني لست من الأتقياء البرَرة الصالحين، وإن هذه الحوادث التى ذكرتها هي رأس مالي كله، ضربت بها المثال تأكيداً للمقال وأنا أحوج إلى الاتعاظ بما وعظت به، وأنا أسأل الله ألاّ يجعلني من الذين يأمرون بالبر وينسَون أنفسهم.

* * *

صفحة فارغة

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحة من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

كلمة في الاجتهاد والتقليد

نشرت سنة ١٩٥٢

من نحو ست سنوات ندبتني وزارة العدل في سورية إلى إعداد مشروع لقانون الأحوال الشخصية[1]، وكان العمل في محاكم الشام الشرعية (ولا يزال) بالراجح من مذهب أبي حنيفة، إلا ما نُصَّ على غيره في «قانون العائلة» الذي أصدره العثمانيون قبل الحرب الأولى وعدّلوا فيه طائفة من الأحكام تشبه -في الجملة- ما اشتملت عليه القوانين التي صدرت في مصر قبل سنة ١٩٣٠، وبقي العمل بهذا القانون إلى الآن[2]. فكان المرجع القانوني للقضاة في الأحكام الموضوعية «قانون العائلة»، فإن لم ينص فيه على حكم رجع إلى كتاب «الأحكام الشرعية» لقدري باشا رحمه الله، وإلى كتب الفتوى في المذهب، كحاشية ابن عابدين وتنقيح الحامدية وجامع الفصولين، وأمثالها من كتب المتأخرين.

(١) قصة هذا القانون مفصّلة في الحلقة ١٨٩ من ذكريات علي الطنطاوي وعنوانها «كيف وُضع مشروع قانون الأحوال الشخصية»، واقرأ معها الحلقة التي قبلها «في الفقه الإسلامي والأحوال الشخصية»، وكلها في الجزء السابع من الذكريات (مجاهد).

(٢) أي إلى عهد كتابة هذا الفصل.

فلما شرعت بإعداد المشروع جعلت كتاب قدري باشا هو الأصل، ووضعت أمامي «قانون العائلة» والقوانين المصرية، وكتب المذهب والمذاهب الثلاثة الأخرى، وغيرها من الكتب الفقهية ككتب الشوكاني وابن حزم وابن تيمية وابن القيم، ونظرت فعرضت لي مشكلة: هل ينبغي الوقوف في الترجيح عند ما رجّحه الفقهاء المتأخرون وعلى رأسهم الإمام ابن عابدين جزاه الله خيراً؟ ثم جاوزت ذلك فسألت نفسي: هل يجب أن نقتصر على المذهب الحنفي؟ ثم سألت: هل من الواجب علينا التقيّد بالمذاهب الأربعة الرسمية؟ وإذا أردنا أن نأخذ من غيرها هل نصنع كما صنعت مصر، فنعين أولاً الحكم الذي نراه أوفق للمصلحة ثم نفتّش عن قائل به[1]، سواء علينا أكان هذا القائل معروفاً أم مجهولاً، وكان هذا القول مروياً بالسند المتصل أم كان مذكوراً عرَضاً أو منقولاً على لسان المخالف للرد عليه؟ أم ننظر في الدليل، فإن قام دليله أخذناه وإلا نبذناه؟

وجرّتني هذه الأفكار إلى تحديد موقفي (كما يقولون اليوم) من مسألة الاجتهاد والتقليد.

وكنت قد نشأت نشأة غريبة؛ فواليت الدراسة في المدارس النظامية الابتدائية والثانوية والعالية، وكنت مع ذلك أتردد صباحاً ومساءً على المشايخ وأجلس في حلقاتهم وآخذ عنهم العربية والفقه على الأسلوب القديم. وكنت قريباً من جوّهم إذ كان والدي

(١) انظر كلمة الأستاذ المراغي رحمة الله عليه في ضبط الجلسة الأولى للجنة الأحوال الشخصية، وهو في إدارة التشريع في وزارة العدل المصرية.

من أعيان علماء الشام وكانت إليه أمانة الفتوى في دمشق. فكان أول ما استقر في ذهني أن الاجتهاد سُدَّ بابه من قرن كذا (نسيت الآن من أي قرن سدّوه)، وأن القائلين بفتحه مبتدِعة ووهّابية لا يُعتَدّ بهم ولا يُلتفَت إليهم، وأن للفقهاء طبقات في التقليد عدّها ابن عابدين في أول الحاشية، وأن علماءنا الأحياء من الطبقة الدنيا منها، وأنهم ليسوا أهلاً للتخريج أو الترجيح فضلاً عن الاجتهاد.

ولكني فكرت بهذا المبدأ بحكم دراستي النظامية، ونقدته بعقلي الآخر الذي كوّنته المدارس وعلومها، فوضح لي أن هذا المبدأ صحيح إن كان المراد بالاجتهاد أن نلغي كل ما وصل إليه فقهاء المذاهب الأربعة ونؤسس مذهباً خامساً من جديد، نضع له أصولاً جديدة ونبني عليها الفروع الجديدة، فنكون كمَن يهمل كل ما وصلت إليه صناعة الطيران ويعيد محاولة العباس بن فرناس ليصنع طيارة يطير بها!

أما إن كان المراد منع الاجتهاد إطلاقاً فليس بصحيح؛ لأنها قد تَجِدُّ أحداث لم تكن على عهد ابن عابدين ولا بد من بيان حكم الله فيها، والكلامُ فيها ضرب من الاجتهاد. ثم إن سد باب الاجتهاد بالكلية حظر على الله أن يخلق كأبي حنيفة، وهذا محال.

فلما بلغتني مقالةُ مَن يقول بمنع التقليد ووجوب الاجتهاد على جميع المكلَّفين أعجبتني هذه المقالة لجِدّتها، ولأنها حررتني من تلك التي كنت أشكّ فيها وأشكو منها. ولكني لما أنعمت فيها النظر وجدتها أكثر إمعاناً في الخطأ من تلك وأبعد عن الصواب.

فحاولت أن أبعد عن ذهني أقوال الطرفين وأن أجد السبيل إلى الحق بينهما؛ فرجعت إلى أدلة الشرع فلم أجد نصاً في المسألة، ووجدت أن الصحابة كان يفتي منهم أقل من ثلاثين ويرجع الباقون إليهم ويأخذون بأقوالهم، ولكن من غير التزام لمذهبِ واحدٍ منهم بعينه، أو تسمية لمقلّد ومجتهد أو ذكر لاجتهاد وتقليد.

فلما لم أقع على نقل في المسألة يوقَف عنده رجعت إلى العقل، فوجدت أن لكل علم من العلوم منقطعين إليه مشتغلين به، وغرباء عنه زاهدين فيه جاهلين بأحكامه. فإذا كانت لك قضية في المحكمة ولم تكن من أهل القانون اضطررت إلى الرجوع إلى المحامين و«تقليد» أحدهم فيما يؤدي به إليه «اجتهاده»، وإن عزمت على بناء دار رجعت إلى المهندسين. وإن مرض ولدك راجعت الأطباء، فإن رأى الطبيب الذي درس في فرنسا شفاء الولد في علاج ورأى الطبيب الذي تخرج في أمريكا مضرّته في هذا العلاج، ولم يكن بد من «تقليد» أحدهما، ولم يكن لك طريق إلى ترجيح واحد من القوانين فماذا تصنع؟

تستفتي قلبك وتميل إلى ما يميل إليه. وهذا هو حال المقلد العامي في أمور دينه.

فلا بد -إذن- من التقليد في علم الدين وفي علوم الدنيا، لأنه يستحيل أن يكون كل إنسان عارفاً بكل علم له فيه رأي وبحث واجتهاد. لكن إذا كنت تفهم شيئاً من أحوال هذا المرض؛ كأن سبقَت لولدك الإصابة به وجرب العلاج وعرف أثره، فإنه لا يمنعك من الترجيح ومن الرد على أحد الطبيبين أنك لست طبيباً ولا عالماً بالطب ولست عارفاً بأحوال الأمراض كلها.

وكذلك من بحث في مسألة من مسائل الفقه ونظر في أدلة من تكلم فيها، وكان له معرفة بعلم الأصول ومقدرة على فهم كلام العرب، لا يمنعه من أن يكون مجتهداً فيها أنه لا معرفة له بغيرها، ولا يسعه تقليد من يقول بعكس ما أوصله إليه اجتهاده.

فإن كنت أديباً متمكناً من العربية، وراجعت في مطوَّلات كتب الفقه باب القراءة خلف الإمام، ونظرت في أدلة كل فريق، ورجعت إلى كتب الحديث فعرفت درجة كل حديث منها ومبلغه من الصحة، وكان لك إلمام بالأصول، ورأيت أن الحق مع المالكية في الإنصات عند جهر الإمام والقراءة عند إسراره، كنتَ مجتهداً في هذه المسألة ولم يَجُزْ لك أن تقلد فيها أبا حنيفة، وإن كنت حنفياً بعد هذا الاجتهاد[1].

وفكرت بعد ذلك في التلفيق: هل يجوز؟ فرأيت أنه لا بد من التفريق بين التلفيق عن هوى أو عن نظر واجتهاد، وبين أن يكون من العامي أو من العالم.

أما التلفيق عن هوى أو من العالم بأنه تلفيقٌ فلا يجوز، وأما التلفيق عن بحث ونظر أو من العامي فجائز، لأن العامي لا مذهب له ومذهبه مذهب مفتيه.

هذا كله للفرد الواحد، ليقيم أمر دينه ويبرئ ذمته. أما في التشريع للناس فلا بد مع النظر في صحة الدليل من معرفة حاجة الناس، وجعل العرف (إن كان عاماً) ومصلحة الناس من جملة

(١) قرّرَ هذا ابنُ عابدين في أول الحاشية.

الأدلة[1]، وهذا ما جرى عليه علماؤنا حين جعلوا من الأدلة رفع الحرج، وعموم البلوى، والعرف، وبنوا على ذلك فروعاً كثيرة معروفة وقواعد، منها أن للإمام أن يأمر بالمباح فيصير واجباً (ذكر ذلك في الحاشية والأشباه)، وأن يأمر الحكام باتباع أحد القولين.

ولقد وجدت خلال اشتغالي بوضع مشروع القانون أن في المذهب أحكاماً ثابتة بالنص القطعي، كمنع الوصية للوارث. ولا أزال أعجب كيف خالفتها مصر ولا أجد لها وجهاً، على الرغم من المباحث والمناقشات الطويلة التي كانت بيني وبين الأستاذ العلامة الشيخ فرج السنهوري، في داره العامرة في مصر وفي مكتبه في وزارة العدل.

وأحكاماً فيها نص ولكن النص فيها كالفقرة الحكمية المَبنيّة على «حيثيات». أخذ قوم بالحكم وحده (وهم الذين كانوا يُسمَّون بأصحاب الحديث) وقوم كانوا أبعد نظراً وأدق فهماً، نظروا إلى «الحيثيات» والأسباب، فلم يجعلوا الصاع من التمر في مسألة المُصرَّاة هو القاعدة[2]، بل ثمن اللبن الذي أخذه المشتري من

(١) راجع الرسالة القيمة «نشر العرف في أحكام العرف» لابن عابدين.

(٢) في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لا تَلَقَّوا الرُّكبان، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا تناجشوا، ولا يبع حاضر لبادٍ، ولا تَصُرّوا الغنمَ، ومن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها، فإن رضيها أمسكها وإن سَخِطَها ردها وصاعاً من تمر». وهو حديث صحيح مشهور مروي من طرق عدة، قال في «إحكام الأحكام»: "والمُصَرَّاة هي التي تُربَط أخلافُها ليجتمع اللَّبَن". والمسألة معروفة في كتب الفقه (مجاهد).

الضرع، لأن النبي ﷺ ما حدد الصاع إلا لأنه كان عدلاً له.

وأحكاماً مبنيَّة على استقراء، كتحديد أكثر الحمل بسنتين عندنا. ولا يمنع مانعٌ من تبديل هذه الأحكام إن ثبت بالاستقراء التام غيرُ ما ثبت لدى الأوّلين بالاستقراء الناقص.

وأحكاماً مبنيَّة على نص بوصف من الأوصاف، لكن النص لا ينطبق عليها بوصف غيره، كابن المحروم لا يرث من جده مع وجود الأعمام، ولكن يُعطى مثل نصيب أبيه (في حدود الثلث) بوصف ذلك وصية واجبة.

وقد كان في نفسي من ذلك شيء: كيف يحرم الله هذا الحفيد ونعطيه نحن؟ وترددت قبل وضع هذا الحكم في مشروعي وجادلت الأستاذ السنهوري فيه جدالاً طويلاً، ثم شرح الله صدري حين ذكرت أن المسلمين الأولين كان يكفيهم الندب لإعطاء هذا الحفيد، فلما قصّر الناس في أداء المندوبات كان من المصلحة أمرُ الحاكم الناسَ به، وكان في ذلك تحقيق الإعطاء الذي أراده الشرع حين ندب إليه.

وأحكاماً مبنيَّة على نص يقابله نص آخر وليس من مانع من الرجوع إلى النص الآخر، كمسألة طلاق الثلاث بفم واحد.

وأحكاماً مبنيَّة على اجتهادين: اعتبار مدلول اللفظ أو قصد المتكلم (كمسألة الحلف بالطلاق) أو استعماله للبحث على فعل أو المنع منه، ولا وجه لإيجاب أحد الاجتهادين حتماً ومنع الآخر حتماً.

وأحكاماً لم يُنَص عليها نستطيع أن نقرّها سداً للذريعة؛ كمنع المتزوج من الزواج مرة ثانية إلا بعد إثبات مقدرته على الإنفاق عليهما معاً، وذلك خيرٌ من الإذن له بالزواج ثم إيقاع الطلاق عليه لعدم الإنفاق. أو تحقيقاً للمصلحة، كمراعاة الكفاءة في السن بين الزوجين وعدم الإذن له بالزواج إن كان الفارق بينهما فاحشاً (أربعين أو خمسين سنة مثلاً). أو إيجاباً لمندوب كأن نُلزم من يطلّق زوجته طلاقاً تعسفياً يؤدي بها إلى العوَز والفاقة بتعويض فوق المؤجل يقدره القاضي[1].

* * *

هذه خواطر ما أردت بها الإحاطة بالموضوع ولكن فتحَ باب البحث فيه.

* * *

(١) هذه الأحكام كلها قُرِّرت الآن وصارت قانوناً.

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

أهل الفتوى الأوّلون

قال ابن القيم في «إعلام[1] الموقِّعين» (١/ ٩):

الذين حُفظت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ مئة ونيّف وثلاثون نفساً ما بين رجل وامرأة. وكان المكثرون منهم سبعة: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر. رضي الله عنهم جميعاً.

وقال أبو محمد بن حزم: ويمكن أن يُجمَع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم. قال: وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى ابن يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فُتْيَا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في عشرين كتاباً. وأبو بكر محمد المذكور أحد أئمة الإسلام في العلم والحديث.

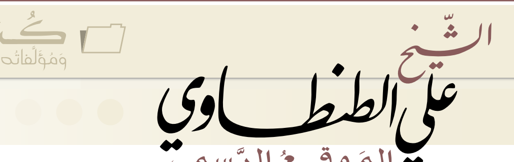
* * *

(١) ترددت وأنا أصحّح طباعة هذا الكتاب: أأكتب اسمَ كتاب الإمام ابن القيّم هذا بفتح الهمزة أم بكسرها؛ فالعلماء والمحدّثون يكتبونه ويلفظونه بالصورتين جميعاً، ولكل صورة وجهٌ من المعاني مقبول. ثم استقرّ رأيي على كتابتها بالرسم الأشهر وهو الفتح، فجعلتها «أعلام الموقعين». وذهب الكتاب إلى الطبع وجاءتني تجارب الطباعة فصحّحتها وهو على هذه الصورة. ثم إنني انصرفتُ إلى العمل في إعداد ونشر كتاب جديد أجمع فيه من مقالات علي الطنطاوي بعضاً مما لم يُطبَع في أي من كتبه السابقة، واتفق أن هذا الكتاب الجديد سيكون جزءاً ثانياً من كتاب «فصول إسلامية» الذي فرغت من تصحيحه من قريب، فمرت بين يدي -فيما مرّ بين يدي- قصاصة من الورق وجدت فيها بخط جدي رحمه الله: "في الجزء الأول ص٨ من كتاب ابن القيم ما يدل على أن اسمه «إعلام الموقعين» بالكسر". فعندئذ استدركت فصححتها هنا قبل دفع هذا الكتاب إلى المطبعة بيوم أو ببعض يوم! (مجاهد).

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)



دار المنارة للنشر والتوزيع



علم التوحيد

نشرت سنة ١٩٥٣

لقد علّمت في الكلية الشرعية في دمشق والكلية الشرعية في بيروت والكلية الشرعية في بغداد منذ أكثر من خمس عشرة سنة، وكلها قد أنشئ على غرار معاهد الأزهر وكلياته وكلها يتبع مناهج قريبة من مناهجه. فكنت أعجب من القائمين عليها كيف يهملون «علم التوحيد»، ويسمون باسمه ويقيمون مقامه (شيئاً) هو أبعد عن التوحيد من الأرض عن السماء، مع أن التوحيد من الدين بمقام الروح من الجسد، وأنه أول أغراض الرسل جميعاً وأعظم مقاصد القرآن، ولأجله بُعث الأنبياء وشرعت الديانات.

والذي يُقرَأ اليوم على أنه توحيد، ممّا اشتملت عليه «العقيدة النسفية» وأمثالها (ولا أستثني من ذلك رسالة الشيخ محمد عبده) لا يكاد يقوّي عقيدة ولا يثبّت إيماناً، ولا يبعث في النفس خشية الله ودوام مراقبته، ولا يدفع إلى إخلاص في عبادة، ولا يذيق صاحبه حلاوة الإيمان.

يخاطب العقل بالمنطق، وكان من حقه أن يخاطب القلب بالشعور، وربما انتهى إلى جدل عقيم لا يلد فائدة ولا ينتج نفعاً. وأعجب ما فيه رواية شُبَه أقوام انقرضوا وتلقين الطالب ضلالاتهم (وكفرياتهم) التي لم يبقَ اليوم أحد على ظهر الأرض يعرفها أو يقول بها.

ولقد كان المسلمون الأولون، وهم أئمة الدين وصفوة المؤمنين، لا يعرفون من علم التوحيد إلا الآيات التي أنزلها الله في القرآن، أقبلوا عليها تلاوة خاشعة وعلماً وفهماً، فأعطاهم الله بها إيماناً ثابتاً ظهر في كل حركة من حركاتهم وسكنة من سكناتهم. وكانوا يعلمون أن للإيمان شُعَباً تجمع مَطالب الخير والحق كلها، فكانوا متمسكين بشُعَبه جميعاً؛ من تنزيه الله عن الشريك، وإخلاص العبادة والدعاء له، وابتغاء الخير منه، والاستعانة (فيما وراء الأسباب) به وحده، إلى ما يبدو أنه أيسر أعمال الخير وهو إماطة الأذى عن الطريق.

وكانوا لا يأتون المحرَّمات لأنه لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمرَ شاربُها وهو مؤمن. وكيف يزني وهو «مؤمن» بأن الله مطّلع عليه وناظر إليه؟ هل يستطيع أن يزني مَن يعلم أن أباه أو أستاذه قائم في شبّاك ينظر إليه؟

وكانوا أهل نظافة وطهارة في ثيابهم وأجسادهم ومساكنهم وألسنتهم لا يدنسونها بالخَنا، وأعمالهم لا يوسخونها بالغش والرياء والفسوق والعصيان، لأن «النظافة من الإيمان».

وكان في عصرهم مخالفون لهم من كل نِحلة ومذهب، فما ضرهم في إيمانهم ومناظرتهم لخصومهم أنهم لم يدرسوا علم الكلام ولم يعرفوا منطق أرسطو ولم يقرؤوا «النّسَفيّة» ولا ما يشبه

النسفية، وما احتاجوا أن يسلكوا في جدال هؤلاء المخالفين والرد عليهم غير مسلك القرآن.

ومرَّ على ذلك القرن الأول، وهو خير القرون، وشيء من الثاني، ثم نجمت في الأمة طائفة المتكلمين من المعتزلة. وقد أجمعت كلمة العلماء في عصر نشأتهم على إنكار بدعتهم وتقبيح نِحلتهم، على ما كان لهم من إخلاصٍ في نيّة الذبِّ عن الإسلام وثباتٍ في مواقف الدفاع وبصرٍ بصناعة الجدل، وما كان لهم من سعة علم وحدّة نظر وروعة بيان.

واتفق أن إماماً من أئمتهم ولساناً من ألسَنهم ترك الاعتزال ورجع إلى الجماعة، ولكنه حمل معه تفكيره وأسلوبه وطريقته، وهو أبو الحسن الأشعري. فلم تتحول هذه الطريقة حتى تصير سلفية قرآنية، ولكن تحولت طريقة السلف به فصارت منطقية عقلية، واختفى -بذلك- التوحيدُ الذي كان مصدرُه ومردُّه إلى آيات القرآن، لا يعرف غيرَها ولا يعتمد إلا عليها، ونشأ علم الكلام الذي يعتمد على منطق أرسطو.

والغريب أن هذا العلم الذي نسميه خطأً «علم التوحيد» وندرّسه في مدارس الدين ونشغل به الطلاب، ونأخذه على أنه طاعة من الطاعات وقُربة من القربات، قد كرهه علماء الملة وأئمة الإسلام. ولما وصل المصري الذي أرسله ابن العاص إلى عمر بن الخطاب ووجده يتكلم في شيء يشبه علم الكلام اليوم (بسؤاله عن معنى الاستواء وأمثال ذلك من المتشابه) ضربه ونفاه وأمر الناس بمقاطعته، مع أن ما ضربه لأجله هو ما تمتلئ به كتب علم الكلام الذي نسميه علم التوحيد!

ومالكٌ لمّا سُئل عن ذلك عدَّ السؤال بدعة، وجوابه مشهور معروف. ونهى أبو حنيفة ابنَه عن مناظرة رجل كان يناظره في القدَر وأمرَه ألاّ يعود، ومنع أصحابه من الصلاة خلف رجل كان يتكلم في خلق القرآن وآخر كان يردّ عليه، فقيل له: الأول ينكر قِدَم القرآن فما بال الآخر؟ قال: ينازع في الدين، والنزاع في الدين بدعة. وروي عنه النهي عن الصلاة خلف أصحاب الكلام.

وقال الشافعي: حكمي في أهل الكلام أن يُضرَبوا بالجريد والنعال ويُطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على كلام أهل البدعة. ونُقل عنه أنه قال: لأن يلقى العبدُ اللهَ بكل ذنب خلا الشرك خير له من أن يلقاه بعلم الكلام. وقال: إذا سمعتم الرجل يقول: "الاسم هو المسمى أو غير المسمى" فاشهدوا أنه من أهل الكلام.

وقال أحمد بن حنبل: علماء الكلام زنادقة، وقال: لا يصلح صاحب الكلام أبداً.

* * *

وقد يقول قائل: إن هذا كله فيمن جاء بما يخالف نصوص القرآن وظواهره من المعتزلة وأشباههم، فما يقول هذا القائل فيما رُوي عن جماعة نعدّهم اليوم من أكابر علماء أهل السنة والجماعة، مارسوا علم الكلام حتى صاروا الأئمة فيه وصرنا نأخذ عنهم أكثر ما نملأ به كتبنا التي ندرّسها في معاهدنا وكلياتنا، ثم

ندموا واستغفروا وتابوا وأنابوا؟ أولهم الأشعري، ذكر في كتاب «الإبانة» (وهو آخر كتاب ألّفه) أنه رجع في عقائده إلى مذهب السلف[١]، ورجع الغزالي إلى مذهب السلف، ذكر ذلك في كتابه «إلجام العوام»، وأعرض عن تلك الطرق جملةً حتى مات والبخاري على صدره[٢].

والرازي قال: ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تَروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريق القرآن. اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ و﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ و﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾... إلى أن قال: ومَن جرب مثل تجربتي عرف مثل تجربتي. وهو القائل:

نهايةُ إقدام العقولِ عِقالُ ... وغايةُ سعي العالَمين ضلالُ
ولم نستفِدْ من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

والشهرستاني يقول في الفلاسفة والمتكلمين:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم،
فلم أرَ إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

وأبو المعالي الجويني قال: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام؛ فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال عند موته: لقد خضت البحر الخِضَمّ، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه. والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني. إلى أن قال: وهأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور.

وقال الخسروشاهي (وهو من أجلّ تلاميذ الفخر الرازي) لبعض الفضلاء: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون. قال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ قال: نعم. قال: احمد الله على هذه النعمة، فإني والله ما أدري ما أعتقد. وبكى حتى اخضَلّت لحيته.

وقال الخونجي عند موته: ما عرفت شيئاً مما حصلته سوى أن الممكن مفتقر إلى المرجّح. ثم قال: الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئاً.

وقال آخر: أضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي شيء منها.

فأين بعد هؤلاء؟ وهؤلاء هم أعلام الكلام في الإسلام.

* * *

وهذا هو علم الكلام الذي نشتغل به اليوم؛ نشتغل بالصفات وهل هي عين الماهية أو شيء زائد عنها، والأعراض وهل تبقى زمانين، والطفرة والاستطاعة وخلق القرآن، وأشياء أخر قرأتها من قديم ونسيتها ولله الحمد.

وليس بعض من يسمّون أنفسهم بالسلفيين على خير من هذه

(١) التعليم والإرشاد للحلبي، ص ١٧٠، طبع مصر ١٩٠٦. وهي رواية لم تثبت.
(٢) شرح الفقه الأكبر لملاّ علي القاري، ص ٥، طبع مصر ١٣٢٣.

الحال، فهم يشتغلون بالمتشابه الذي ضرب عليه إمام السلف الصالح عمر بن الخطاب، ولا دأب لهم إلا الكلام في اليد والوجه والاستواء، ينكرون التأويل وهو من سنن العرب في كلامها[1]، والقرآن أنزل بلسان العرب، ولا يعرفون كيف يخرجون مما أدخلوا نفوسهم فيه من هذه المضايق فيقع الجَهَلة منهم بالتجسيم وهم لا يدرون، ويأتون على ادعائهم السلفية بما لم يعرفه السلف من مثل قولهم: "الله بائن من خلقه" وإلزامهم صغارَ الطلبة والمبتدئين بحفظ ذلك واعتقاده.

فهل هذا هو التوحيد الذي بعث الله به محمداً؟ هل هذا هو الطريق الذي سلكه النبي ﷺ في الدعوة إلى الله؟ أمبتدعون نحن أم متّبعون؟ ومصلحون نحن أم مفسدون؟

إنني أرجو من أستاذنا وصديقنا العلامة الأديب المصلح السيد الخضر، شيخ الإسلام علماً ومنصباً، أن يأمر بتعديل المناهج[2] وإلغاء هذه الكتب جملة واحدة، وأن يجعل علم التوحيد مقصوراً على إفهام الطلاب آيات التوحيد في القرآن... على إفهامها ولم أقل على تفسيرها؛ لئلا يدخل من باب التفسير شيء ممّا في تفسير الفخر وأمثاله. وأن يتولى ذلك مدرّس حاضر القلب قوي الإيمان، من المسلمين الصادقين والعلماء العاملين، يعلّم بفعاله أكثر مما يعلّم بمقاله، ويُصلح بصلاح نفسه أكثر مما يُصلح بنجاح درسه.

وأن يكون المنهجُ منهجَ الرسول في تلقين التوحيد لمن كان يَفِدُ عليه من الكفار، يقيمون اليوم أو الأيام ويسمعون الحديث أو الأحاديث، فينصرفون وهم مؤمنون وهم عارفون بالإسلام، وهم دعاة إلى الله، وما تعلموا منطق أرسطو ولا ناقشوا في رؤية الله في الآخرة ولا لُقِّنوا أنه بائن من خلقه!

وأن يتفرغ بعد ذلك بعض كبار الطلبة لدراسة علم الكلام الذي ينبغي أن يوضع من جديد، العلم الذي يردّ على الخصوم الأحياء من الشيوعيين والقوميين الملحدين والقاديانية والأحمدية والبهائية والتيجانية، يدرس مقالتهم المعادية للإسلام ويبيّن ضعفها وفسادها، ولا يشتغل إلا بالشُّبَه الذائعة المنتشرة، وإلا كان عوناً للعدو علينا ومذيعاً لضلالاتهم فينا. وينبغي أن تعيَّن الطوائف التي يجب الرد عليها في مطلع كل سنة مدرسية، وأن يُترك الرد على الجهمية والمعطّلة والمشبّهة وما لا أذكره الآن من ألقاب المخالفين، إلى الأبد!

وبذلك نكون قد دعونا إلى الإيمان ودافعنا عن الإسلام.

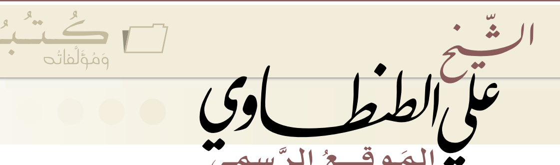
* * *

(١) وما أدري ما يقول منكرو التأويل في مثل قوله تعالى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ و﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾؟

(٢) كلّفتني وزارة الأوقاف من شهور بوضع مناهج الثانويات الشرعية في الشام، فوضعتها كلها، ومنها منهج جديد لعلم التوحيد جرى العمل عليه من مطلع هذه السنة المدرسية.

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحة من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



تعميم الثقافة الإسلامية

نشرت سنة ١٩٤٥

أحسب أن هذا الفصل لن يجوز إلى مصر ويكون في أيدي القراء إلا بُعَيد اليوم الذي يتخذه المسلمون عيداً، ويذكرون فيه هجرة سيدهم وسيد العالم محمد ﷺ، ويذيعون فيه سيرته وشمائله، وتروج فيه سوق المباحث الإسلامية وتجري بها أقلام الكتّاب وتمتلئ بها صحف المجلات.

ولن أعود فيه إلى حديث كتاب الدين الإسلامي الذي طالما تكلمت فيه في الرسالة وأفضت، وبدأت وأعدت، فكنت كنافخ في غير ضَرَم وصارخ في واد. وإن الصارخ في الوادي ليسمع رجع الصوت، ونافخ الرماد ينثر الغبار، ومقالاتي لم تحرك من هؤلاء (العلماء...) ساكناً ولم ترجع لها الأيام صدى، مع أن المقبرة تردّ الصدى على من يصرخ بين القبور!

ولكني متكلم اليوم في تعميم الثقافة الإسلامية. ولا يكون مسلماً حقاً مَن لم يعرف دينه، ومن يكتفي من الصلة به بأن أبويه كانا مسلمَين وأن اسمه محمد أو علي لا جورج ولا طنوس... ولا يكونه أبداً إلا إذا عرف حقيقة الإسلام وألَمَّ بعلومه وعَلِمَ الحلال من الحرام، ولا يكون ذلك إلا في المدارس والمساجد، فالمدارس للناشئة والمساجد للعامة، وكلاهما اليوم في قصور عن هذه الغاية بيّن.

أما المساجد فليس تخلو من أثارة علم، هي بقية من ذلك الفيض العظيم، كالذي يبقى في الوادي من السيل، ليس فيه عِوَض منه ولكنْ فيه دليل عليه.

ولقد غبَرَ دهر كانت فيه المساجد بمثابة جامعات اليوم، تدرس فيها كل معضلة ويقرأ كل علم حتى الطب. لا أمثل على ذلك بمساجد الكوفة والبصرة قديماً، وبغداد والفسطاط، فذلك شيء مستعلن خبره متواتر مشهور، ولكن أمثل بما كان يرى من حلقات العلم من قريب، في مسجد دمشق ومساجد القاهرة وبغداد، وما ترى اليوم في النجف من حِلَق كثيرة يدرَّس فيها مذهب القوم وتُقرأ فيها العلوم على الطريقة التي يرتضيها لأنفسهم علماء تلك الديار ومتعلموها.

فلم يبقَ من ذلك (حاشا النجف والأزهر) إلا حلقات قليلة ومجالس وعظ، كثيراً ما يتولاها غيرُ أربابها ويتصدر فيها مَن لم يكن يطمع في الجلوس في حواشيها، يلقي فيها ما يجتمع على إنكاره الدين والعقل والذوق من التحريف والتخريف والباطل الموضوع والسخيف الواهي. ولقد كان تدريس «القبّة» في جامع دمشق لأكبر علمائها، وآخر من تولاه البدر الحسني رضي الله عنه، فصار اليوم لكل ذي عمامة مكورة ولحية مدورة وصوت يصكّ الآذان!

وكذلك اختفت من المساجد حِلَق العلم الحق وتوافرت

فيها مجالس الوعظ الباطل والقصص الموضوع، ولدينا عدد عديد من العلماء الذين نصبتهم الحكومة مدرّسين للعامة فلبثوا في بيوتهم ما يراهم من أحد، اللهم إلا «أمين الصندوق» أول يوم من الشهر، والحاكمون ذوو السلطان في كل عيد مهنِّئين وكل سفر مودِّعين وكل قدوم مسلّمين، وعندما تشغر «وظيفة» ليقاتلوا عليها ويحاربوا دونها!

* * *

أما المدارس فحديثها أطول والبلاء بها أشد، وهي على ضروب: فضرب منها لأناس ليسوا منا ولا لسانهم بلساننا ولا دينهم من ديننا، قدموا علينا أرضنا وأخذوا أبناءنا، ليخرجوهم أعداء لنا ويجعلوا منهم أداة من أدوات «التمدين» التي رأينا أشكالاً منها مؤذية وألواناً... منها العازارية والفرنسيسكان والفرير واللاييك والأميركان.

وواضح لا يحتاج إلى إيضاح أن هذه المدارس لا تدرس الفقه ولا الحديث ولا تعنى بعلوم اللسان، وأنها أنشئت لغير هذا. وما كتمت منهجها ولا أخفته ولا خدعت الناس عنه، ومع ذلك نجد تجّاراً مسلمين، بل وعلماء يدّعون أنهم الهادون المهديون الصالحون المُصلحون، قد أرسلوا إليها أبناءهم وبناتهم. وقد ظهر بعد أن أغلقت هذه المدارس[1] (والحمد لله) أن أكثر تلاميذها، بل جمهورهم، من المسلمين!

وضرب منها لأناس من عامة هذا الشعب، ضاقت بهم سبل

(١) أغلقت ثم عادت.

العيش فلم يجدوا لهم طريقاً إلى الكسب، فاستأجروا بيوتاً أو وضعوا أيديهم على غرف مظلمة في مساجد مهجورة، فسمّوها مدارس، وسمروا أخشاباً بأخشاب فدعوها مقاعد، وأجلسوا عليها أغلمة جعلوهم تلاميذ، وتمت الرواية لما صاروا هم المعلمين! وهذه المدارس «المسرحية» لا تصنع في نشر الثقافة الإسلامية شيئاً لأنها لا علم فيها أصلاً وهي آخذة بالزوال.

وضرب منها مدارس أهلية كبيرة، كثيرة التلاميذ والمدرسين ضخمة البناء، يديرها أفراد أو جمعيات، ومنها ما يقوم عليه نساء... منها الإسلامي وهو قليل محدث كالكلية الشرعية في دمشق، وغير الإسلامي وهو كثير قديم، وما هو ضائع المنهج ضالٌّ عن الطريق لم يتخذ بعد له وجهة يوليها، وما فيها جميعاً (إلا ذلك المحدث القليل) ما يصنع في نشر الثقافة الإسلامية شيئاً.

وضرب منها، وهو أعظم ضروبها كثرةَ مدارس وعمقَ أثر، قد أنشئ بأموال الأمة لتعليم أبنائها وتخريجهم، وإعدادهم إعداداً يكونون معه أدلاّء لها في طريق نهضتها وقادة لها إلى ما تحاول من مجد وعز وكمال، ولا يتمّ ذلك إلا بوقفهم على تاريخهم[1] وتعليمهم علوم دينهم ولسانهم، وإفهامهم أن هذه الأمة مقدور عليها أنه لا يصلح آخرها إلا بما صلح أولها، وما كان صلاح أولها إلا بالإيمان الصحيح والخلق المتين، فإذا أضعناهما أضعنا المعراج الذي نعرج عليه إلى ما نريد من ذُرى المعالي وسرنا في طريق الحياة بساقين جذماوين، نزحف زحف المقعد الزّمِن

(١) كذلك، أما أوقفه على الشيء فإنها لغة رديئة.

ونتدحرج تدحرج الكرة، فنتمرغ في الوحل ونحن نحسب أنّا نرقى في سلاليم المجد والعلاء.

وإذا أنت فتشت عن هذين الجوهرين الكريمين «العربية والإسلام» في المدارس الرسمية لم تلقَ منهما إلا ما تلقى من حبّات الذهب في تل الرمل، ومن حرّ اللآلئ في أصداف البحر.

ووجدت الدروس في هذه المدارس على نوعين: نوع واحد منهما له المحل الأعلى والقدر الأكبر، وعليه مدار جهد المعلم والطالب، وفيه يكون الامتحان وما يعقب الامتحان من الارتقاء أو الرسوب. وقد يدخل في هذه الدروس الغناء واللعب (أي الرياضة البدنية) والتصوير، ولكنه لا يدخل فيها الدين! ولا تجد في قطر من هذه الأقطار العربية المسلمة امتحاناً من الامتحانات العامة (الابتدائية أو الكفائية أو الثانوية) يكون فيه لدرس الدين خطر أو أثر في نجاح الطالب أو فشله.

على أن تسمية هذه العلوم بدرس الدين أول الوهَن، وليس الدين عِلماً واحداً ولكنه علوم جمّة ومعارف شاملة، عاش عليها العقل البشري قروناً طوالاً، منها الفقه فروعه وأصوله والتفسير والحديث وعلوم أخرى عدَّ منها طاشكبري زاده في كتابه الجليل «مفتاح السعادة» ستة عشر وثلاثمئة علم، لكل علم منها أبواب وفصول، وفي كلٍّ كتبٌ لا يلحقها الحصر. وفي «كشف الظنون» لحاجي خليفة وصفٌ لستة عشر ألف كتاب هي التي رآها المؤلف ووقف عليها بنفسه في عصر من عصور الانحطاط.

ولقد سبق أن قلت إنك إذا نظرت إلى ما ثبت من كتبنا على التحريق والتخريق والتغريق والتمزيق، وما خلص إلينا مما أصاب المكتبة الإسلامية من النكبات الكبار والأحداث الجسام (وحسبك منها مصيبتا هولاكو وفرديناند) لرأيت شيئاً يهولك ويعجزك عده كما أعجز المطابعَ إلى اليوم طبعُ بعضه، وهي لا تَني في الشرق والغرب تعمل دائبة عليه. وما علمنا لأمة من أمم الأرض كلها مثل هذا الذخر العلمي أو قريباً منه، ولا مثل نصفه ولا ربعه... أفليس من أعجب العجب أن هذا التراث لا يساوي في رأي القائمين على هذه المدارس علماً واحداً من علومها، كالجبر مثلاً أو الفيزياء أو... الرياضة البدنية! ولا يجودون عليه بسبع ساعات في الأسبوع أو ثمان، ولا يجعلونه مدار خيبة في البكالوريا أو نجاح؟! وأعجب منه أن تاريخنا الذي يتصل أشد الاتصال بالتفسير والحديث والرواية وعلم الرجال يتولى تدريسَه فيها من لا بصر له بهذه العلوم ولا علم له بمصادرها الأصيلة، ولا وقوف له عليها ولا قدرة له على فهمها، ومَن لم يحصله إلا على أيدي الخصوم الذين يكيدون له ويدسون عليه الدسائس، فهو يحملها في فكره كما يحمل البعوضُ جرثومةَ الملاريا ليلقيها في أدمغة الأصحاء فيفسدهم بها، حتى رأينا جماعة من غير ملّتنا ودِيننا درّسوا (في عهد الإفرنسيين) تاريخنا! أفسمعت بأعجب من تدريس الخواجة ميشيل والخواجة جورج سيرة أبي بكر وعمر؟!

وأبلغ منه في العجب أن الفرنسيين وصل بهم الأمر أن بعثوا بأبنائنا يأخذون لغتنا عن المسيو مارسيه في باريز، كأن باريز بادية البصرة وكأن مارسيه من فصحاء بني عقيل... أو كأنه الأصمعي أو الخليل!

لا رحم الله ذلك الزمان ولا أعاد مثله علينا أبداً.

* * *

أما إن الحديث جِدٌّ، وإنه ليس بين شبابنا وبين اتّباع الإسلام إلا أن يعرفوه لأنه قوي أخّاذ، ما عرفه أحد على حقيقته وقدر -إن كان منصفاً- على مخالفته، ولكن المشكلة هنا: كيف السبيل إلى أن يعرف الشبان المسلمون ما هو الإسلام إذا كانوا لا يستطيعون النظر في كتبه ولا يعرفونها، وإذا كانوا يرون المتزيين بزي علمائه جامدة أفكارهم، يقولون بألسنتهم ما لا يحققونه بأفعالهم: يأمرون الناس بالعزة ويذلون لأهل الدنيا، ويزهّدونهم فيها ويتسابقون إليها، ثم إنهم بعد ذلك منقطعون عن الشباب لا يلقونهم، وإن لقوهم لم يستطيعوا أن يفهموهم، وكانت المساجد مقفرة من دروس العلم وكانت المدارس معنية بكل شيء إلا الدين؟

السبيل هو هذا:

إنها قد نشأت فينا طبقة من العلماء ممّن حصل العلم في المدارس الحديثة ولكنه درس مع ذلك علوم الدين ووقف عليها، أو درس الدين وعلومه على الطريقة القديمة ولكنه ألَمَّ بالثقافة الحديثة ودرسها كما يدرسها أهلها. وأنا أعرف على هذه الصفة كثيرين في الشام ومصر، وعلى هذه الطبقة يقع الواجب الأكبر في الدعوة إلى الله والعمل على تعميم الثقافة الإسلامية، بالإلحاح على مديرية الأوقاف وعلى مقام الإفتاء بوضع منهج عملي للتدريس والوعظ في المساجد، وأخذ المدرّسين بالشدة لينفذوه ويسيروا عليه، والإلحاح على وزارة المعارف بالعناية بالعلوم الإسلامية في المدارس، ومنحها الساعات الكافية لها، وإدخالها في مواد الامتحانات المدرسية والامتحانات العامة واختيار المدرسين الصالحين لتدريسها؛ ويعمل كلٌّ على ذلك بلسانه إن كان خطيباً، وبقلمه إن كان كاتباً، وبقوّته كلها.

فإن لم يفعلوا فليعلموا أنه سيأتي يوم قريب لا يبقى فيه مَن يدري ما هو الإسلام، ويكون حالنا كحال ذلك الجندي التركي الذي لحق في المعركة بلغارياً، فلما تمكن منه ووضع سنان البندقية على عنقه قال له: أمان، أنا في عرضك. فقال له: أسلم! فوجد البلغاري الفرج وقال: إني أسلم، فماذا أقول؟ فتحير التركي وقال: "بلمام والله"... أي لست أدري!

* * *

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

تعقيب

نشرت سنة ١٩٤٧

كتب كاتب في مجلة أسبوعية أن «السيدة نفيسة» التي يُنسب إليها القبر المعروف في مصر ليست إلا الست نفيسة زوجة مراد بك آخر المماليك، وجاء في مقالته استطراد إلى ذكر الثورات المصرية قرّر فيه أنها قامت كلها باسم الدين، وأثار ذلك طائفةً من القراء فكتبوا إليه محتجين مصحّحين، وهاج كاتباً من الكتّاب فرد عليه مبيناً أن القبر للسيدة نفيسة النسيبة الشريفة الثابت نسبها إلى سيدنا علي، منكراً أن تكون ثورة مصر قامت باسم الدين... إلخ.

ولست معقّباً على هذا من جهة التاريخ، لأن من الواجب أن لا نخلط بين امرأتين بينهما ألف سنة، وأن نحقق القول في المساجد والقبور وسائر الآثار، وأن نمحص أسباب الثورات ونعرف حقيقة الدوافع إليها، ولكني معقب عليه من جهة الدين.

والدين -كما أفهمه- لا يبالي أكانت صاحبة هذا القبر السيدة نفيسة العلوية أم الست نفيسة المرادية، ولا ينفعها عند الله أن تكون الأولى إن كانت سيئة العمل ولا يضرها أن تكون الثانية إن كانت صالحة السيرة، لأن ميزان الله غير موازين البشر.

والله لا ينظر إلى الصور ولا إلى الأنساب وإنما ينظر إلى القلوب وإلى الأعمال بعد الإيمان. تتفاوت أقدار الناس في الآخرة، ولو كان للنسب ثقل في ميزان الله ما رجح سلمان (الفارسي) وصهيب (الرومي) وبلال (الحبشي) وخفَّ أبو لهب ابن عبد المطلب العربي القرشي الهاشمي عم النبي!

والناس لا ينفعهم في أخراهم أن يكون هذا القبر لهذه أو لتلك، أو لأي إنسان ممّن خلق الله، أو يكون قبراً خالياً ليس فيه أحد؛ لأن الإسلام يأبى عبادة الأموات وينكر تعظيمهم، ويسد الذرائع إليها، لذلك منعَ رفع القبور وزخرفتها والمغالاة فيها، فضلاً عن اعتقاد النفع والضرر بها وبأصحابها.

ودين الإسلام أساسه التوحيد، ومنه أن تعتقد أنه لا يضر ولا ينفع إلا الله؛ لا أعني ما يدخل في الأسباب المعروفة والعلل الظاهرة، إذ لا يُنكَر نفعها ولا ضررها، فالطعام نافع والسم ضار، والطبيب نافع والجاهل ضار... والناس كلهم والأشياء جميعها منها ما يضر ومنها ما ينفع، في حدود سنن الله في هذا الكون وطبيعته التي طبع الوجود عليها.

ولكن أعني ما وراء هذه الأسباب والعلل؛ إذ رُبّ مريض يستشير أكابر الأطباء ويجلب أندر العقاقير ويحظى بكامل العناية، ثم يموت، وآخر أصابه مثل مرضه فبرئ بأيسر العلاج وأقل الجهد. فالطبيب دالٌّ، ولكن الله الموصل، والرسول هاد مرشد، ولكن الله هو الهادي الموفّق لاتباع الرشد.

وفي الوجود شيء يدخل في طاقة الإنسان وأشياء لا تدخل

في طاقته، فإذا فعل كل ما يقدر عليه ولم يبقَ عليه إلا الالتجاء لقوة خفية قادرة على ما لا تقدر عليه قوته، فعليه بالالتجاء إلى الله وحده واعتقاد أنه هو الذي يضر وينفع. فإن التجأ إلى غيره، إلى نبي أو ولي، حي أو ميت، يؤمن بأنه يستطيع أن يعينه هذه المعونة الغيبية، فهذا هو الشرك الذي جاء الإسلام لإبطاله!

أما ما يعتقده العامة من أن هؤلاء الصالحين مقرَّبون إلى الله أكثر منا فهم يتخذونهم وسائل، فلا بأس بذلك ما دامت بعيدة عن المعونة الغيبية داخلة في نطاق الأسباب والعلل، كالتوسل بدعاء الصالحين. وقد توسل عمر يوم الاستسقاء بدعاء العباس عم النبي ﷺ ولم يتوسل بالنبي نفسه، مع أنه أفضل من العباس ومن سائر البشر.

ومهما قيل في مسألة التوسل التي طال فيها الخلاف وكثر الجدال ولم يبقَ فيها جديد يقال، فليس في القائلين بالتوسل ولا في المانعين له ولا في المتوقفين فيه مَن يقرّ ما يُرى في مصر عند قبر سيدنا الحسين[١]، أو قبر السيدة زينب، والسيدة نفيسة، والإمام الشافعي، وعند كل قبر قائم في مصر عليه قبة وله مزار.

إن الذي يُصنَع عند هذه القبور يجاوز الحد الذي جوّزَه القائلون بالتوسل من العلماء، ويطغى حتى ليوشك أن يجاوز... لقد كدت أقول: الإسلام! وإن من أوجب الواجبات على العلماء منعه وإزالته، حتى لا يظن بعض الشباب أن هذا هو الدين فيؤثروا الإلحاد على هذا «الدين» الخرافي، وهذا الذي صار!

(١) وسيدنا الحسين رأسه عندنا في الشام بلا كلام وجسده في كربلاء.

أما الكلام في الثورة والدين، وفرح الكاتب بضبطه رفيقه متلبساً بجريمة القول فيه وفزع الكاتب الأول من نسبة هذا القول إليه، فهو دليل واحد من آلاف الدلائل على ما انتهت إليه صورة الدين في نفوس بعض المتعلمين. فقد استقر فيها أن الدين شيء عتيق لا يليق بالمتعلم أن يتمسك به أو يتكلم باسمه، إلا إذا لاق به أن يدع السيارة والطيارة ويركب الحمارة وأن يترك عمارة إيموبليا ويسكن في منزل خرب وأن يعدل عن مطعم (سن جمس) إلى وليمة في قرية يأكلون فيها الرز بالأصابع... وأن الدين لا يجوز إدخاله في العلم ولا في السياسة ولا في الحياة اليومية.

وسبب ذلك كله جريمة أجرمها العثمانيون، هي أنه لما كان عهد البعث (الرونِسانس) في أوربة وهبَّتْ أوربة لتسابقنا بعد أن كنا نحن السابقين، لم تجارِها الدولة العثمانية في هذا الطريق الجديد ولم تقتبس من هذه النار ولم تستضئ بهذا الضوء، ولو هي فعلت (على ما كنا عليه من بقايا الحضارة الأولى) لبقينا نحن السابقين. فكان من نتيجة هذا الإهمال أن وقفنا والدنيا تمشي، ثم صرنا وراء الدنيا؛ لا لأنا تأخرنا بل لأن الدنيا تقدمت، وغدا المسلمون دون الغربيين في الصناعة وفي الثقافة وفي القوة.

وبقي فقهاؤنا يقرؤون الفقه الذي وضعت أحكامه لعصر ما قبل البعث (الرونسانس) مع أن مصادر الفقه تصلح لكل زمان ومكان ونحن ملزمون بالمصادر لا باجتهادات الفقهاء، والشباب يتعلمون ما عند أوربة وأمريكة من العلم ومن المذاهب السياسية والاجتماعية، ثم يتلفتون إلى العلماء يسألونهم عن حكم الشرع فيها فلا يلقي العلماء أمامهم إلا هذه الكتب التي ألفت لغير هذا

الزمان، يعودون إليها فلا يرون فيها شيئاً من ذلك، ولا يعرفون اقتباس الأحكام من مصادرها وأصولها، فينصرف الشباب وقد أيقنوا أن الدين قاصر وأنه لا يصلح لهذا الزمان.

ثم ينظرون حولهم فيرون هذه الخرافات والأوهام وهذه البدع والضلالات المنسوبة كلها إلى الدين، من غير أن يجهر أحد بإنكارها وإعلان براءة الدين منها، فيزداد ظنهم بالدين سوءاً ويعودون إلى الغرب فيتلقون عنه كل شيء، حتى القواعد التي وُضعت للديانة المسيحية ومنها «فصل الدين عن السياسة» و«فصل الدين عن العلم»، مع أن من أول ما ينبغي الاتفاق عليه في الجدل معاني الألفاظ، فما معنى الدين عند مَن وضعوا هذه القواعد؟

إن معناه «الأحكام التي تحدد صلة الإنسان بربه»، والدين بهذا المعنى لا دخل له في السياسة ولا في العلم، وهو شيء شخصي بين العبد وربه، ومن هنا سارت الكلمة المشهورة: «الدين لله والوطن للجميع». نحن لا ننازع في هذا، ولكن موطن النزاع ومكان الخلاف هو: هل الإسلام دين فقط موضوعه الصلة بين الإنسان وربه، أو أن فيه ما يحدد صلات الناس بعضهم ببعض حقوقياً وأخلاقياً، وصلات الدول بعضها ببعض خاصة وعامة؟

أليس في الإسلام أخلاق وحقوق خاصة وعامة ودولية؟ وهل يجب الفصل بين هذه القواعد الحقوقية التي تبدو عند المقابلة والمقارنة أعدل وأحكم من القواعد الحقوقية الموضوعة، هل يجب الفصل بينها وبين السياسة؟ وكيف؟ ولماذا؟

هذه هي المسألة. فمن يثبت لنا من الدين نفسه أنه قاصر على المسجد والعبادة وأن سورة الأنفال وسورة براءة مثلاً ليستا من القرآن؟ وأن آلاف الأحاديث التي اعتمد عليها الفقهاء في المعاملات ليست من الدين؟ وإذا كان ذلك كله من الدين، فمن يثبت لنا كيف تكون الأمة مسلمة وهي تتمسك ببعض الدين وتترك بعضه؟

هذا وأنا لا أدعو إلى أن نأخذ الأحكام المدوَّنة في كتب الفقه كما هي، فنجعلها قانوناً ملزِماً لا تبديل له ولا تغيير ولو كانت أحكاماً اجتهادية مبنية في الأصل على عرف أو مصلحة مرسَلة أو استحسان. لا، ولا أدعو إلى تحقيق ذلك بثورة مدمرة ومظاهرة صاخبة نكتفي بأن نصيح فيها: القرآن دستورنا، الإسلام دين ودولة... لا، بل بأن ينقطع نفر من أهل العلم إلى كتب الدين وإلى قوانين الدول، وإلى تعرّف حاجات العصر ونظريات علمائه، ثم يعدّوا مشروعات هذه القوانين.

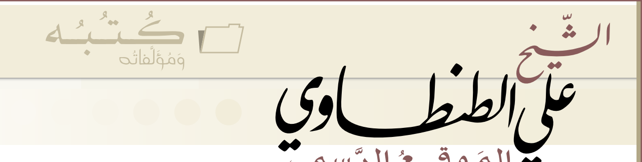
وهذا العمل، وإن كان صامتاً خفياً لا يُعرف صاحبه ولا يطبَّل حول اسمه بالطبول، فهو العمل النافع وهو كالأساس للبناء العظيم، يختفي الأساس في الأرض فلا يظهر، ولكن لولاه ما قام البناء.

ومِلاك الأمر تعريف الشباب بالإسلام و«ترجمة» كتبه إلى لسانهم، لأن الإسلام في ذاته قوة هائلة، سره فيه وفيه دلائله؛ فمن عرفه على حقيقته لم يستطع إلا أن يكون مسلماً. فإذا كان العلماء حريصين حقاً على ازدهاره وعودة أهله إليه ورجوع الأمة الإسلامية إلى مجدها، فهذا هو الطريق.

* * *

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحة من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



علم التوحيد وكتاب المودودي[1]

نشرت سنة ١٩٥٦

أهدي هذا الفصل إلى أخي الذي أحببته ولم أره، الأستاذ المودودي، تحية عودته إلى الميدان؛ راجياً ممّن له نقد أو استدراك عليه أو غيره مما أكتب أن يبعث به إلى «المسلمون»[2]، فإنه ليس أحب إليّ من مناقشة آرائي، ولا أسهل عليّ من الرجوع عنها إذا أدَّت المناقشة إلى إثبات خطئها.

أخذ المسلمون الأوّلون «عقيدة التوحيد» من القرآن وحده، وكانت العربية لسانهم الذي يتخاطبون به، يفهمونها بالسليقة لا بالتعلم، وكانوا يعرفون ما كانوا قبل الإسلام عليه وما دُعوا في الإسلام إليه، ولم يَرِد على نفوسهم شك في العقيدة لتعمل عقولهم على دفع ذلك الشك.

فامتلأت بهذه العقيدة قلوبهم وظهرت آثارها في أعمالهم، وما احتاجوا إلى علم يعرفون به أسباب نزول الآيات ووجوه

---

(١) كتاب «المصطلحات الأربعة في القرآن».

(٢) نُشرت المقالة في مجلة «المسلمون» التي كان يصدرها الأستاذ مصطفى السباعي، في عدد كانون الثاني ١٩٥٦ (مجاهد).

تفسيرها، ولا إلى علم يصلون به إلى حقيقة الإيمان بالله والاطمئنان إلى عقيدة التوحيد. آمنوا بأن كل شيء بقضاء من الله وقدر، وأن الرزق مقسوم والأجل محتوم؛ فرضوا بقضاء الله وقدره، وبذلوا في العمل للدنيا كل جهد، ورموا بأنفسهم في سبيل الله على كل خطر، إلا أنهم لم يكونوا يظلمون أو يعدون، ولا يجزعون من الخيبة ولا ينتحرون كما يفعل الجاهلون، ولا يخافون الموت إن اعترض الموتُ طريقَهم إلى الحق.

كذلك أخذوا عقيدة القضاء والقدر، أخذوها إيماناً وعملاً، لم يحاولوا البحث في أمور لا يمكن البحث فيها ولا يرقى العقل إليها. ورأوا في الكتاب ذكر الوجه واليد والاستواء على العرش وأمثال ذلك فأدركوا أن المراد منه الإيمان بعظمة الله، وإخلاص العبادة له، وتنزيهه عن الشريك الظاهر والخفي؛ فآمنوا بما جاء من عند الله على مراد الله، لم يحاولوا البحث في حقائقها ومجازاتها، فلم يصرحوا بأنهم جازوا بها عن حقائقها وإن كانوا قد فهموها على هذا المجاز، ولم يقولوا كما قال الآخرون من أنها حقائق فجعلوا لله وجهاً ويداً ثم تنبهوا إلى ما في ذلك من التجسيم فزادوا عليه ما هو في حكم الإحالة، فقالوا: وجه ولكنه لا كالوجوه، ويد لا كالأيدي، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك... فأخرجوا بذلك معاني الوجه واليد كلها، فكانوا كمن يقول لمجلس فيه عشرة أعضاء: اجتمع اليوم المجلس ولكن لم يحضر من أعضائه زيد ولا عمرو ولا خالد ولا بكر... حتى يستوفي عد العشرة!

* * *

ولبث الناس على ذلك القرن الأول، وهو خير القرون. ثم جاءت الفلسفة اليونانية، وهي فلسفة ابتدائية، لا سيما في باب الإلهيات، وتُرجمت ترجمة سيئة وفهمت فهماً أسوأ، فجاءت معها الشرور.

دخلت الشُّبَه على العقيدة الإسلامية الصافية، فعكّرت جانباً منها في عقول مَن شرب من هذه الفلسفة، وأوردت اعتراضات لا معنى لها ولكن لا يجوز السكوت عنها ولا بد من أن ينفر من المسلمين طائفة للرد عليها، فكانت طائفة المعتزلة التي حاربت الخصم بسلاحه ونازلته في ميدانه، وكان أهلها أولي أدمغة وألسنة ومَلَكات، وكان أكثرهم أهل استقامة ونزاهة وجرأة في الحق، فظفروا بها بعدوّهم.

ولكنهم غالوا في تقديرهم العقلَ وأعطوه أكثر ممّا له وحكّموه في أمور لا يملك بطبيعته الحكم فيها، وظنوا أن العقل يقدر على الخوض فيما وراء المادة، مع أن مجال العقل هو عالم المُحَسّات وحده، فإذا خرج منه لم يعد له وجود.

وهذا هو عيب المعتزلة، لولاه لكانوا أشد الدافعين عن عقيدة التوحيد. وأنا أعلم أن أكثر قراء هذا الفصل يَعجبون من هذا الكلام ولا يرضون عنه لأن للمعتزلة صورة مشوهة في نفوسهم.

ولقد ظُلم المعتزلة مرتين: ظلموا أنفسهم حين سخّروا ما كان من السلطان في أيديهم، لسلب الناس حريتَهم في التفكير وإكراههم على الإيمان بما لا تنطوي عليه جوانحهم وشغلهم بمسائل تافهة جداً، كمسألة «خلق القرآن»، حتى كانت تلك النكسة في تاريخنا العقلي. وظلمهم التاريخ لأنه دوّنَ أخبارهم بعدما خفتت أصواتهم وعلت أصوات خصومهم من الحنابلة، فاستمدّ ما قاله عنهم من أقوال الخصوم وحدهم.

وانشعب الطريق بعد المعتزلة إلى شعبتين؛ شعبة الأشاعرة وشعبة الحنابلة.

أما الأشاعرة فإنهم شاركوا المعتزلة في تحكيم العقل ولكن لا على منهاج واضح، فكانوا عقليين أحياناً وكانوا حيناً متّبعين أسلوباً غريباً، لا هم فيه مع السلف يقفون عند حدود الإيمان القرآني فهماً صحيحاً واعتقاداً، ولا هم فيه مع المعتزلة الذين يتّبعون أسلوب المنطق العقلي. وأما الحنابلة (لا أعني أتباع المذهب الحنبلي الآن، بل مَن جاء بعد انتصار أحمد بن حنبل على المعتزلة)[1] فقد ظهر فيهم ما يسمونه اليوم «رد الفعل»، فانتقلوا من ذلك الغلوّ الشنيع في تقدير العقل وتحكيمه في كل أمر، إلى غلو شنيع في الوقوف عند ظواهر النصوص وإهمال العقل جملة وتفصيلاً؛ فجعلوا لله وجهاً ويداً، وقالوا بأن كلامه بحرف وصوت وبأنه مستو على عرشه استواءً حقيقياً، وأشياء أُخَر من هذا الباب أخذوها على ظاهرها، مع أن السلف أَمَرُّوها ولم يخوضوا غمار الكلام فيها[2].

ثم كثرت الطرق والمذاهب، وصار علم التوحيد «كلاماً» فارغاً في الرد على هذه المذاهب وحكاية شُبَهها الواهية، التي أنشأتها

(١) ومن تصفح تاريخ الطبري مثلاً وجد العجب من أخبارهم.
(٢) وقد أدّبَ عمر رجلاً وضربه لأنه بلغه عنه أنه يخوض فيها.

الترجمة السيئة للفلسفة اليونانية والفهمُ السيء لهذه الترجمة.

وزاد البلاء أنه دخل في التوحيد مسائلُ هي من فروع الفروع؛ كتفضيل بعض الخلفاء الراشدين على بعض، ومسألة الخلافة، وما إلى ذلك من أمور لا تعدو أن تكون معارك انتخابية تنقضي بانقضاء أيامها. والله لا يسألنا عن الصحابة أيهم أفضل، ولكن يسألنا عن أعمالنا. وما دام علي نفسه قد بايع أبا بكر وعمر وأطاعهما، فهل يكون بعض الناس اليوم، وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرناً على هذه المعركة، علوياً أكثر من علي بن أبي طالب؟!

وكانت النتيجة أنه لم يبقَ اليوم للمسلمين في معاهدهم ومدارسهم علم يبحث في التوحيد القرآني، وليس في الكتب التي تُنسَب إلى هذا العلم ما هو كتاب توحيد حقاً، ولا رسالة محمد عبده التي نالت من التقريظ والثناء والدعاية ما لا تستحق -على جودتها- عشرَه، لأنها ليست إلا تهذيباً لكتب الكلام، ليس فيها من جديد إلا حسن الصوغ وجمال العرض، وفيها أشياء ليست من التوحيد في شيء: مباحث عامة، ومسائل من الفقه، وأطراف من التاريخ.

وخيرٌ لنا أن نطوي هذه الكتب كلها على ما فيها من خير قليل ولغو طويل، من شرح المواقف إلى الحصون الحميدية ورسالة محمد عبده، ونأخذ آيات التوحيد في القرآن فنفسرها للطلاب تفسيراً واضحاً، مبيّنين لهم أسباب نزولها وظروفه، ليكون لهم من ذلك مثل فهم العربي الأول المخاطَب بالقرآن، الذي كان له من سليقته ما يغنيه عن التفسير.

وكنت أقول بهذا القول من سنين طويلة، وكتبت فيه فصولاً في مجلة الأزهر وفي الرسالة وغيرهما، فكانت تعترضني مشكلة هي أن كل ذي مذهب يفسر القرآن وفق مذهبه؛ فالذي يقول إن الله كرسياً يأخذ اللفظ على ظاهره، وقد يصور الكرسي بما في ذهنه من صور الكراسي التي يراها في الدور وعند التجار... والذي يقول إن المراد بالكرسي مُلك الله (كما تقول إن كرسي المملكة العثمانية كان يمتد من فارس إلى فاس، يأخذه على المجاز)[1].

والمجاز وإن كان متأخراً في الوضع، لكنه هو الأصل في الاستعمال. ولو نسخ ناسخٌ المجازَ من كلام الناس وأخذه كله على الحقيقة لكان مجنوناً. وكذلك القول في العرش وفي اليد والوجه وأمثالها من متشابهات القرآن.

وكنت أحس أن سبب الاختلاف في المذاهب يرجع إلى الاختلاف على معاني الألفاظ، ولكني لم أكن أستطيع أن أعبّر عن هذا الحس بألفاظ صريحة، ولا أقدر أن أصور لهذا الذي في ذهني صورة واضحة. فلما أخذت هذه الرسالة للأخ الداعية المصلح الأستاذ المودودي، وجدت التعبير الصحيح والصورة الواضحة، وقلت: هذا الذي كنا نحوم حوله ولا نعرف المدخل إليه.

هو الاقتصار في التوحيد على الرجوع إلى آيات القرآن، والاتفاق على تحديد معاني ألفاظها، وفهمُها كما يفهمها بسليقته العربي الأول؛ على هذه الأركان الثلاثة ينبغي أن نقيم علم التوحيد في المدارس.

(١) وكلا القولين خلاف ما كان عليه سلف هذه الأمة، والسلف آمنوا بها بقلوبهم وأمسكوا عن الخوض فيها بألسنتهم.

لقد كنا حائرين لا ندري أي طريق نسلك، فخط لنا المودودي بهذه الرسالة الطريقَ الصحيح ومشى فيه الخطوات الأولى. فهي ليست نهاية، ما هي إلا بداية، ولكنها بداية الطريق الموصل.

والمؤلفون والباحثون على أربع مراتب: مرتبة مَن يجمع الصحيح والسقيم ويحشد كل ما يراه في الموضوع، كالسيوطي. ومرتبة من يجمع النصوص ويحقّق إسنادها ويرويها مجتمعة، كالشوكاني. ومرتبة فوقها هي مرتبة من يرتبها ويشرحها ويستنبط منها ويعلق عليها، ويصوغ من ذلك بحثاً كاملاً، كابن تيمية.

ومرتبة فوق الثلاثة هي مرتبة من يحيط بذهنه بها ويفهمها ويهضمها (كما يقال اليوم) حتى تكون كأنها فكرته هو، ثم يعرضها عرض الرجل فكرتَه، يملكها ويتصرف فيها ويديرها على أوجه البيان ويمرُّها في شتى الأساليب، كالغزالي.

والمودودي -في مقدمة هذه الرسالة وفيما قرأته له من رسائل- يكاد يرتفع أحياناً عن المرتبة الثالثة، وربما بلغ الرابعة. وهو يتميز بعلم واسع، وعقيدة صحيحة، وذهن نفّاذ، ومقدرة على الترتيب والعرض[1]، لكنه لا يخلو في هذا الباب من مواضع للنقد.

من ذلك رأيه في إعادة الضمير لله في قول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، مع أن موضوع الكلام عزيز مصر وهو

(١) وله اجتهادات يخالف فيها أئمة المذاهب الفقهية، والحق ما قالوه هم فيها لا ما قاله هو.

الماثل في الذهن، والضمير إليه والحديث عنه، ولا عبرة بالقرب اللفظي لاسم الله في قوله ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ لأن هذه الجملة طارئة قد اعترضت جزأَي الكلام؛ فكأن يوسف قد ترك بها محدثه وأقبل فيها على غيره (على الله) ثم عاد إلى محدثه وحديثه.

ولو كان الضمير يرجع إلى الله لما ذكر الضمير أبداً ولمرّ في الكلام من غير حاجة إلى ابتداء وتأكيد في قوله «إنه»، أو لأعاد الإظهار وكرر لفظ الجلالة، وهذه سنة العرب في كلامها، وهو شيء يُدرَك بالملكة اللغوية وإدمان النظر في كلام البُلَغاء، ولا يمكن التدليل عليه.

ثم إنه لا مجال لما فهمه المودودي بعد ذكره «المثوى»، وهو إنما ثوى في دار عزيز مصر، فكيف يخونه في أهله وقد أحسن مثواه؟ ولا خوف من صرف معنى الرب للإله، والمودودي نفسه يسوقه شاهداً على أن الرب هنا بمعنى المربّي والمتكفل بالحاجات، وهو ينطبق على عزيز مصر.

ومما توقفت فيه في رسالة المودودي هذه أني لم أدرك -في كثير من الحالات- وجوه الاختلاف بين الآيات في معاني الرب أو العبادة أو الدين، مع أنه يقرر الاختلاف ويسوق كل آية شاهداً لمعنى من هذه المعاني، يكاد إذ يقصرها عليه يقسرها قسراً لا قصراً.

ولم أدرك كذلك قوة دليله في محاولة إثبات أن فرعون وقومه كانوا يعرفون الله، وإنما كان كفرهم أنهم يُشركون معه غيره على نحو ما كان عليه العرب. وكنت أتمنى لو أنه -إذ ذكر

الآيات- عرض لها بشيء من الشرح والتفسير، ولكن عذره قصد الاختصار.

وهذه بداية على كل حال، للأستاذ حفظه الله فضل ابتدائها وثوابه، والرجاء أن يمشي علماؤنا على هذا الطريق الذي سنّه وإكمال العمل الذي بدأ به.

وهذه الرسالة، إذا أعيد النظر في ترجمتها وهُذِّبت ووُسِّعت، تصلح أن تكون كتاب التوحيد «الرسمي» في مدارس المسلمين كلها، وهي (على كل حال) من أحسن ما بين أيدي الناس من رسائل في التوحيد.

ولقد كنت أحب أن أحدث عن المودودي، شخصه، وعن الجامعة الإسلامية، مكانها بين الدعوات التي عرفتها في الهند وباكستان وأثرها الذي لمسته هناك، ولكن طال البحث واتجه بي هذا الاتجاه، فجعلت الكلام كله في التوحيد وفي الرسالة نفسها.

❊ ❊ ❊

صفحة فارغة

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

حلول قديمة لمشكلات جديدة

نشرت سنة ١٩٥٦

كنت أحادث زميلاً لي من علماء القضاة في مسألة حبس المدين، فقلت له: أنا لست قاضياً جزائياً ولا اطّلاع لي على مباحث علماء الغرب في هذا الموضوع، ولكني أعرف مباحث فقهائنا فيه.

فتبسم كالشاكّ أو المستهزئ وقال: ولكن هذه مشاكل جديدة، فما دخل الفقه فيها؟

قلت له: وماذا تقول إذا كان لهذه المشكلات الجديدة حلول قديمة، وإذا كانت هذه المسألة بالذات قد بُحث فيها من ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن؟ من أيام الصحابة؟

وكان أمامي كتاب «الطرق الحكميّة» لابن قيم الجوزية، فقرأت عليه فصلاً كاملاً في هذا الموضوع نقل فيه رأي علي بن أبي طالب في عدم الحبس، ثم ذكر رأي الحنفية في تقسيم الدّين إلى عِوَض مالي (كالقرض وثمن المبيع)، وإلى ما لزمه بالتزامه (كالكفالة والمهر)، وما لزمه بغير التزامه وليس في مقابله عوض (كبدل المتلف ونفقة الأقارب). ورأيهم في تقسيم أحوال المدين: إلى معسر ثابت إعسا ره فلا يُحبَس، وإلى موسر ثابت يساره ومماطلته فيحبس... وما أفاض فيه مِن عرض آراء الفقهاء، ثم رجّحَ كونَه لا يُحبس، وعلّلَ لذلك بأن الحبس من جنس الضرب بالسياط والعصي، وذلك عقوبة لا تسوغ إلا عند تحقق السبب الموجب ولا تسوغ بالشبهة، بل إن سقوطها بالشبهة أقرب إلى قواعد الشريعة من ثبوتها بالشبهة.

ودهش الزميل وظن أني أقرأ من عندي، فأخذ الكتاب فنظر فيه متعجباً.

قلت: لا تعجب، فما من كتاب من كتب الفقه يخلو من بحث في هذه المسألة، وفي أمثالها من المسائل التي نظنها جديدة، مع أن فقهاءنا أوسعوها بحثاً.

وأفضتُ معه في الحديث فتبين لي أنه لا يعرف من الفقه إلا هذه الصورة المشوهة، التي رسمها في نفسه ونفوس أمثاله من القضاة والمحامين المشايخُ المتأخرون الذين حسبوا الفقه ترداد ما في الحاشية والهندية والحامدية، يَقرؤونها ويُقرئونها تلاميذَهم، لا يفرّقون بين الحكم الثابت بدليل شرعي من كتاب أو سنة والحكم المبني على عرف كان ثم زال، ولا يعلمون أن أكثر الفروع الفقهية في باب المعاملات مبنيّة على أَقْيِسة[1] وأعراف وقليل فيها النصوص، على عكس العبادات فإن أكثرها مبني على نصوص الكتاب والسنة، وأن ما لا يعتمد على نص يتبدل الحكمُ

(١) من حماقات الظاهرية أن إماماً من أئمتهم هو ابن حزم الأندلسي ألّفَ كتاباً سمّاه «إبطال القياس»، ولو سمّاه «إبطال الشريعة وإلغاء العقل» لكان أصدقَ في الدلالة عليه.

فيه بتبدل الأزمان، وأن هذا هو ما يمتاز به الشرع الإسلامي، وأنه بهذا صار صالحاً لكل زمان ومكان.

إنهم لا يعرفون هذا لأن أكثرهم (لا كلهم بالطبع) رُواة أحكام وليسوا فقهاء. وكلمة «الفقيه» في العرف العلمي القديم مرادفة لكلمة المجتهد والمفتي؛ فلا يسمى فقيهاً ولا مفتياً إلا من كان مجتهداً. وقد نصّ الحنفية على أنه لا يجوز لمفتٍ أن يفتي، ولا لقاضٍ أن يقضي، إلا إن كان واقفاً على أعراف الناس في معاملاتهم.

هؤلاء المشايخ هم الذين أبعدوا الناس عن الفقه. ولست أنا الذي يقول هذا، بل يقوله ابن القيم[1] في هذا الكتاب من أكثر من سبعة قرون. وقرأت على الزميل قوله عند الكلام على السياسة الشرعية:

"وهذا موضع مَزلّةِ أقدامٍ ومَضلّةِ أفهامٍ، وهو مقام ضنك ومعترك صعب، فرّط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيقوا الحقوق، جرؤوا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، جعلوها محتاجة إلى غيرها وسدّوا على نفوسهم

(١) وليس معنى هذا أن كل ما يقوله ابن القيم مسلَّم له، فإن له في العقائد لا سيما في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» ما لا يُقبَل بحال من الأحوال، كما أن له في «أعلام الموقعين» زلات وزلات، وله في كتاب «الطرق الحكميّة» (هذا) كلمة سارت في الناس سير الأمثال، هي قوله "حيثما كانت المصلحة فثَمّ شرع الله"، واتخذها الجَهَلة سنداً لردّ ما ثبت من الأحكام بالكتاب والسنة والقياس الصحيح، مع أن المصلحة إنما تراعى إذا لم يكن في المسألة دليل شرعي.

طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له، وعطلوها -على علمهم وعلم غيرهم قطعاً أنها حق مطابق للواقع- ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع. ولعمر الله إنها لم تنافِ ما جاء به الرسول وإن نافت ما فهموه هم من شريعته باجتهادهم. والذي أوجب لهم ذلك تقصيرٌ في معرفة الشريعة وتقصير في معرفة الواقع، وتقصير في تنزيل أحدهما على الآخر؛ فلما رأى ولاة الأمور ذلك، وأن الناس لا يستقيم لهم أمر إلا بشيء غير ما فهمه هؤلاء من الشريعة، أحدثوا من أوضاع سياستهم (أقول: ومن جديد قوانينهم) شراً طويلاً وفساداً عريضاً، فتفاقم الأمر وعزّ على العالمين بحقائق الشرع تخليص النفوس من ذلك. وأفرطت طائفة أخرى قابلت هذه الطائفة، فسوّغت من ذلك ما ينافي حكم الله ورسوله. وكلا الطائفتين أُتيت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله رسوله، إلخ".

ولو أن إخواننا القضاة والمحامين الذين تتسع أوقاتهم للمطالعة والبحث نظروا في كتب الفقه المعلَّلة المدلَّلة، لا الكتب المتأخرة القاصرة على سد الأحكام، كبدائع الصنائع (الكتاب العظيم) والمبسوط وشروح الهداية والزيلعي على الكنز وأمثالها من كتب الحنفية، والمجموع عند الشافعية، والرهوني والزرقاني عند المالكية، والمغني عند الحنابلة، والمحلى لابن حزم وأعلام الموقعين لابن القيم[1] وأمثالها لرأوا فيها حلولاً لجميع المشكلات القائمة اليوم، من مدنية وجزائية ودولية واقتصادية. وأنا لا أبالغ ولا أتزيّد، وهذه الكتب أمامكم، فانظروا في فهارسها ثم اقرؤوا

(١) على ما فيهما من مشاغبات على المذاهب الأربعة ولا سيما المذهب الحنفي.

منها صفحات فقط تروا صدق ما أقول، وإن كان الناس قد انصرفوا عن هذه الكتب إلى كتب المتأخرين، مع أن كتب المتأخرين بمثابة نصوص القانون، وهذه هي الشروح والمصادر.

قال الزميل: أفتعيرني هذا الكتاب ليالي؟

قلت: نعم، وإن كان ما يعرض له فيه من مباحث موجوداً في كتب كثيرة.

وأخذه وعاد بعد أيام وقد انقلبت الحال، فصار هو المدافع عن الفقه الإسلامي. وإذا هو قد وضع خلال أوراق الكتاب علامات، فجعل يفتح صفحة بعد صفحة ويطلعني على ما وجد في الكتاب.

قال: لقد وجدت فيه حقاً ما أدهشني، فيه -كما قلتَ- حلول قديمة لهذه المشكلات الجديدة.

منها الأخذ بالقرائن، وشهادة الواحد، والخبرة الفنية، والفحص الطبي... فكيف ثار مشايخ القضاة الشرعيين إذن على قانون البينات، ومنعوا المحاكم الشرعية من الأخذ بالقرائن وشهادة الواحد بالمرسوم رقم (٨٨)، مع أن القرائن -كما يقول ابن القيم- ثابتة بنص الكتاب في قصة يوسف لمّا اختلف هو وامرأة العزيز، هو يدّعي أنها هي التي أغرته وهو الذي امتنع وهرب، وهي تدّعي العكس، فكان الحكم لقرينة شق القميص: إذا كان قميصه قد شُقَّ من الأمام فقد صدقت هي، وإن كان قد شُقَّ من الخلف فهي الكاذبة. وثابتٌ في السنة بحكم سليمان بين المرأتين اللتين تدّعي كلٌّ منهما أن الولد ولدها، مع أنها دعوى نسب.

وفي الكتاب فصول طِوال في القرائن القضائية وأقسامها، وما يصلح منها حجة وما لا يصلح. وفيه فصل طويل في جواز الحكم بشهادة الرجل الواحد (إذا عُرف صدقه) في غير الحدود، ولم يوجب الله على الحكّام أن لا يحكموا إلا بشاهدين.

وقد حكم الرسول ﷺ بالشاهد واليمين، وروى ذلك مسلم في صحيحه ورواه غيره. وحكم بالشاهد الواحد فقط، وساق كثيراً من النصوص الثابتة المؤيدة لذلك. وتكلم في فصل آخر في جواز الحكم في بعض الحالات بشهادة المرأتين وحدهما، بل المرأة الواحدة فقط[١].

وتكلم على التفريق بين الشهود واستجوابهم (ص ٦١[٢])، واستجواب المدّعي (ص ٣٣)، وتكلم على الإقرار في الجرائم وأنه ليس سيدَ البينات دائماً وليس حجة قطعية بل قد يُرَدّ للقرينة (ص ٢٧، ص ٥٦[٣]).

وبحث بحثاً طويلاً في إثبات النسب بقول القافة، أي الخبراء الذين يعتمدون على التشابه الجسدي بين الأب والابن؛ حكم بذلك رسول الله ﷺ وعمر والصحابة (ص ١٠، ٢١٦، ٢٣٢) ولو كان القائف واحداً، وعلّل لذلك بأنه يُكتفى عند الحكم بخبرة الطبيب

(١) وفي المذهب الحنفي مواطن كثيرة يحكم فيها بشهادة المرأة الواحدة ولا مانع من القياس عليها وتوسيعها.

(٢) من طبعة محمد حامد الفقي في مصر سنة ١٩٥٣.

(٣) وفي سنن النسائي فصل في «الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه إذا تبين للحاكم من الحق غير ما اعترف به».



والبيطار الواحد فكذلك القائف[1]. والرسول ﷺ اعتمد في تحديد أعمار أسرى قريظة على الكشف الطبي (ص ٩). وفي الكتاب فصل في البتّ في دعوى الزوجة أن زوجها عنّين، لا يختلف الأسلوب فيه عمّا يُتبع اليوم عند إحالة المدعى عليه على الطبيب الشرعي (ص ٤٨)، وفصل في تطبيق الخط والتوقيع والشهادة على الخط والتوقيع (ص ٢٠٨)، وفي الحكم بإخبار الخبير الواحد (ص ١٢٨، ٢٣٢)، وفي رد اليمين (ص ٨٦، ١٢١).

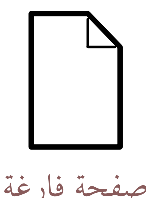
وفي الكتاب (وهو مؤلَّف من سبعمئة سنة) عشرات من المسائل التي كنا نظن (يقول الزميل) بأنها جديدة لم يتعرض لها المتقدمون. وإن من العار علينا أن ندع هذه المائدة الحافلة لا نلتفت إليها ونذهب فنستجدي من فتات موائد الناس.

* * *

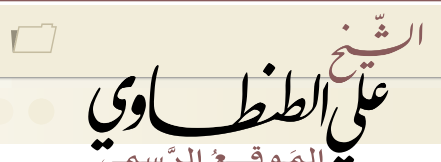
هذه قصة قصصتها، ما أردت منها البحث العلمي ولا التتبع والاستقصاء، بل أردت تنبيه إخواننا القضاة والمحامين إلى الكنز الذي يملكونه؛ لعل هذه الكلمة تدفع واحداً منهم إلى النظر اليوم في هذا الكتاب وإلى النظر غداً في غيره من مطولات كتب الفقه، ليروا أن فقهنا لم يكن يوماً جامداً ضيقاً ولا مُجدباً، وأنه ليس كما يتصورون أو يصوره المشايخ المتأخرون من حيث لا يشعرون.

* * *

(١) والقيافة كانت معروفة عند العرب، ولها ناس انقطعوا إليها وعُرفوا بها هم القافة.


صفحة فارغة

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)



فكروا: لماذا؟

نشرت سنة ١٩٧٢، وترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية والأردية.

أخذت القلم وقعدت لأكتب المقالة التي شرّفني الأستاذ رضوان حين كلفني كتابتها للجزء الممتاز من مجلة «الوعي الإسلامي»، فورد عليّ واردٌ صرف ذهني عنها وجعلني أسائل نفسي: لماذا أكتب؟ وما الفائدة من الكتابة؟ هل نفعتنا الأحاديث والخطب والمقالات؟

لقد خطبت أول خطبة عامة سنة ١٣٤٥ هـ (من نحو نصف قرن) وما زلت أخطب، وكتبت من تلك الأيام وما زلت أكتب، وحدّثت في الإذاعة من يوم أنشئت محطة الشرق الأدنى (في يافا) قبل الحرب العامة الثانية وما زلت أحدّث.

ويخطب ويكتب ويحدّث عشرات وعشرات ممّن هم أصفى مني جناناً وأكثر إيماناً وأفصح لساناً وأجلى بياناً وأقدم زماناً؛ خطبوا على كل منبر، وكتبوا في كل جريدة ومجلة، وحدّثوا من كل إذاعة... فماذا كانت ثمرة هذا الجهد كله؟ هل نحن اليوم فى مجتمعاتنا: في بيوتنا، في مدارسنا، في محاكمنا، في أسواقنا، في أزياء نسائنا وسلوك شبابنا... هل نحن اليوم أقرب إلى الإسلام أم قبل خمسين سنة؟

مَن كان يقدر أن يتصور يومئذ أننا سنصير إلى ما صرنا إليه اليوم؟

وما لي أفرض الفروض وأقدّر الوقائع، وعندي رسالة لي مطبوعة سنة ١٣٤٨ هـ عنوانها «دمشق بعد تسعين عاماً» صوّرت فيها بخيال شبابي الجامح أغرب ما وصل إليه خيالي، فإذا الذي حدث فعلاً في خمس وأربعين سنة يسبق ما تخيلت وقوعه في تسعين سنة!

نعم؛ والرسالة مطبوعة موجودة[١]، وحالنا قائم ملموس.

---

(١) بل هي مفقودة غير موجودة، وهي الرسالة الثالثة من رسائل «في سبيل الإصلاح» التي أصدرها جدّي في أول شبابه، وقد تحدث عنها في ذكرياته (في الحلقة ٣٨ المنشورة في الجزء الثاني) فقال: "كانت رسائلَ أربعاً لم أجد عندي إلا الأولى منها. حاولت أن أجد الرسائل الثلاث الأخرى فلم أستطع، وسألت إخواني، أعني من بقي منهم فإن أكثرهم مضى إلى لقاء ربه، وسألت من قدّرت أن أجدها عنده فما وجدت لها أثراً. فاعجب معي من تحول الأحوال: رسائل أثارت يوماً بلداً، ثم جاء يوم يفتش مؤلفها عن نسخة منها فلا يجدها"!

قلت: ثم وجدت ـ بعد وفاة جدي رحمه الله ـ نسخة من هذه الرسالة بين أوراقه، وهي في سبع وعشرين صفحة من الحجم الصغير. في أولها يتخيل حكاية تنتهي بموته، ثم يقول: "مرت عليّ مدةٌ الله أعلم بمداها، ثم صحوت فرأيت البلاد تغيرت ومَن عليها، فلم يعد هناك مقبرة ولا بساتين بل شارع ضخم على جانبيه القصور الفخمة وأهله=

بل لو تخيل رجل في الكويت قبل ربع قرن حالَ الكويت اليوم لحسبوه قد جن وفقد العقل.

فلماذا انتهت جهودنا إلى الهزيمة والفشل؟ فكروا: لماذا؟

= كلهم يلبسون القبعات واللباس الأوربي، فعرفت في الحال أنني في باريز! اقتربت من أحد الناس فقلت له بالفرنسية: بونجور. فصعّد فيّ نظره وصوّب، وتأملني باسماً ثم سار ولم يردّ عليّ شيئاً. فرجعت إلى نفسي فوجدتني غريباً في زيي، وكيف لا يكون غريباً من يلبس الطربوش ومن لم يقصّ شاربيه؟ فأسرعت إلى الحلاق فحلقت، واشتريت قبعة وخرجت أنظر متعجباً؛ لا أجرؤ على السؤال عن اسم المدينة وعن تاريخ اليوم لما لاقيت من الرجل الأول".

ثم يلتقي بشيخ يعرفه، وإذا هو واحد من أصدقائه من أيام الشباب، ويتعجب من شيخوخته وشيبته، ثم يعرّفه بنفسه فيعجب ويقول: "كيف عدت إلينا وقد حسبناك متّ منذ تسعين سنة؟!"، وإذا هو في دمشق في عام ٢٠١٩ ميلادية، ويهتف بالشيخ: "دمشق؟ ماذا تقول؟! أرجوك أن لا تهزأ بي".

ثم يمضي مع رفيقه الشيخ إلى مقهى فيفاجَأ بفتاة مليحة تقوم على خدمته، ثم تشتدّ مفاجأته حين يدرك أنها ليست بفتاة بل هي شاب متخنّث ذو شعر طويل! ويكاد لا يفقه من لغة الناس شيئاً، ثم يعلم أنها خليط من اللغة العامية واللغات الأجنبية، "أما الفصحى فلم يعد يعرفها إلا المنقطعون إلى دراستها، وقليل ما هم".

وفي آخر الرسالة: "ثم صدمتنا سيارة فصحت: واراْساه! ففُتح عليّ الباب وأفقت، فإذا أنا في الفراش، وإذا هي دمشق لا باريز، وسنة ١٩٢٩ لا سنة ٢٠١٩؛ لا شوارع ولا بنايات، ولا تماثيل ولا حانات، ولا تهتّك ولا إلحاد... وإذا كل ما رأيت رؤيا منام وأضغاث أحلام". (مجاهد).

لو استقريتم أفراد المسلمين لوجدتم الكثرة الكاثرة لا تزال تؤمن بالله واليوم الآخر، أو تريد أن تُعَدّ من المؤمنين، وتكره أن توصف بالإلحاد أو بالفساد. ولوجدتم فيهم علماء كثيرين، وخطباء وواعظين، ومحاضرين ومدرسين، كلهم يدعو إلى الله أو يحب أن يُعَدّ مع الدعاة إليه.

ووجدتم المساجد لا تزال عامرة بالمصلين، وخطب الجمعة تعلن بالمكبّرات والإذاعات، والمدارس لا تزال تدرَّس فيها علوم الدين (وإن مُسِخت مناهجها ونُقِصت ساعاتها)، والإذاعات لا تزال تبدأ برامجها بالقرآن وتختمها بالقرآن (وإن وضعت بعد القرآن في الافتتاح عزفاً على العود، وقبل القرآن في الختام مسرحية تكشف فيها العورات وتظهر فيها المحرمات)!

فكيف استطاع الدعاة من أعداء الإسلام أن ينجحوا -مع هذا- من حيث فشلنا نحن دعاة الإسلام؟ ألا ترون أن هذه المسألة تستحق أن تُعرض في العدد الممتاز، وأن نجد لها الجواب؟

* * *

أكان ذلك لأن الذي ندعو إليه باطل؟

هذا محال؛ لأن الإسلام صيغ من جوهر الحق لا من أعراض الأوهام.

أم كان لأن الإسلام بَليت حقائقه فلم تعد تقوى على مواجهة الخطوب في عصر تفجير الذرة واقتحام الفضاء؟

لا؛ فالإسلام كان جديداً لمّا جاء، وبقي جديداً، لا يَبلى

ولا يَقْدُم إلا في الأذهان التي تعجز أو تكسل أو تزهد في كشف أسرار القرآن التي لا تنفد على مر الزمان، ولا تزال أبداً يفيض نبعُها لمن يعرف طريق الاستقاء منها، ولا يزال الذهن البشري يكشف في كل عصر من هذه الأسرار ما يكشفه السابقون.

لقد أظهر تقدم العلوم في أيامنا معاني آيات كانت في خفاء، وكان المفسرون يحاولون إدراكها فيحومون ولا يَصِلون. ولا تزال في القرآن آيات فيها إشارات وتلميحات لأسرار سنن الله في الوجود وقوانينه في الطبيعة، لم يصعد العلم بعد إلى الذروة التي يكشفها منها. وهذا من الأدلة على أن القرآن كتاب لم يخرج من فكر بشري، لأنه يستحيل على إنسان -مهما كان عبقرياً- أن يشير إلى علوم لم يكن في أيامه (ولا بعد أيامه بألف سنة) مَن عرفها أو سمع بها أو قدّر وجودها.

لا، أقولها مرة ثانية: فالإسلام كان صالحاً لعصر محمد وصحبه، وبقي صالحاً في عصر الذرة والصاروخ ومركبات القمر، وسيبقى صالحاً، وسيبقى دستورَ الحق والخير والجمال وطريقَ سعادة الجسم والعقل والروح في كل عصر.

وهذه دعوى ضخمة، ولكن معنا دليلها، وهو دليل أضخم من الدعوى.

فلم يكن هذا الفشل إذن لـ«قصور» في الإسلام، فهل كان لـ«تقصير» منا في الدعوة إلى الإسلام؟ لأننا لم نستطع أن نستخرج من أصول الإسلام (من الكتاب وصحيح السنة) الأقضيةَ والأحكام الملائمة لهذا الزمان، ولأننا (أو لأن أكثر مشايخنا) وقفوا عند كتب الفقه يقرؤونها ويعيدونها، لا يستطيعون الكلام عمّا ليس فيها وما جَدَّ من الأوضاع والمعاملات بعد موت مؤلفيها، فلما لم يجد الحكّامُ عندهم حلاً لمشكلات العصر من شرع الله عمدوا إلى قوانين الأجانب فأخذوها وتركوا دينهم لها، فكان علينا قسط كبير من تبعة هذا الذنب الكبير (كما قال ابن القيم في «الطرق الحكمية»).

* * *

أم لأننا ندعو الناس وندعو الشباب والشابات إلى الدين بغير الأسلوب الذي يصلح لدعوتهم، وأننا نخاطب أهل هذا العصر بلغة العصور المَواضي؛ نفتح الكتاب المؤلَّف من قرون ونقرأ عليهم منه، فلا يسمعون منّا ولا يفهمون عنّا؟

أم لطبيعة الوعظ وأنه ثقيل على النفس، لأن النفوس تهوى الانطلاق والشرع يقيدها، وتميل مع اللذة حيث مالت والشرع يعدّلها؟

هذا واقع، ولكن العقل أيضاً (كاسمه) قيد، والحكمة قيد (واسمها مشتق من «الحَكَمة» وهي القيد)، والقوانين قيد، والحضارة قيد، والذي يريد أن يتفلت من كل قيد يصير مجنوناً؛ فالمجنون هو الحر الحرية المطلقة، يعمل كل ما يشاء، يمشي عارياً أو يعرّي امرأته ونساء المسلمين، يركب على كتفَي سائق السيارة ويدلّي ساقيه، يمنع لصوص الأموال ويسمح لِلصوص الأعراض، يحارب مَن يأتي ليفسد صحة الناس، أو يزهّدهم بالولاء لوطنهم ويدعوهم للولاء لإسرائيل، ويسالم المبشرين الذين يريدون إخراج أولاد المسلمين من دينهم وإدخالهم في

دين غيره... هذا الذي له الحرية المطلقة التي يفعل بها ما يشاء، وهذا هو المجنون.

* * *

أم لأن فينا من يُجمل في الدعوة ولا يفصّل، فيكون كراكب الطيارة تعلو جداً حتى لا ترى الكويت إلا نقطة سوداء على سِيف البحر، فيصفها فلا يفيد وصفه إياها. ومن يفصّل قبل الإجمال، كمن يُسأل وصفاً عاماً للكويت فيصوّر لك داره فيها، ويذكر كل ما في الدار من أثاث ورياش وأشجار، فلا تفهم من ذلك شيئاً عن وضع الكويت. أو يزيد على ذلك فيدّعي أن داره هي الكويت، ويردّ عليه جاره فيصف دارَ نفسه ويظن أنه وصف الكويت!

نعم، منّا من ينادي بالرجوع إلى الإسلام ويكرر ذلك ويعيده، ولكن لا يبين كيف يكون الرجوع إلى الإسلام؛ كخطباء الجمعة يأمرون بتقوى الله، وهذا حق، ولكن لا يوضّحون للناس كيف يتقون الله، فلا يفيدهم قول الخطيب: "اتقوا الله".

ومنا من يأخذ بعض الفروع فيجعلها هي الدين ويلقّنها الشبانَ الناشئين، يبدؤهم بها قبل تصحيح العقيدة وقبل معرفة الكبائر لاجتنابها والفرائض للقيام بها. ثم نختلف على هذه الفروع ونتجادل ونختصم ونضيع بأسنا بيننا، ومِعْول الإلحاد و(ديناميته) يعمل في أساس بناء الإسلام.

فإذا تصدّعت العمارة ومالت إلى السقوط هل يهتمّ أحدٌ بكسر قفل الباب أو زجاج النافذة؟! إذا كان المريض المصاب بالقلب تحت أيدي الجراحين في غرفة العمليات وهم يعدّون الثواني يخافون أن يعاجله الموت قبل إتمام العملية، هل يهتم أحدٌ بشوكة دخلت تحت ظفره؟!

فما لنا نهتم بالفروع والأغصان، وجذعُ شجرة الإسلام مهدد بالكسر... لا سمح الله، ولن يسمح، لأنه تعهد بحفظ هذا الدين، فالدين محفوظ ولكن الامتحان لنا، فإما أن ننصر الله فينصرنا وإما أن نخذل شرعه فيستبدل بنا قوماً غيرنا. يدخل في الإسلام شعبٌ من الشعوب الحية فيحمل لواءه ويُعلي مناره، ونكون نحن (لا قدّر الله) كفقراء اليهود، لا دنيا ولا دين!

* * *

أم لأن فينا من يعظ الناس ولا يتعظ، ويأمر بالمعروف ولا يأتيه وينهى عن المنكر ويقع فيه، يكذّب بلسان حاله ما جاء بلسان مقاله، يخالف فعلُه قولَه وتناقض سيرتُه وعظَه، فينفّر ضعافَ القلوب من الدين ويكون حجة لهم على الصادقين من الداعين؟

أم لأن منا من آثر دنياه على آخرته ورضا الحكام على رضا الله، فوقف على أبوابهم ومشى في ركابهم، فلما رأى ذلك العامةُ ظنوا بأن جميع الداعين مثل هؤلاء المنحرفين؟ مع أن الله لا يخلي هذه الأمة من علماء يريدون وجهه وحده، يصدعون بالحق لا يقولون إلا ما يُرضي الله، فإذا عمّت الفتنة وعلت الضجة ولم يعد يُسمع صوتُ الحق كان أقصى أمرهم أن يسكتوا ويعتزلوا وينكروا بقلوبهم، لا يسايرون أحداً قط على حساب دينهم[1].

---

(١) هذه هي صفة العلماء الصادقين كما يراها علي الطنطاوي، وهي تكاد=

أم لأن الهجوم علينا كان أقوى من دفاعنا لأننا لم نعدّ للمعركة (معركة الإلحاد والفساد) خططاً محكمة كخطط عدونا؟ بل نحن لم نعرف ماذا يخطط لنا العدو الذي يدخل علينا من كل باب: من مناهج المدرسة، وأزياء الثياب، ووسائل الإعلام، وقوانين الدولة، وما تُخرج المطابع من كتب، وما يشتمل عليه الفن من أشكال وألوان... من كل ذلك يدخل علينا العدو ونحن لا ندري، ولا أظن أن الله سيعذرنا لأننا لم نكن ندري.

فكنا نقعد حتى ينال عدو الإسلام منا منالاً، فنَثِبُ وثباً قبل أن نحدّد سبيلنا، وندخل المعركة قبل أن نجمع جندنا ونسوّي صفوفنا ونؤلف بين قلوبنا، فنُهزم. نُهزم لأن الله جعل لكل شيء سبباً، فمَن أخلَّ باستيفاء أسباب النصر فرّ منه النصر. وصحابة رسول الله -صلى الله عليه ورضي عنهم- كانوا أكرمَ على الله منا، وهم مع ذلك قد هُزموا في أحد لمّا تركوا بعض أسباب النصر التي قدّرها الله له (كما قدّر الأسباب كلها والمسبّبات) فخالف الرماةُ أمر قائدهم وتركوا مواقعهم. أفنطمع أن ينصرنا الله وقد قطعنا أسبابَ النصر كلها، ما اتصل منها بالأرض وما ارتبط بالسماء؟

لقد فقدنا إرثنا من الحماسة والنشاط وتسلّلت إلى عروقنا جراثيم الخمول والكسل، فآثرنا الراحة على العمل. ولبستنا حقيقةٌ يوجعني الاعتراف بها ويشدّ على صدري حتى أحسّ بالاختناق،

= تكون وصفاً أميناً له ومنهجاً لسيرته في حياته المديدة التي أمضاها داعياً إلى الخير ساعياً إلى الإصلاح، إلّم يجهر بكلمة الحق يوماً فلم ينصر الباطل قط، لا رغبةً ولا رهبةً. عليه رحمة الله (مجاهد).

ولكنها تبقى حقيقة. حقيقة أعترفُ بها وذقني -من الخجل- تضرب صدري وبصري -من الحياء- إلى الأرض؛ هي أن أهل الباطل لهم من إيمانهم بباطلهم وحماستهم له ودفاعهم عنه وبذلهم في سبيله المالَ والنفسَ أكثرُ مما لنا (نحن أهلَ الحق) من الإيمان بحقنا والجهاد في سبيله وحمل الأذى في الذود عنه.

إنهم يمشون إلى مجاهل الأرض، يسكنون أكواخاً كأنها قبور ويصبرون على معاشرة أصحابها ليدعوهم إلى ما يؤمنون هم به، ومنهم من يقاتل في سبيل معتقده الأرضي أقوى دول الأرض، التي ألهبت بطياراتها بلدَه بالنار وأشاعت في أقطاره الدمار، وهو ماضٍ لا ينثني... كما كان في فيتنام.

ونحن... نحن المؤمنين بأن الجهاد أصلٌ من أصول ديننا، نحن الذين نؤمن بأن شهيدنا حي في ضيافة ربنا، نحن أبناء مَن مشوا على أرجلهم من المدينة إلى قلب فرنسا من هنا وقلب الهند من هناك، ففتحوها كلها، لا ليأكلوا خيراتها بل ليَهدوا إلى الحق أهلها ويحملوا إليهم من هذا الخير الذي أنزله الله من السماء على غار حراء، نحن... ننتهي إلى هذه النهاية! يحتل اليهود قبلتنا الأولى ومسرى نبينا وتتحدانا امرأة عجوز، ونحن سبعمئة مليون، وامرأة أخرى[1] تمسك بخناق تسعين ألف أسير منا. تسعون ألفاً كآساد الشرى... يا أسفي!

ما أشد السقطة على رفيع القدر عالي المقام!

(١) الأولى غولدا مائير والثانية أنديرا غاندي.

ولكن هذا ديننا. نحن الذين أبعدنا الإسلامَ عن معركتنا فأبعدنا بذلك النصرَ عنا.

إننا ما هُزمنا لنقص العدد، فنحن تسعمئة مليون. ولا لنقص المال، فعند المسلمين من الأموال أكثر مما عند اليهود. ولا لقلة السلاح، فعند المسلمين من السلاح أكثر مما عند اليهود. ولا لقلة العلماء، فعند المسلمين من العلماء (بعلوم الكون) أكثر مما عند اليهود.

ولكن لقلة الدين.

لقد ضعنا بذلك وأضعنا الشباب. على أن في الشباب بحمد الله، في الشباب والشابات في الشام ومصر والأردن والعراق وتونس وغيرها رجعة قوية إلى الإسلام؛ رجعة من الله ليست بعملنا ولا بجهودنا، رجعة -وإن تكن في نطاق ضيق وفي عدد قليل- لكنها قوية راسخة. وإن كان من المؤسف أن عيوبنا انتقلت إليهم: خلافاتنا، تمسكنا بالفروع قبل الأصول، تفرقنا فرقاً... فيا ليت أبنائي وبناتي من الشباب والشابات يعتبرون بنا ويجتنبون نقائصنا ومعايبنا.

إن هذه المعايب جعلتنا -يا أولادي- نصير إلى الضياع.

كلمة حق أقول لكم، والحق يُقال ويُسمع ولو كان مراً: نحن -يا أولادي- لم يبقَ فينا أمل، نحن الشيوخ (أعني بالسن) نحن جيل الضياع، جيل الهزيمة، نحن أضعنا فلسطين ونحن سبعمئة مليون، فصارت الأمانة في أعناقكم أنتم والحمل على عواتقكم، فلا تكونوا مثلنا.

لو أن سبعمئة مليون فأرة (والعفو من قبح المثال) هجمت على لندن أو نيويورك لهرب منها أهل نيويورك أو لندن، فلماذا لا نصنع شيئاً؟ ما السبب؟

لا أناقش ولا أتفلسف بل أقرر حقيقة. لو أن ولدك مرض فأخذته إلى طبيب فأعطاه دواء زاده مرضاً، فأخذته إلى آخر فأعطاه الدواء الذي كان فيه الشفاء. أفبعد هذه التجربة مجال لمقال؟

التجربة أصدق برهان، ونحن قد جربنا يوماً إدخال الإسلام إلى المعركة فاستنقذنا به القدس من أيدي جيوش أوربة كلها بعدما ملكوها أكثر من تسعين سنة، وجربنا إبعاد الإسلام عن المعركة فأضعنا القدس بعدما كانت في أيدينا. ومع ذلك نجد صعوبة بالغة في إفهام المسلمين هذه الحقيقة الظاهرة، أفليس هذا عجيباً؟

قلت في مطلع هذه المقالة[1] إني بدأت أكتب وأخطب من نحو نصف قرن، فما الذي أثمرته هذه الكتابات وهذه الخطب، وما كتب الكتّاب الإسلاميون قبلي (كالسيد رشيد رضا والأمير شكيب أرسلان وخالي محب الدين الخطيب والأساتذة فريد وجدي وعبد العزيز شاويش والغمراوي وغيرهم) ومن جاء معي أو بعدي ممّن لا يحصيهم عدد ولا يجهلهم أحد... فماذا كان حصاد هذا الجهد كله؟

لقد شهدنا في هذه السنين الخمسين عُرى الإسلام تُنقَض

(١) من هنا إلى آخر المقالة ليس من أصل المقالة التي نُشرت في «الوعي الإسلامي»، بل هو مما أضافه جدي إليها حين نُشرت في هذا الكتاب في طبعته عام ١٩٨٥، ولم تكن فيه في طبعاته السابقة (مجاهد).



عروة عروة، وصَرْحَ الإسلام يُهدَم حجراً حجراً، وأهلَ الخير والحق كل يوم إلى ضعف وقلة وأهلَ الشر والباطل كل يوم إلى قوة وكثرة.

وكنت أبحث عن السبب وذكرت ما خطر على بالي من الأسباب، وفي كلها قدّرت النقص فينا والذنب علينا، نحن الدعاة أو الكتّاب والخطباء الإسلاميين. فلِمَ لا يكون النقص فيكم أنتم أيها القراء والذنب عليكم؟ أو فينا وفيكم معاً؟ ونكون مسؤولين جميعاً؟

أضرب لكم مثلاً: اسكتوا كلكم قليلاً، هل تسمعون في الغرفة صوتاً؟ إن في الغرفة التي تبدو ساكنة كلّ الأصوات التي تخرج الآن من إذاعات الأرض كلها، إنكم لا تسمعونها ولكن هاتوا رادّاً (راديو) فإنه يردّ هذه الأصوات عليكم فتسمعونها. فإن كان الرادّ بلا ذخيرة (بطارية) لم يُفدكم وإن وُجد. وكذلك المواعظ؛ المواعظ موجودة ولكنها تحتاج إلى قلوب، والقلوب لا تفيد إن كانت تحتاج إلى بطاريات. فاستحضروا قلوبكم (أو ضعوا لها بطاريات) تستفيدوا من كل ما تقرؤون وما تسمعون، ولو كانت المواعظ من مقصّر مثلي. ههنا السر وهذا هو السبب في الفشل الذي انتهت إليه دعوتنا خلال هذا الأبد الطويل؛ ليس النقص في المواعظ وفي الواعظين وإن لم تبلغ حد الكمال، ولكن النقص في القلوب الواعية.

اللهم يا مَن قلوبُ العباد في يديه: أَحْيِ قلوبَ المسلمين وليّنها وارزقها الانتفاع بالمواعظ، اللهم آمين.

* * *



صفحة فارغة


الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)





إلى القوي الأمين حسن بك الحكيم

في إصلاح الأوقاف

نشرت سنة ١٩٣٧

حديث الأوقاف طويل، وقد طالما أبدينا فيه وأعدنا، ولكن الذين كنا نخاطبهم لم يكن لهم -على الغالب- عقول يفهمون بها ولا ألسنة يجيبون بها ولا أيدٍ يحرّكون بها ساكناً، فأيِسْنا وأعرضنا عن المقال.

ولم أكن لأعود إليه اليوم لولا أن وليّ أمر الأوقاف رجل كبير فيه كل الصفات التي نطلبها في الموظف الكبير: الأمانة والاستقامة والجرأة والعقل، هو سعادة الأستاذ حسن بك الحكيم. وقد تشرفت بمعرفته في بغداد معرفة عميقة، وكنت أعرفه من قبل عظيماً فازددت له إعظاماً. وأنا أرجو من الله أن لا تبدّله الوظيفة كما بدلت أناسِيَّ كثيراً، بل أنا أثق أنها لن تبدله لأنه أكبر منها، ولأنه فتح فيها باباً وسن فيها سنة حسنة، سيكون له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ هي أنه نشر في الصحف يطلب ممّن له رأي في إصلاح الأوقاف أو انتقاد أن يدلي به، وهذا هو شأن الرجل المستقيم الشريف، أما الذي يخاف النقد ويخشاه فليس مستقيماً ولا شريفاً. ومدير أوقاف دمشق الأستاذ اليافي رجل ما علمنا عنه إلا كل خير، وقد اجتمعنا به اجتماعاً قصيراً فرأيناه ديّناً صالحاً، ومَن كان له دين فإن له أمانة وإن له لاستقامة.

فالوقت -إذن- خير وقت لإصلاح الأوقاف، فإذا لم تصلح الآن، وفي عهد حكومة نقرأ دائماً في الصحف أنها قوية مستقلة تريد الإصلاح ونقرأ أنها هي الحكومة الوطنية الخالصة، فلن تُصلح أبداً.

* * *

الكلام في إصلاح الأوقاف له جهتان: الأولى إصلاح الوضع الأصلي للأوقاف، والثانية إصلاح الأوضاع الحاضرة. أما الأولى فهي الأهم وهي الأكبر، وهي أن تستقل إدارة الأوقاف عن الإدارة العامة (أي عن الحكومة)، وأن تكون مؤسسة إسلامية خاصة (كما هي الحال في أوقاف الطوائف الأخرى) لا دخل للحكومة فيها ولا حق لها بالتصرف بقرش واحد من أموالها. حتى ما كانت تتصرف به الحكومة العثمانية لا يحقّ للحكومة الحاضرة التصرف به؛ لأن هذه الأوقاف إسلامية والحكومة العثمانية (كالمملكة المصرية اليوم) دينها الرسمي الإسلام بنص الدستور، وحكومتنا ليس لها دين رسمي ينص عليه الدستور. والخزينة العامة خزينة الدولة السورية، وليست كبيت مال المسلمين.

فيجب إذن وجوباً لا هوادة فيه ولا تسامح أن تسلَّم أوقاف المسلمين إلى المسلمين، ويعطى الحق إلى صاحبه، ولا يكون

للحكومة إلا حق الإشراف العام على تطبيق الأنظمة والقوانين التي تضعها هيئة الأوقاف ذاتها، كإشرافها على النوادي والجمعيات والشركات العامة. أوَليس من العجب أن يكون لمدرسة واحدة من هذه المدارس الإسلامية وارد سنوي قدره مئة ألف ليرة ذهبية (هي التكية السليمانية، وموردها السنوي من أوقافها أكثر من مئة ألف ليرة ذهبية بحسب الوقفية المصدَّقة من محكمة التمييز العليا)، ثم لا يكون للمسلمين في دمشق مدرسة إسلامية واحدة، ويحتاجون أن يراجعوا ويطلبوا من الحكومة إدخال الدروس الدينية في برنامج الفحوص العامة؟ ويلحّوا في ذلك وينعقد على ذلك الإجماع، ووزارة المعارف (الحاضرة والغابرة) لا تعنى بإرادة الأمة ولا تحفل بها؟ أما كانوا يستطيعون -لو لم تؤخَذ منهم حقوقهم- أن يعملوا من واردات التكية فقط جامعة كبيرة كالأزهر؟

هذه هي المسألة (كما يقول شكسبير) وكل شيء سواها عدم، وكل إصلاح دونها تعلّة ساعة، لا تُسمن ولا تغني من جوع. على أني أحب أن أبيّن أن هذه المسألة ليست سهلة ولا ميسورة، وأن من الظلم البيّن أن نطلبها من مدير الأوقاف العام وأن نعتب عليه إذا لم يُجِب إليها ويحققها، ومن الظلم أن تكلَّف الحكومة إنجازها في يوم أو يومين. لا نطلب ذلك ولا نحب الحرج، ولكن نحب أن يبدأ بإنجازها منذ الآن وينتظر الوقت الكافي لهذا الإنجاز، سواء أكان قريباً أم بعيداً، ونحب أن يفهمها الناس كلهم ويطالبوا بها ويلقنوها أبناءهم.

* * *

أما إصلاح الأوضاع الحاضرة فهو بيد سعادة مدير الأوقاف العام، وهذه الأوضاع فاسدة كلها، والأوقاف اليوم مجموعةُ مَخازٍ وفضائح؛ نهب مقسَّم، وأموال مسروقة، ورواتب بلا عمل، وعمل بلا عامل، وما شئت من كل عجيبة وغريبة، في حين أن الوظائف الدينية لا تختلف في شيء عن الوظائف المدنية. فهل سمعت أن رجلاً واحداً يكون معلّماً في مدرسة تجهيز دمشق وفي تجهيز حلب بآن واحد؟ هل يكون الرجل قاضياً في محكمة الجنايات ومدّعياً عاماً وتاجراً؟ فكيف -إذن- يكون الرجل موظفاً في الأوقاف وإماماً في ثلاثة مساجد وخطيباً في مسجدين وقارئاً في السنانية وموظفاً في التكية السليمانية؟! وهل سمعت أن أستاذاً في جامعة يموت فيعيَّن بدلاً منه ابنه لأنه أحق بمنصب أبيه، وينصب له وكيل حتى إذا كبر حضرته استلم الوظيفة؟ فكيف إذن يموت خطيب الأموي أو إمام مسجد من المساجد أو مدرّس القبة، فيعيَّن ابنه ولو كان جاهلاً سافلاً خاملاً؟ وهل سمعت بأن قاضياً في محكمة أو مدرّساً في مدرسة يُدعى إلى وليمة أو يشغله شاغل فيبعث برجل من أصحابه لينوب عنه أو يقوم مقامه؟ وما هو قولك في هذا الرجل لو أنابه عنه الشهر والشهرين والدهر كله؟ أما يصنع ذلك أكثر الموظفين في الوظائف الدينية، حتى إن الوكيل قد يوكّل وكيلاً؟

والطامة الكبرى هؤلاء الذين يأخذون الرواتب بلا عمل. فما هي هذه الرواتب؟ صدقة؟ سرقة؟ غنيمة؟ رأيتُ في قائمة موظفي التكية السليمانية موظفاً يأخذ راتباً على وظيفة موهومة مضحكة هي أنه يصب على الناس ماء الزهر، أي يعطّرهم عقب الصلاة، فذهبت أصلي في التكية فلم أجد الموظف ولم أجد

الوظيفة. وآخَرُ وظيفته مؤمّن الدعاء، أي إنه يقول «آمين» عندما يدعو الداعي. ورأيت رجلاً وظيفته إمامة مسجد مهجور ومتروك من عشر سنين... وهؤلاء العلماء أصحاب التصنيف العالي، علامَ يأخذون رواتبهم؟ بأي صفة؟ من يستطيع أن يجيبني؟

أنا أفهم أن من وظائف الحكومة توفير أسباب الراحة للعلماء المنتِجين والأدباء العاملين ولرجال الفكر والفن على اختلاف طبقاتهم، فإذا كانت هذه الرواتب من هذا القبيل فاجعلوها عامة لكل من يؤلّف تأليفاً قيّماً ويواظب على هذا العمل، أو من يخترع اختراعاً ينفع المسلمين، أو من يشتغل برقيّ الفن الإسلامي... وألّفوا لجنة من أهل الخبرة لتقدير هؤلاء العلماء الرجال وتعيينهم، وفي مقدمة هؤلاء العلماءُ الذين يشتغلون بالتأليف القيّم أو التدريس الدائم، كفضيلة الشيخ أبي الخير الميداني والشيخ حسن مرزوق والشيخ بهجة البيطار والشيخ عبد القادر الإسكندراني والشيخ صالح الحمصي، وأمثال هؤلاء، فإنما قصدت التمثيل ولم أقصد الاستقراء. أما هؤلاء الذين لا يعلمون شيئاً ولا يعملون شيئاً فلماذا يأخذون هذه الرواتب؟

فيا سيدي المدير، اجعل في الوظائف الدينية أحياء يعملون، لا أشباحاً يأكلون وينامون. إن الأمة في أشد حاجة إلى من يشتغل اليوم بالعلوم الإسلامية والوعظ الديني، فاطرد هؤلاء الكسالى واطرد هؤلاء الذين يأخذون أربعة رواتب على أربع وظائف لا يقومون بشيء منها. اطردني أنا، فإن لي إمامة مسجد لا أدخله أبداً وأسرق نصف راتبه وأعطي النصف الثاني لوكيل لا أعرف أهو أهل للوظيفة أم لا... اطردني ولا تعطِني رواتبي المكسورة فإني لا أريدها، وأبطل هذا النظام السخيف؛ نظام الإرث في الوظائف، يرث الابن عن أبيه إمامة المسجد وخطبته كما يرث قميصَ أبيه وجبته! إن الإرث لا يصحّ في الخلافة ولا يصحّ فيما هو دونها؛ ضاعت الأموال هدراً وخرجت الوظائف عن غايتها وحكمتها، وأصبحت الأوقاف والمساجد مأوى عاطلين ومَثابة خاملين، وصارت وارداتها نهباً مقسَّماً وحِمى مستباحاً، وخربت المساجد وتهدمت... أين مسجد المشيرية الذي صار اليوم مصرفاً للربا؟ أين مسجد حكر السرايا الذي غدا ملقى للقاذورات؟ أين مسجد السنجقدار الذي كان في موضع إدارة القبس السابقة؟ أين وأين...؟ لقد خربت المساجد لتعمر جيوب الرؤساء وبيوتهم.

اطرد هؤلاء وحاسبهم على ما أخذوه، واجمع هذه الأموال فأَنْشِئ بها كلية شرعية على مثال الكلية التي أنشأها الرجل العظيم سماحة مفتي لبنان -على قلة الأموال وضعف الواردات- فكانت عملاً من أجلّ الأعمال وأنفعها للدين وللوطن. وعيّنْ -يا سيدي- الأكفاء في وظائف الأوقاف، وأجزل لهم رواتبهم، وسُنَّ لهم قانوناً مثل قانون الموظفين المدنيين، واجعل لهم مفتشين، وعاقب المهمل واقطع من راتبه وانقله إلى مسجد أصغر أو أبعد، وارفع المُجِدَّ ورقِّه إلى مسجد أكبر، وسترى -يا سيدي- إنْ فعلتَ ذلك أذى كبيراً وشغباً طويلاً، وسيصيحون: يا غيرة الله يا ضَيعة الدين، ويستغلون الدين لمصالحهم والسنّةَ لفائدتهم وأقوالَ الفقهاء لاستمرارهم فيما هم عليه، فلا تعبأ بهم، دعاة الباطل وعبّاد الأموال. قل لهم: اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله، اعلموا أولاً وكونوا علماء كما أمركم الله ورسوله، ثم اعملوا

بعلمكم، وإذن تعالوا فخذوا بدل الليرة السورية عشراً. أما أن تحسبوا الإمامة والخطابة طريقاً لكسب المال وأخذ الراتب، فلا؛ لا يكفي أن يكون الإمام حافظاً لسُوَر الصلاة وعلى رأسه عمة، بل يجب أن يكون عالماً أو طالب علم على الأقل. ولا يكفي أن يعرف الخطيب القراءة ثم يأخذ «ديوان خطب ابن نباتة» (أو غيره، فلا أعرف دواوين الخطباء)، ثم يقرؤه بلا إلقاء ولا تأثير قراءةً تُنيم القاعدَ وتُميت الحي، والأصل في الخطيب أن يُسمع الأموات ويوقظ النّيام ويحفز الناس إلى العمل الصالح المجدي.

وإذا لم تجد إدارة الأوقاف خطباء صالحين بعدد المساجد فلتعيّن أحد الكتّاب المُنشئين البلغاء، ولتشر له كل أسبوع إلى موضوع أو موضوعات مما ينفع الناس، ولتأمره أن يكتب فيه خطبة يأخذها مَن لا يحسن تأليف الخطب. وهذا اقتراح جيد ولكن المحذور فيه هو أن تتخذ الحكومة هذا الأمر سبيلاً للسيطرة على المنابر وإخضاعها لأمرها، وهذا شرٌّ مما نشكو منه.

وجماع الأمر كله أن يُسَنّ للوظائف و«التوجيهات» قانون جديد على أساس أن الوظائف الدينية كالوظائف المدنية، وأن تكون رواتبها وحقوقها التقاعدية كبيرة ومسؤوليتها كبيرة، فيأخذ الإمام والمدرّس في المسجد الصغير ما لا يقلّ عن خمس وعشرين ليرة سورية لتكفيه المعيشة ولتمنعه من الإهمال، ثم يُفتَّش عليه ويُعاقَب إن قصّر ويُعزَل ويُنقَل. وأن تكون رواتب المساجد الوسطى والكبرى على هذه السنّة بحيث لا ينقص راتب الإمام والخطيب والمدرس في مسجد كبير عن راتب أستاذ في مدرسة تجهيزية على أقل تقدير، وأن يُسَنّ نظام للترقي والعلاوات وتُحفَظ للموظف حقوق الرواتب، وأن يُحال حتماً على التقاعد في سن معينة كيلا تُعاد مأساة خطيب الأموي السابق رحمة الله عليه وغفر الله له.

* * *

هذا جانب من الإصلاح (وجوانب الإصلاح كثيرة)، نرجو أن نراه قريباً فتكون منقَبةً لمدير الأوقاف عظيمة وتكون مثوبة له عند الله، والله الموفق.

* * *

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

الاستخارة

هل خطر على بال أحدكم أن يسأل نفسه: لماذا حرّم الله الاستقسام بالأزلام الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وهو أنهم إذا أرادوا سفراً أو تجارة أو غير ذلك وضعوا في كيس ثلاثة أقداح (أو ثلاث قطع من الخشب) مكتوباً على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث ليس عليه شيء. فإذا خرج القدح الذي يشير إلى الفعل فعلوا ذلك، وإن خرج الذي يشير إلى المنع امتنعوا، وإن خرج الثالث أعادوا الكرّة... أو هو شيء من هذا، وقصدي تقريب المسألة إلى الأذهان.

فلماذا منعه الإسلام وحرّمه؟ لماذا حرّم الإسلام لعبة النرد (الطاولة) وأحلّ الشطرنج؟ لماذا حرّم القمار؟ لماذا حرّم الميسر (وهو ما نسميه اليوم «اليانصيب» بالضبط)، وكان الميسر مثل اليانصيب مآله ونهايته إلى الخير، لأنهم يفرقونه في الفقراء. فلماذا حرّم الإسلام ذلك كله؟

لأن من مبادئ الإسلام الخُلُقية العظيمة التي لا ينتبه إليها أكثر المسلمين أن الإسلام يحرّم على المسلم أن يسير في طريق لا يعرف نهايته؛ يحرّم عليه أن يضع قدمه في مكان حتى يتيقن ثباته. يحرّم عليه أن يعتمد على المصادفات والظروف؛ فليس في الإسلام اتكال على المصادفات أبداً ولا مكان فيه للحظ، بل ينبغي على المسلم أن يحكّم عقلَه ويمشي على هداه، فإذا أراد سفراً أو زواجاً لم يَجُزْ له أن يستقسم بالأزلام كما كان يفعل الناس في الجاهلية، ولا أن يأخذ السبحة ويعد حباتها فإن خرج العدد شفعاً (زوجاً) -مثلاً- فعل وإن خرج وتراً ترك.

كلا، ولا يفتح المصحف ويعدّ سبع ورقات ويقرأ ما يصادفه، فإن كانت آية نعيم مشى في الأمر وإلا وقف. ولا ينام وينظر في منامه فإن رأى أنهاراً وبساتين وشيئاً مما يَسُرّ اعتقد أن الأمر خير فأمضاه وإلا انصرف عنه. ولا أن يذهب للشيخ فلان يقول له: "بيّتْ لي استخارة"! فينام الشيخ وينظر ما يرى في منامه... إن المنام لا علاقة له إلا بأفكار صاحبه وعقله الباطن وسير الهضم معه، فإن كان منزعجاً من أمر يكتم انزعاجه منه أو كان قد أكل أكلة شامية غليظة فلا يرى إلا المزعجات، فما ذنب الرجل الآخر الذي كلفه بعمل الاستخارة؟ وما علاقة المنام به؟

هذه كلها من بقايا الجاهلية والإسلامُ منعها. الإسلامُ لا يترك شيئاً للمصادفات والحظوظ، وما حرّم من اللعب (الطاولة وأمثالها) إلا لأن الغلبة فيها للحظ أولاً، وما أحلّ الشطرنج (على بعض المذاهب) إلا لأن الغلبة فيه للعقل وحده والمقدرة.

وقد أمر الإسلام بالتفكير والبحث وتقليب الأمر على وجوهه، ثم بالمشاورة وإشراك العقلاء من الأصدقاء في وزن الأمر بميزان العقل ومعرفة خيره من شره، وبعد ذلك تكون الاستخارة.

أي أن المسلم -بعدما يستنفدُ طاقتَه البشرية ويحكّم عقله

ويستعين بأهل الرأي- يرجع إلى الله يقول: يا ربّ أنا بذلت جهدي ولكني لا أعلم النتيجة، والغد باب مقفَل لا أرى ما وراءه، وأنت وحدك مطّلع عليه، فإن كان هذا الأمر خيراً وكنتُ مصيباً في تقديري وحكمي فوفّقني.

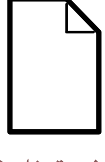
هذه هي الاستخارة الشرعية، ليس فيها اتكال على المصادفات ولا تعطيل للعقل، ولكن فيها رجوعاً إلى الله وإحياءً للإيمان.

جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان يعلّم أصحابه الاستخارة كما يعلمهم القرآن.

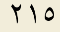
والاستخارة الشرعية أن تصلّي ركعتين ثم تتوجه إلى الله فتدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب. اللهم إن كنتَ تعلم أن هذا الأمر (ويذكره) خيرٌ لي في ديني ودنياي ومعاشي ومعادي فيَسّرْه لي وهوّنْه عليّ، وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي ومعادي فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدُرْ لي الخير حيث كان ثم رضّني به.

هذه هي الاستخارة الشرعية، أما عدّ حبات السبحة وصفحات المصحف والاعتماد على المنامات، فمن بقايا الجاهلية!

* * *



صفحة فارغة

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)


دار المنارة للنشر والتوزيع

الصبر

هل يريد أحد منكم أن يتخرب بيته؟ ستقولون: وما هذا السؤال السخيف؟ لا، طبعاً.

ولكن إذا صدر قانونٌ جاء فيه أن من تخرّبَ بيته بالسيل أو بالرياح، أو بأي آفة من الآفات التي لا عمل فيها للإنسان، تمنحه الدولة بدلاً عنه قصراً ضخماً في شارع بغداد[1]. ألا تتمنّون حينئذ أن يتخرب البيت؟

ستقولون الآن: نعم؛ لأنكم واثقون من أن الدولة إذا وعدت وعداً بقانون فإنها تفي به. والله عزَّ وجلَّ، وهو أصدقُ من الدولة قولاً وأوثقُ عهداً، تعهّدَ للمؤمن بأن يعطيه بكل مصيبة تناله، صغيرة كانت أو كبيرة، من الشوكة التي تشك يده إلى موت الولد وذهاب المال، أجراً ينسى معه المصيبة ويتمنى لو أنها كانت أكبر ليكون الأجر عليها أكبر.

روى البخاري ومسلم في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «ما يصيب المسلمَ من نصب ولا وصب ولا همّ ولا حزن ولا أذى وغمّ، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفّرَ الله بها من خطاياه».

---

(١) وهو من شوارع دمشق الفخمة (مجاهد).

أي أنه إذا جاء يوم القيامة ووُضع الميزان ووُزنت الحسنات والسيئات، فقلّتْ حسناته وكثرت سيئاته، رأى المصائب التي كانت أصابته فصبر عليها ورضي بقضاء الله فيها، وقد وُضعت مع الحسنات فرجحت بالسيئات.

وروى مسلم: «عجباً لأمر المؤمن، إنّ أمر المؤمن كله خير له؛ إن أصابته سرّاء (نعمة) شكر (الله عليها) فكان خيراً له (أي كانت حسنة من حسناته)، وإن أصابته ضرّاء (مصيبة) صبر فكان خيراً له.

بل إن المصائب من علامات رضا الله عن العبد؛ لأنها كفّارة للخطايا ودفع لعذاب الآخرة. وروى البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من يُرِد الله به خيراً يُصِب منه». وروى أيضاً أن رسول الله ﷺ قال (في الحديث القدسي): «ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا (أي مات مَن هو عزيز عليه) ثم احتسبه (صبر ورضي بالقضاء) إلا الجنة».

فيا أيها المصابون المتألمون، هذه بشارة من رسول الله لكم، فاصبروا حسبة لتكون لكم الجنة، قبل أن تصبروا سلواً ونسياناً.

وأي مصيبة لم تُنسَ؟ وأي كبيرة لم تصغر؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «الصبر عند الصدمة الأولى».

* * *

والصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، يذكر قضاء الله فيها فيرضى بقضائه، ويرجو ثوابه فيطمع في ثوابه.

وصبر على ألم الطاعة؛ حينما تترك فراشك الدافئ في الشتاء وتقوم إلى صلاة الصبح، وحينما تترك مائدتك الحافلة في رمضان وتصوم، وحينما تتكبد المشاق وتحتمل ما هنالك من الفوضى والتزاحم والغلاء والبلاء لتحجّ، وحينما تنازع النفس حرصها وطمعها لتخرج الزكاة رغماً عنها.

والثالث الصبر عن اللذة المحرمة مع قدرتك عليها، وهو أعظم الثلاثة.

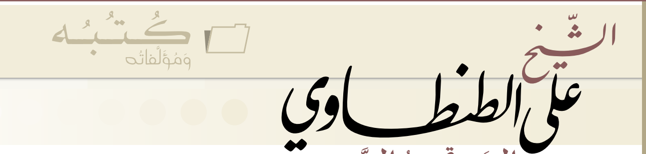
فيا أيها الشاب، الذي يرى النساء المتبرجات والفاحشة الميسورة واللذائذ المعروضة ويسمع من رفيقه حديثها المغري ويرى في المجلات صورها المثيرة، ثم يصبر عنها ابتغاء ثواب الله؛ اعلم يا أيها الشاب أنه إذا كان المحشر وازدحمت الخلائق ودنت الشمس وسال العرق، اعلم أن مكانك في ظل عرش الله. أفلا يتزاحم الناس يوم العرض ليكون لهم مكان مشرف على الطريق، فكيف إن كان لهم كرسي في سدة الشرف مع الوزراء والكبراء؟ فكيف إن كان ذلك يوم القيامة، يوم العرض الأكبر، يوم تختلف المقاييس البشرية فينزل -إن كان عاصياً- الوزيرُ والكبيرُ ويرتفع -إن كان تقياً- العاملُ والأجير، ويصير الغني فقيراً لسيئاته والفقير غنياً بحسناته، والجبار ضعيفاً مسكيناً والمسكين قوياً بعمله الصالح.

قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله: إمام عادل (أي موظف مستقيم لا يحابي ولا يرتشي، لا يرتشي بالمال ولا بالجاه ولا بالجمال...) وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد (أي للعلم والعبادة لا للجلوس مع الأصحاب وقطع الوقت)، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه (لا لدنيا ولا لمصلحة مالية ولا ابتغاء لذة ومتعة)، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله (فضّلَ اللذة الدائمة في الجنة على هذه اللذة المؤقتة التي تتبعها جهنم)، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً (منفرداً) ففاضت عيناه (بكى من خشية الله).

* * *

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



البر باليتامى

نشرت سنة ١٩٦٤

سحتُ من عشر سنين في أقطار الإسلام حتى بلغت أقصى المشرق ولم يبقَ بيني وبين أسترالية إلا مرحلة واحدة بالطيارة، ورأيت آلاف المشاهد، فكان أعظمها في نفسي أثراً مشهد دار دخلتها في جاكرتا، قصبة أندونيسيا (عاصمتها)، فيها أكثر من عشرين بهواً وغرفة وفيها ثلاث حدائق وأربعة صحون، وما في صحونها وحدائقها وغرفها وأبهائها إلا أولاد، أولاد من كل جنس ولون، بيض وسمر وسود، جاويون وصينيون وعرب وهولانديون وأولاد من أفريقية. أولاد من كل سن، كبارهم يرعون صغارهم، ومن الكبار من بلغ سن المراهقة ومن الصغار من لا يزال في سن الرضاع.

فسألت: ما خبر هذه الدار؟ فإذا هي امرأة غنية تزوجت برجل غني، فتكاثرت عليهما النعم وألّفَ بينهما الحب، ولكن النعم لم تتم، فقد حُرما الأولاد (والأولاد أمنية الأماني لمن لم يقدَّر له الولد، والأولاد سبب المتاعب لمن كثر عليه الولد؛ الأول لا يشكو إلا فقدهم والثاني لا يشكو إلا وجودهم). حتى جاء يوم وجدت فيه هذه المرأة الأندونيسية طفلاً لقيطاً فأخذته فربّته وتسلّت به، فلما كبر وفارقها عاودها شعور الوحشة لفقد الولد، ففتّشت عن غيره، ثم جعلت همها في الحياة جمع اللقطاء والأيتام وتربيتهم والقيام عليهم.

ولقد حدثتها وحدثت زوجها فوجدت أنهما يجدان في ذلك لذة لا تبلغها لذائذ الدنيا كلها.

* * *

وهذا صحيح؛ فليس في اللذات ما هو أعمق من لذة المحسن برؤية أثر الإحسان، فإن كان الإحسان إلى طفل كانت اللذة أكبر. والمرء يربّي قطاً صغيراً ويرعاه حتى يكبر، فيحس الحب له والعطف عليه والمسرة برؤيته، فكيف بمن يربّي إنساناً صغيراً ليس له من يعتني به ويربيه.

فالعناية باليتيم الذي فقد الأم أو فقد الأب أعلى درجات الإحسان، ومكافأتها العاجلة هي هذه المتعة الروحية وهذه السعادة النفسية، أما مكافأتها عند الله فأكبر وأبقى؛ لأن الذي يودِع ماله في المصرف يأخذ على المئة أربعاً، ربحاً غير سائغ ولا مشروع، أما الذي يعامل مصرف الإحسان وينفق ابتغاء وجه الله، فإن المئة التي ينفقها تصير سبعين ألفاً ربحاً سائغاً حلالاً، نعم: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾.

وقد تُضاعف فوق ذلك أضعافاً. وأنا أظن أن الحسنة إن كانت لليتيم كانت مما يضاعَف أضعافاً، فتصير المئة الواحدة مئة وأربعين ألفاً على الأقل، لأن الله كلما ذكر الإحسان في القرآن

وحثّ عليه ورغّب فيه، خصّ اليتيم وذكره على التعيين، ووصّى به ألا يُقهر، وجعل من صفات من يكذب بالدين أنه يَدُعّ اليتيم ولا يحُضّ على طعام المسكين.

وإذا كان من يدعوه الملك أو الأمير ويخصه بجواره في الدنيا ينال بذلك شرفاً ويراها له أعظم مكافأة، أفلا يكفي كافلَ اليتيم أن يبشره رسول الله ﷺ (كما روى البخاري وغيره) أن يكون إلى جنبه في الجنة، وأن يكون هو ورسول الله كهاتين (مشيراً إلى الإصبع السبابة والوسطى). فإذا لم تستطع -يا أخي- أن تنقطع لخدمة اليتامى كما فعلت تلك السيدة الجاوية، ولم تقدر أن تكفل يتيماً تتولى أنت تربيته ورعايته، فساعد دار الأيتام وادخُل شريكاً في هذا الثواب العظيم، يكُنْ لك -إن شاء الله- فضل من يرعى اليتيم.

ساعد بما تستطيع ولو كان قليلاً، فإن القليل إلى القليل كثير، بل إن القليل لمن لا يقدر على أكثر منه أعظم أجراً من الكثير يعطيه الغني، وفي الحديث: «سبَقَ درهمٌ مئةَ ألف درهم» (وهو حديث صحيح رواه النسائي)؛ لأن الدرهم ممّن لا يملك إلا عشرة دراهم أكبرُ من مئة ألف يعطيها من يملك الملايين. فلا تستقلَّ ما تعطيه ولا تستَحِ به ولو كان ليرة واحدة، فإن نصف تمرة تكون -كما جاء في الحديث[1]- وقاية لصاحبها من نار جهنم.

وربما كان ما تعطيه مساعدة لواحد من ولدك -لا سمح الله- أو من ذريتك. مَن يدري؟ وقد تكون اليوم غنياً، ولكن هل تضمن أن يدوم عليك غناك؟ وقد تكون قوياً، ولكن هل تكفل أن تبقى لك قوتك؟ وإن هما بقيا لك حياتك هل تضمن ألاّ يصيب العوزُ أحدَ ذريتك من بعدك؟ فإن كان في البلد مثل هذه الدار فإنه يكون عوناً لهم ولغيرهم.

ولقد مرّ على هذا العمل من يوم أقامه الوالي مدحت باشا إلى اليوم خمس وثمانون سنة، فانظروا كم من يتيم أعان، وكم من فقير ساعد، وكم من موهبة كانت ضائعة وجدها واستغلها؟

إن في هؤلاء الصبية الجاهلين المشرَّدين في الطرقات مَن لو تعلّمَ لكان منه فقيهٌ أو محدّث أو محاسب أو كيميائي أو مهندس، وإن الليرة التي تدفعها إذا ضُمّت إلى الليرات التي يدفعها غيرك كان منها عمارة هذه المؤسسة التي تحوّل هؤلاء الصبية المشردين إلى علماء نابغين، أو أدباء عبقريين، أو عمّال نافعين.

إنها لا تُفتَح واحدة من أمثال هذه الدار إلا أُغلق بفتحها سجن وخمّارة وبؤرة فساد.

ولقد مر على هذا المشروع أيامُ بؤس وأيام نعيم، وجاز بعصرِ تأخّرٍ وعصرِ ازدهار، وها هو ذا اليوم يخطو في طريق الخير أوسع الخطوات، منذ تولته هذه اللجنة الخيّرة العاملة التي يشتغل فيها أعضاؤها لها أكثر مما يشتغلون لأنفسهم، ويعملون فيها أكثر مما يعملون في وظائفهم وأعمالهم التي يكسبون منها أقواتهم، ولا يأخذون على ذلك أجراً.

* * *

لقد رأيت في رحلاتي في العالم الإسلامي أن الناس

(١) «اتّقِ النّارَ ولو بشِقّ تمرة»، رواه البخاري ومسلم.

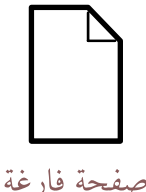



لا ينقصهم الكرم، ولكن تنقصهم الثقة؛ إنهم إذا وثقوا من أن القائمين على المشروع الخيري أمناء أعطوهم بلا حساب. وأنا أشهد أن القائمين على هذا المشروع هم في الأمانة مَثَلٌ مضروب وأن ما يسلَّم إليهم يصل إلى الأيتام، وأنتم ترون -في هذا البيان- صدقَ هذا الكلام بلغة الأرقام، فأعطوا، أعطوا ما تقدرون عليه ولو كان قليلاً، تكن مكافأتكم في الدنيا لذة النفس وراحة الضمير، وتكن مكافأتكم عند الله الجنة بجوار رسول الله ﷺ. وصححوا نيتكم عند العطاء، فلا تفكروا في شكر ولا ثناء، ولكن في ثواب الله وابتغاء وجهه، وقولوا في أنفسكم وأنتم تدفعون إليهم: إننا نعطي -يا رب- ابتغاء رضاك، فاحسب لنا ذلك عندك.

وما تدرون، فلعل ما تعطون يستفيد منه يوماً أحدُ ذراريكم وأحفادكم، فيكون مالكم قد رُدَّ إليكم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *


صفحة فارغة

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

قرآنكم يا مسلمون

نشرت سنة ١٩٥٦

الذي دفع إلى كتابة هذا البحث أني سمعت الجمعة الماضية القارئ المصري المعروف فلاناً (ولست أسميه) يقرأ في جامع بني أمية ويذيع قراءتَه مذياعُ دمشق، فإذا أنا أسمع بدل القرآن غناءً رخواً طرياً، من هذا الغناء الذي يتخلّع فيه الصوت ويتخنث وتكون كل رجفة فيه وكل هزّة كفراً بالرجولة وجحوداً لها، وكلما وقف وقفة هدَرَ الناس بـ«آه» و«الله» و«يا سلام» و«أعد»... إي والله، «أعد» التي تسمعونها في المسارح والملاهي، ولم يبقَ مما هنالك إلا التصفيق وقرع الكؤوس!

وأعجب ما في الأمر (وكله عجب) أن السورة التي يقرؤها ويغني بها هي... هي يا أيها الناس سورة الحاقة؛ السورة التي تصِفُ أهوال يوم القيامة، السورة التي فيها: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾.

هذا الكلام الذي تنخلع له قلوبُ مَن لهم قلوب من القراء، كيف يستطيع مسلمٌ أن يتغنى به كما يتغنى بقطعة من الشعر الغَزِل المُرقص؟ من يستطيع أن يقرأ المرثية الباكية وهو يضحك ومن يصف الفاجعة القاصمة وهو يبتسم؟ إلا أن يكون جاهلاً لا يدري بِمَ يتحرك لسانه ولا يفهم معناه، أو أن يكون مجنوناً أفلت من المارستان؟

أفليس معنى هذا أن هذا القارئ لا يفهم معاني الكلمات التي يقرؤها ولا يدري ما موضوعها، أو هو لا يحاول أن يفهم؟ وأن السامعين الذين لا يهزّهم إلا الطرب ولا تحركهم إلا الأنغام هم مثله، لا يفهمون المعنى ولا يدرون ما الموضوع؟

وهذه هي المصيبة التي ليس فيما أصاب المسلمين أكبر منها؛ لأن فيها تعطيل القرآن وتحويله من دستور شامل ومنهج كامل يُتدبَّر ويُفهَم ويُحفَظ ويُعمَل به إلى مجرد كلمات تردَّد ترديد الببغاوات.

يقرأ المسلمون القرآن فيحركون ألسنتهم بلفظ كلماته وتجويد تلاوته، ولكن لا يفكرون في وجوب تحريك عقولهم لفهم معانيه. ويرون أن هذا هو الأصل في القراءة، كأن القرآن ليس إلا كلاماً معَدّاً للتلحين ولا يُطلَب منهم إلا التسابق إلى حسن تلحينه وإدارته على البَيات والرصد والعجم وهاتيك الأنغام!

وصار البر بالقرآن كل البر، والعناية به كل العناية، أن نتقن مخارج حروفه ونفخّم مفخَّمه ونرقق مرقَّقه ونحافظ على حدود مدوده، ونعرف مواضع إخفاء النون وإظهارها ودغمها وقلبها والغُنّة بها، ثم نفتتح به الإذاعة كل يوم، نختار لذلك أحلى القرّاء

صوتاً وأبصرَهم بالألحان وأقدرهم على التصرف فيها، ويختم القارئ تلاوته فننتقل مباشرة إلى الأغنية الفاسقة نذيعها والكلام الفارغ نعلنه، وتسمع هذه التلاوة في القهوة وأهلها معرضون عنها مشغولون بالنرد المحرَّم والدخان واغتياب الناس، وأن نبدأ بعشر آيات من القرآن كل حفلة وكل اجتماع، وأن نقيم مَن يقرأ في المآتم والناس منصرفون عن القرآن إلى الاستقبال والوداع وإدارة القهوة والدخائن، وأن يقرأه «الشحّادون» على أبواب المساجد، وأن نضع اللوحات الثمينة فيها الآيات منه في صدور أبهائنا ومجالسنا، وأن تتخذه النساء المسلمات حلية تعلَّق في صدورهن المكشوفة التي يحرم هذا القرآن كشفها... هذا هو كل برنا بالقرآن وعنايتنا به!

أرأيتم قوماً كانوا في نزهة لهم في يوم عيدهم وغنّوا حتى (سلطن) عليهم النغم فصار كلامهم غناء، ولهوا حتى ملكهم اللهو فصار جِدهم لعباً، مروا بمقطع حجارة أقيمت أمامه لوحة كبيرة ظاهرة عليها هذه الكلمات: "انتبه، إن الديناميت يتفجر الساعة التاسعة تماماً، الخطر شديد، ابتعد حالاً". فقرؤوها غافلين، ثم لحّنوها ضاحكين، وراح أنداهم حنجرة وأطراهم صوتاً يقلّب على هذه الجملة الأنغام من البيات إلى الرصد إلى الحجاز إلى الأصبهان وهم يتمايلون ويتصايحون: آه، يا عيني، يا سلام... ولم يفكر أحد ولم يخطر على باله أن عليه التفكير في معناها حتى كانت الساعة التاسعة وتفجر الديناميت؟!

هذا هو مثالنا نحن، نحن المسلمين في هذه الأيام.

القرآن الذي أنزله الله أمراً ونهياً ومنهجاً كاملاً للمسلم في حياته الخاصة وحياته الاجتماعية، يُكتفَى منه بالتغنّي بألفاظه وتجويد تلاوته! فهل ينفع القاضي أن يقرأ القانون مجوَّداً ثم لا يفهمه ولا يحكم به؟ وإذا تلقى الضابط برقية القيادة هل ينجيه من المحكمة العسكرية أن يضعها على رأسه ويقبّلها ويترنم بها، ولا يحاول أن يدرك مضمونها؟

بل لو رأيتم رجلاً قعد يقرأ جريدة حتى أتمها كلها من عنوانها إلى آخر إعلان فيها، فسألتموه: ما هي أخبارها؟ فقال: والله ما أدري، لم أحاول أن أتفهّم معناها... فماذا تقولون فيه؟ أما تنكرونه وتنكرون عليه؟

فكيف لا تنكرون على من يعكف على المصحف حتى يختم الختمة، وقد خرج منها بمثل ما دخل فيها، ما فهم من معانيها شيئاً؟

فمن أين جاءت هذه المصيبة؟ وأيّ عدو من أعداء الله استطاع أن يلعب هذه اللعبة فيَحرم المسلمين من قرآنهم وهو بين أيديهم، وفي كل بيت نُسَخ منه، وهو يُتلى دائماً في كل مكان؟ يَحرمهم منه وهو في أيديهم وهو ملء أنظارهم وأسماعهم؟

مسألة عجيبة جداً والله!

* * *

وهذه الأنغام (الفنيّة) التي لا تختلف عن أنغام الأغاني، من أين دخلت على هذا القرآن؟

لقد ورد الأمر بالترتيل، ولكن الترتيل (كما قال الراغب في المفردات) هو إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة، والتمهل في النطق، والإبانة عن الحروف. وورد في الحديث الصحيح:

«ليس منا مَن لم يتغنَّ بالقران»[١]، وقد فسروا التغنّي هنا بالاستغناء، أي أن يستغني به عن غيره، وفسروه بالجهر به وتحسين الصوت فيه؛ يشهد للتفسير الأول ما بُني على تركه من الوعيد والتهديد بأن تاركه ليس منا، ويشهد للثاني الأحاديث الأخرى، وكلها جاء بإسناد صحيح، منها: «زيّنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحَسَن يزيد القرآن حُسناً»[٢]، وقد فسر المرادَ منه الحديثُ الآخر: «إن مِن أحسن الناس صوتاً في القرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله»[٣]. فليس المُراد إدارته على ألحان الغناء الفني، بل المراد إيفاء المعنى حقه، والخشوع فيه، وظهور أثر الخشية في تلاوته. ومنها أنه ﷺ كان يرجّع صوته من القراءة كما رجّع يوم الفتح وهو على ناقته[٤]، نقل ابن حجر أن الترجيع المراد هو تحسين التلاوة لا ترجيع الغناء فإنه مذموم ومناف للخشوع.

والذي أفهمه من هذه الآثار[٥] أن المطلوب في التلاوة الترتيث والتمهل وإبانة الحروف والكلمات، وتحسين الصوت فيه، وإظهار الخشوع، مع بعض التنغيم الذي يأتي عفواً ولا يكون هو المقصود، والذي ينشأ عن فهم المعنى ويؤدّي إلى إظهاره. وإن للكلام آثاراً مختلفة في النفس، منها الحماسة والحزن والخوف والرغبة والاعتبار والتفكير، ولا بد من اللهجات المناسبة للتعبير عنها تعبيراً يوصل إليها ويدلّ عليها، مع ما يكون فيه من رنّة الاستفهام والتعجب والدهشة وغيرها، وهذا هو «التلحين التعبيري». أما الغناء فلا يثير إلا الطرب، وما الطرب (إذا أردت التحديد) إلا انتباه العاطفة الجنسية، وقلت «العاطفة» ولم أقل «الغريزة» لأن العاطفة الجنسية تتمثل في الذكريات والآمال والشعور المطلق بالجمال وتفتح القلب للحب، والقرآن -مذ صار غناء- كان له هذا الأثر، مشوباً بشيء من الصوفية النفسية والروحانية المبهمة. والقراء اليوم لا يفرقون في الأنغام التي يقرؤون بها بين آيات الترغيب في الجنة وآيات الترهيب من النار، وآيات القصص وآيات التشريع، مع أن الإلقاء العادي لا يكون إلقاء حياً معبّراً إذا جاء هذا كله بلهجة واحدة، لا تتبدل ولا تتغير بتبدل المعاني وتغير الأساليب.

ومن الدلائل على أن القراءة هي في عرف الناس اليوم فرع من فروع الغناء أن كثيرين من المغنين والمغنيات بدؤوا قارئين وقارئات، ثم (ارتقوا...) فصاروا مغنين ومغنيات. وقد قرأت في «الرسالة» من زمن بعيد بحثاً عن الغناء وأهله عدّ صاحبُه الشيخَ محمد رفعت في المغنين!

وكلمة «القرّاء» كان معناها «العلماء والفقهاء»، لم يكن

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة بهذا اللفظ، وزاد غيره: يَجهر به (مجاهد).

(٢) روى نصفَه الأول «زيّنوا القرآن بأصواتكم» النسائيُّ وأبو داود وابنُ ماجه وأحمد، ورواه الدارمي بلفظ: «حسّنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً» (مجاهد).

(٣) أخرجه ابن ماجه (مجاهد).

(٤) عن عبد الله بن مغفَّل قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجّع، قال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجّعتُ كما رجّع. أخرجه البخاري وأبو داود (مجاهد).

(٥) ولعل صديقنا المحدّث الشيخ ناصر الألباني يتتبع هذه الآثار وما قال العلماء فيها، ويصوغ من ذلك بحثاً كبحثه القيم عن «حجاب المرأة المسلمة».

لها في الصدر الأول معنى غيره، فمن أين صار القرّاء هم الذين يستطيعون أن يتلوا القرآن بالمخارج والأحكام، والحنجرة الندية، واللحن الفني، ولو كانوا أجهل الناس بمعانيه ومقاصده وأحكامه، ولو كانوا يقفون في وسط الجملة ويَصِلون ما لا يوصل؟ ولقد سمعت قارئاً قرأ ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت﴾[1]، ووقف وأطال الوقوف حتى ظننته مات! وآخر قرأ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾[2] وسكت، فأفسد المعنى وحرّف كلام الله عن موضعه.

ومما يصنع هؤلاء «القرّاء...» أنهم يقرؤون في المحافل والإذاعات على السبع، يكرّرون الآية الواحدة على القراءات المختلفة، فلا يأتي من ذلك إلا فتنة العامة وتشكيك الجهلاء، وما يدفع إليه إلا التفاخر والتظاهر بالعلم. ولقد نزل القرآن على سبعة أحرف[3] تسهيلاً على العرب، وكانوا يقرؤون بها جميعاً؛ لا اختياراً وتكراراً بل كان كلٌّ يقرأ باللهجة التي لا يستطيع النطق بغيرها (كما يقول التركي: «الهمد لله رب الآلمين» لأنه لا يستطيع النطق بالحاء ولا العين)، حتى كان زمان عثمان وسيطرت لغة قريش أو كادت واستطاع الناس كلهم القراءة بها، ولم يبقَ للسبعة الأحرف من فائدة إلا اختلاف الناس، فأمر عثمان بالاقتصار على واحد منها ومنع ما عداه، وكتب مصحفه الإمام وبعث به إلى الأمصار. ثم نشأ النحاة وأهل اللغة وكانت هذه القراءات، وهي

(١) ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾.

(٢) ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾.

(٣) على الاختلاف الكثير في تفسير هذا الحديث.

اختلاف يسير في الحرف الواحد حملت عليه الضرورة لبقاء بقايا عن لهجات العرب في القرون الثلاثة الأولى (وهم يرفعونها كلها مُسنَدة).

فإذا كان عثمان قد أمر بالاقتصار على حرف واحد من الحروف السبعة المنزَّلة ضماناً للمصلحة، فلِمَ لا نقتصر نحن على القراءتين الباقيتين، قراءة حفص في المشرق وقراءة ورش في المغرب، وندع ما عداهما فلا نقرأ بشيء منه إلا في حلقات العلم ومدارس التخصص من قبيل الاطلاع التاريخي؟

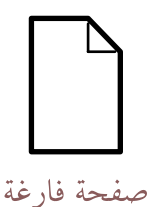
ولندعُ -بعد ذلك- إلى الرجوع إلى حقيقة القرآن وقراءته قراءة تدبّر وفهم، كما نقرأ الكتب العلمية والأدبية، نتفهم مقاصدها ونلخص قواعدها. لا أريد أن يفهم كل قارئ القرآنَ بعقله وحده، من غير رجوع إلى معجم ولا نظر في تفسير ولا استقراء لأثر، لا، بل ليكشِفْ أولاً عن معاني الكلمات من التفسيرات المختصرة أو المعاجم (لا سيما مفردات الراغب الأصبهاني)، ثم يفهم معاني الآيات مستعيناً بمعرفة أسباب نزولها والمأثور من تفسيرها، وأنا واثق أنه سينكشف لنا ألف أفق لم يرها المتقدمون لأن العقول اليوم أقوى على الفهم، وحسبك مثالاً ما جاء به أخونا وحبيبنا الأستاذ سيد قطب في «التصوير الفني» و«مشاهد القيامة».

وليتفرغ قوم لاستنباط الأحكام منه. وعليهم، فوق ما ذكرت آنفاً، أن يكونوا من ذوي المَلَكة الفقهية والتفقه الكامل في مذهب واحد على الأقل.

هكذا يكون الرجوع إلى القرآن، يكون بالقراءة مع التدبر

والفهم، وأن نجنّب القرآن ألحان الأغاني، وأن لا نَعُدّ الرجل قارئاً حتى يكون عالماً بمعاني القرآن وتفسيره، وأن يكون ممّن يخشى الله ويخشع قلبه لذكر الله، وأن ندع القراءات المختلفة إلا القراءتين الباقيتين منها، وأن نفهم أن القرآن ليس للطرب ولا (للشحادة) ولا ليكون تميمة (حجاباً) ولا زينة، ولكنه الدستور الإلهي الذي لا نهتدي ولا نسود ولا تعود لنا مكانتنا في هذا الوجود إلا بفهمه والعمل به والوقوف عند أمره ونهيه.

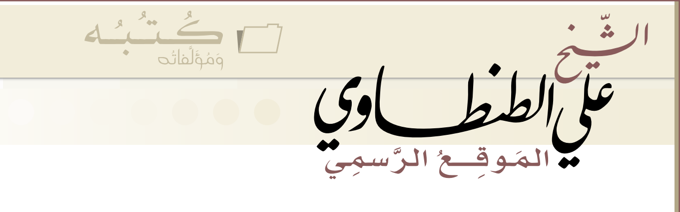
* * *



صفحة فارغة

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



تحريف لمعنى الإسلام

كنت يوماً في مكتبة في دمشق، صاحبها صديقي فأنا أتردد عليها شارياً وزائراً، فدخل رجل طويل اللحية جداً، له عمامة ذات عذبة وبيده سبحة تكاد تمسّ الأرض، ورأسه مُنحَنٍ على صدره كأن عنقه فقد عضلاته فهو لا يطيق أن يحمل هذا الرأس الذي مُلئ علماً فتركه يسقط على صدره، وسلم بصوت خافت لا يكاد يَبين، فحسبته والله عجوزاً قد شارف الثمانين. ونظرت إليه فبدا لي من ملامحه كأنني أعرفه، فجعلت أكدّ ذهني وأتذكر وأجرده في ذاكرتي من هذه اللحية وهذه العمة، وإذا بي أعرفه وأنتفض من دهشتي وأصيح به: ألست فلاناً؟

قال: بلى.

وفلان هذا شاب قوي العضل نشيط، كان تلميذي، وهو في سن ابني لو كان لي ابن.

فقلت: ماذا صنعت بنفسك؟

فلم يحر جواباً، ولكني عرفت الجواب؛ فقد كان أبوه شيخاً محترفاً وواعظاً يدعو إلى الله ويدل على «الطريقة» إليه، وصناعته إلقاء المواعظ وإنكار المنكرات، بشرط أن يكون الذي ينكر عليه رجلاً مسكيناً ليس بصاحب حول ولا طول ولا بذي سلطان، وأن يضمن لنفسه هدية منه، من علبة لبن إلى تنكة سمن، وأن يقدمها إليه وهو يقبّل يده... وإن الأب أحب أن يخلفه ابنه في الوعظ والإرشاد وإقامة الدنيا على من يشرب سيكارة، فأعده لهذا «الدور» وهيّأ له هذا «المكياج»!

ولما تسلمت القضاء في دمشق جاءني رجل يبدو عليه أنه صغير السن قوي ولكن لحيته وسبحته على نحو ما وصفت آنفاً، فدعوته إلى القعود، فقعد ساعة لا يتكلم ولا يتحرك، فقلت: صاحب الحاجة عاقَه الخجل عن إبدائها. وصبرت عليه حتى صار آخر وقت الدوام وانصرفت وانصرف معي، فودعته عند الباب ولم يقُل شيئاً، وأنا أعجب منه. وعاد في الغد وكانت تلك حاله، ورجع ثالث يوم، حتى ضقت به فقلت له: ماذا تريد؟

فتكلم بلسان فيه لكنة أعجمية لا يكاد يفهم معها كلامه فقال: يا مولانا، نحنو هادانا الله للإسلامي...

قلت: الحمد لله الذي هداك للإسلام، فماذا تريد من المحكمة؟

قال: تاراكنا أهلنا ودينا للإسلامي...

قلت: طيب، فماذا تريد مني؟

قال ما معناه إنه يريد ما يعيش به من الأوقاف أو من غيرها. ولم يصل إلى هذه النتيجة حتى دار مئة دورة وضيّع عليّ نصف ساعة.

فاغتظت منه وقلت له: إذا كنت قد هُديت للإسلام حقاً فاعلم أن الإسلام ليس دين بطالة وكسل بل دين جِد وعمل، وأن الذي يفتح دكاناً أو يحمل (بسطة) ويبيع ويشتري أفضل في نظر الإسلام من الذي يقعد في الجامع من الصباح إلى المساء يصلي ويتعبد ويقول: أطعموني من مال الأوقاف...

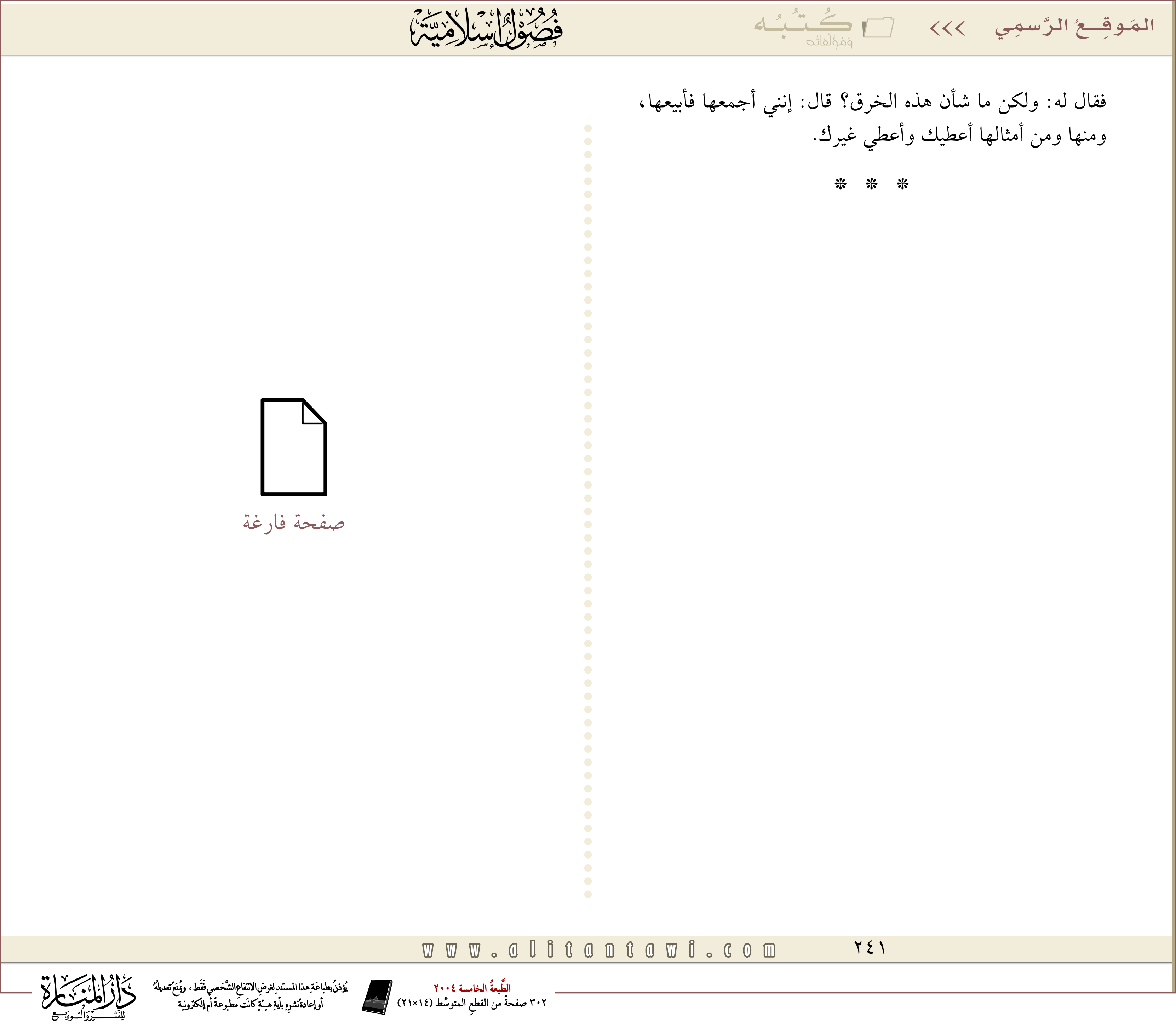
وأخرجته وجعلت أعجب: من أين يدخل هذا التحريف على معنى الإسلام، ومَن الذي قال للشيخ الأول إن من شرائط المشيخة أن يحني رأسه ويتخاذل ويتماوت ويصير كأنه مريض ألَحَّتْ عليه الأدواء؟ ألم يكن النبي ﷺ رياضياً بكل ما لهذه الكلمة اليوم من معنى في أذهان الناس؟ ألم يكن له خلق الرياضي لا يستهويه الظفر حتى يبطره، ولا تضعفه الهزيمة حتى تُؤْيِسَه؟ ألم يظفر بمكة فمدّ يده للخصم مصافحاً وهو يرضى بما كان، ويأمل بجولة أخرى؟ ألم يكن له جسم الرياضي؟ ألم يكن يمشي منتصب القامة بارز الصدر كأنما ينحدر انحداراً؟ ألم يصارع بطل الجزيرة العربية في المصارعة؟

ألم يسابق؟ أما سابق السيدة عائشة؟ هل في المشايخ اليوم من يأخذ امرأته معه (وهي متحجبة طبعاً) ويسابقها في النزهة أمام تلاميذه؟ ألم يصرُخ النذير مرة بأن العدو قد هاجم المدينة فيخرج الناس مسرعين، وإذا هم برسول الله على فرس عارٍ بلا سرج قد سبقهم إلى مكان الحادث ورجع يطمئنهم ويقول: لا تراعوا، ما هنالك شيء؟ ألم يكن عمر بن الخطاب -وهو خليفة- إذا رأى رجلاً يمشي متخاذلاً مثل هذا الشيخ يضربه بالدِّرّة على رأسه ويقول له: استقِمْ، لا تُمِتْ علينا ديننا؟

ألم يكن الصحابة رهباناً بالليل جِناً في النهار؟ ألم يقتنوا الأموال ويشتغلوا بالتجارات ويُقبلوا على الصناعات؟ ألم يكن كبار العلماء تجاراً وأصحابَ أعمال ضخمة؟ أبو حنيفة كان له بيت تجاري كبير يديره بنفسه، وابن المبارك كان يستورد البضائع من خراسان، والليث بن سعد كانت وارداته في السنة عشرين ألف دينار من كسبه وعمله لا من احتراف الوعظ وتقبيل اليد وإطالة اللحية وإمالة العنق... ألم يأتِ رسولَ الله رجلٌ يسأله، يسأله لأنه محتاج حقاً ولأنه هو وأهله لا يجدون ما يأكلون، لا كأخينا الذي هداه الله إلى الإسلام فحسب أن الإسلام يطعم كل مُهتدٍ من غير أن يعمل شيئاً حتى يصير المسلمون مجموعة كسالى... فلم يعطِه رسول الله ﷺ بل أمره أن يبيع كل ما يستغني عنه من أشياء داره، فباعها بدرهم واحد أيها القارئ، فأمره أن يشتري به حبلاً وأن يحتطب، فذهب يحتطب ويبيع ويأكل حتى توفر له درهم آخر، فاشترى فأساً ثم اشترى دابة ثم صار من أصحاب الآلاف.

فكيف يكون هذا هدي الإسلام ثم لا تجد في بلد من الشحادين ما تجده في مصر والشام وغيرهما من بلاد الإسلام؟

كان المطعم بن عدي (وهو من أشراف قريش في الجاهلية وفي الإسلام) يعطي كل من أراد الجهادَ فرساً وسلاحاً، فجاءه مرة رجل يريد سلاحاً وفرساً، فقال له: اتبعني. وذهب به إلى الدار فمشى وراءه، فرآه كلما أبصر في الطريق خرقة نفضها وحملها وإن رأى خشبة حملها، فعجب منه، حتى وصل الدار فوضع الخرقة في كيس كله خرق والخشبة مع الخشب، وأعطاه الفرس والسلاح



فقال له: ولكن ما شأن هذه الخرق؟ قال: إنني أجمعها فأبيعها، ومنها ومن أمثالها أعطيك وأعطي غيرك.

* * *

صفحة فارغة

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

إلى شباب الأزهر

تحية ووصية

نشرت سنة ١٩٥٥

أشكر للأستاذ الزيات هذا الشرف الذي أسبغه عليّ حين مكّن لي أن أكون من أسرة «مجلة الأزهر» وأدخلني جندياً في الجيش الضخم الذي امتدّ من عصر النور إلى عصر النور، خائضاً ظلمات التأخر والانحطاط وتابعاً في موكب العلماء والأعلام الذين كانوا أجلَّ من الملوك جلالة وأعزَّ سلطاناً، وكانوا حماة الإسلام وحرّاس الحضارة؛ لولاهم ما اتصلت حضارة العرب الأولى بحضارة العرب الجديدة ولم يصل إرث الآباء من عهود الازدهار إلى الأبناء في عهد النهضة. هم حملوا أمانة العلم حين غلبت على أمة الإسلام الجهالة، وهم رفعوا مصباح الدين حين انتشر الظلام، وإليهم كانت تُشَدّ الرحال من كل بلد إسلامي: يَفِدُ عليهم الأمي الجاهل فيرجع وهو إمام الهداية وعالم البلد، كما كان يفد الأعرابي على الرسول ﷺ فيعود وفي يمينه من نور النبوة قبس يهدي الضالين.

أولئكم علماء الأزهر. وهل في الدنيا معهد علم له قِدَم الأزهر وعظمة الأزهر، وأثر الأزهر في الفكر البشري وفي الحضارة الإنسانية؟ أي معهد يجر وراءه أمجادَ ألف سنة؟ ما الجامعات؟ إنهن بنات اليوم والأمس، والأزهر لِدَة الدهر؛ تكسّرت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم، وارتدّت عن بابه هجمات الجهالة والضلالة والشهوات والأوهام. غالَبَ الفناء وزاحم الزمان في طريق الخلود، وكان الأفق الذي أطلع شموساً وأقماراً وأخرج للدنيا نجوماً كانت هدى للسالكين.

الجامع الأزهر؛ لا تظلموه فتسمّوه جامعة، فلقد كان -والله- الجامع، جمع شعوب الإسلام على الحق في أزمان تفرقت فيها شعوب الإسلام. إنه الجامع، وفي الجامع العبادة والعلم، وفيه الروح والجسم، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة، فأين منه الجامعات؟

فيا شباب الأزهر، افخروا بجامعكم فما له على ظهر الأرض قرين!

يا شباب الأزهر، أنتم ورثة هذا المجد كله، أنتم خلفاء أولئك الجدود، فَصِلوا طريفكم بتليدكم، وأتمّوا بفعالكم مجد أسلافكم: بالعلم، لا تسمو الأمم إلا بالعلم. بالبيان، لا علم إلا ببيان ولا فكر إلا بلسان. بالأخلاق، أخلاق العلماء الذين أخلصوا الخضوع لله فخضع لهم جبابرة البشر، وألقوا كلمة السماء فرفعتهم فوق أهل الأرض، وزهدوا بزخارف الدنيا وأوهام الجاه، فانقادت لهم الدنيا وسعى إليهم الجاه. بالأخلاق، فالأخلاق قبل العلم، ونحن لا نريد نُسَخاً من الكتاب ولكن نريد رجالاً يكونون نماذج للمسلم الكامل، نريد دعاة إلى الله بالأفعال لا بالأقوال.

ولقد دخل أهل البلاد المفتوحة أفواجاً في الإسلام وما سمعنا أن محاضرة في الإسلام دُعوا إليها ولا رسالة فيه وُزِّعَت عليهم، ولكنها أخلاق المسلمين هي التي أدخلتهم في الدين. على أننا نحتاج مع ذلك إلى دعاة يلخّصون أصول الإسلام في كلمات ويلقونها في جلسات، وتكون أسوتهم برسول الله ﷺ، يجيئه الأعرابي المشرك فيقيم معه اليوم واليومين ويسمع منه الحديث والحديثين، لا يقرأ عنده كتاباً في الفقه ولا يتلقى دروساً في التجويد ولا يحفظ قواعد الأصول ولا يلقن أدلة العقائد، ويصير بذلك مسلماً، ويرجع عالماً، ويكون داعي قبيلته ومرشد قومه. وانتشر بذلك الإسلام وعمَّ ثلثَ المعمور في أقل من ثلث قرن.

واجتنبوا الغلظة في الدعوة، فإن لبعض المتديّنين غلظة تنفّر من الدين. ودعوا الرقة التي تُذهب الرجولة وتجري بالداعي مع هوى الخصم. واعرفوا أقدار نفوسكم ليعرف الناس أقداركم، فمَن أهان نفسه لم تكرم على أحد بعده. وابتغوا القوة في كل شيء، فلا شيء كالقوة يزين الرجال، قوة الجسم وقوة العلم، وقوة اللسان وقوة الجنان، فلقد كان محمد ﷺ رجلاً كامل الرجولة، وكان رياضياً صبوراً. لما صرخ النذير بالمدينة وابتدر المسلمون أفراسهم (وكانت مرتبطة بأفنيتهم) وأسرعوا رأوا رسول الله قد سبقهم إلى الحمى على فرس عار بلا سرج ولا لجام، وعاد يقول: لا تراعوا. ولما تحداه ركانة، بطل المصارعة في الجزيرة العربية، صارعه ﷺ فصرعه، ثم صارعه فصرعه، فأسلم الرجل. وكان يسابق السيدة عائشة، فإذا جد الجِدّ وحمي الوطيس احتمى به أبطال الحروب وفرسان الملاحم. وكان إذا القادة تخفّوا في مثل هذا الموقف واستتروا ينادي: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب». فاجمعوا القوة من أطرافها، واستكملوا أسباب الرجولة، واستعدّوا فإن الرجاء منوط بكم والأمل معقود عليكم، أنتم يا من أدركوا مقاصد الشرع وعرفوا حاجات العصر.

إن شعلة الإسلام اليوم وسط هبّات من زوابع الباطل، ولن تنطفئ إن شاء الله، وستخمد هذه الرياح كما خمدت من قبل رياح أشد منها قوة وأعلى عزيفاً. ولكن لا بد من دفعها عن الإسلام، فدعوا «النسفية» و«السنوسية» و«شرح المواقف» والرد على أقوام بادوا ولم يبقَ لهم أثر ورواية شُبَهِهم ودراية ضلالاتهم، واعمدوا إلى الرد على الشيوعية والقاديانية وأهل الإلحاد والداعين بدعوة الجاهلية، وما في كل بلد إسلامي من جند إبليس وكل محب للظهور، على فراغ في رأسه وضعف في علمه، يعجز عن ولوج العظمة من الباب فيدخل من النافذة، فيأتي بحماقة يحسبها فلسفة ويظنها مذهباً اجتماعياً، ويقلده فيها من هو أجهل منه جهلاً وأشد حمقاً.

وشر من هذه المذاهب كلها هذا الفجور البادي في المجلات والأفلام وعلى الشواطئ وفي النوادي، وهذا الاختلاط في الأسواق والسينمات وفي الجامعات، هذا هو السهم السموم الذي يقصد كل قلب، وذلك لأن تلك النِّحَل والمذاهب لا تجد لها إلا عند الأقل رضاً وقبولاً، أما ما يثير الغرائز ويحرك الشهوات فلا يكاد يخلص منه إلا من عصم الله، وقليل ما هم.

ولا تشتغلوا جميعاً بمناظرة أهل تلك المذاهب الضالة،

لا خوفاً منهم، فالإسلام لا يخاف من مناظرة أحد، ولكن خوفاً على جهدكم ووقتم. وليتفرَّغْ لهم قوم من كباركم، ممن قَوِيَ في العلم وتمرس بالجدل، واعلموا أنهم أقل وأذل من أن تجعلوهم شغلكم.

ودعوا المناقشة بينكم في الأمور الاجتهادية وما لا جَدَى منه ولا نفع فيه، فلقد ضاع من وقت هذه الأمة ومن تفكير أبنائها في الكلام في التوسل حِلّه وحرمته، وفي الهجوم على الوهابية والدفاع عنها، وفي محاربة الصوفية وتأييدها، ما لو أنفق بعضه في العلم النافع لسبقنا به في طريق الحضارة سبقاً بعيداً. وما دام أمامَنا عدو واحد هو الكفر البارز والمستتر، والفجور الظاهر والباطن، فلنحارب هذا العدو أولاً ولنصمد له جميعاً، ولندع الخلاف بيننا -معشر أهل الدين- إلى ما بعد ذلك. ولا يبلُغْ بنا ضيق الفكر وقِصَر النظر أن نجعل همنا كله توافه الأمور، كإطلاق اللحية وإرسال العَذَبة وترك الدخان، وأمثال ذلك مما وقفت عنده همة أقوام نعرفهم فلا يشتغلون إلا به ولا يقبلون إلا عليه، وأمامنا ما هو أهم وأجدى وأعظم عند الله خطراً وأظهر في الأمة أثراً.

واعلموا أن أولى من ذلك كله بكم وأوجب عليكم، أن تدفعوا عنا شر ما ابتلانا به الضعف والتخاذل، وهو أنّا أغنى أمة في الدنيا في التشريع[1]: أصول نظرياته وفروع مسائله، ولدينا منه كنز هائل، ولكنّا تركناه ورحنا «نشحد» فضلات موائد التشريع عند الأمم نأخذ من كل مائدة لقمة، حتى صار تشريعنا كطبق

(١) الفصيح هو الشرع لا التشريع، ولكنه حرف تمكن من الألسنة والأقلام.

المسحِّر، فيه من كل شيء وليس فيه شيء! وصار عجباً في التخليط وعجباً في ضعف اللغة وركاكة التعبير[1] وقصور اللفظ وغموض المعنى، ولو لم يكن هذا التشريع لنا ديناً لكان علينا أن نتمسك به لأنه ثوبٌ فُصِّل علينا وقُطع على مقدارنا وأُخِذ من أعرافنا وأوضاع ناسنا، فكيف وهو مع ذلك دين، إن تركناه تركنا ديننا وكفرنا بإسلامنا.

وليس الذنب كله على مَن جاء به من عند غير الله، ولكن الذنب (كما قال ابن القيم) على العلماء الذين ضيقوا الواسع من شرع الله وحصروا الدين في كتب المتأخرين، فلما لم يجد عندهم الحاكمون علاج الداء الذي يجدون أعرضوا عنهم وطلبوه من غيرهم. ولا تكون العودة إلى التشريع الإسلامي بالخطب ولا بالصياح، بل بأن يتفرغ قوم منكم إلى استخراج القانون المدني الشامل من كتب الفقه من المذاهب الأربعة، وأوسعها الحنفي والمالكي: الحنفي لأنه صار مذهب الدولة طول عهد العباسيين والعثمانيين، والمالكي مذهب الدولة في الأندلس والمغرب إلى اليوم. ثم الشافعي ثم الحنبلي، ومن مذاهب غيرهم إن صحَّ نقلها وقام دليلها، من المحلى لابن حزم والفتاوى والرسائل لابن تيمية والأعلام والطرق لابن القيم[2] وأمثالها.

(١) انظر مقدمتي لرسالة «لغة القانون» للدكتور عدنان الخطيب.

(٢) نأخذ منها عند الضرورة وللتشريع العام وعندما يصحّ دليلها، أما أن نرجع إليها ونَدَع مذاهبنا كما يصنع قوم أولعوا بآراء ابن حزم وجعلوها مادة لدروسهم ومرجعاً لفتاواهم فلا. وابن حزم -على علمه- لا يُفتى بأقواله.

ومِلاك الأمر كله أن يكون منكم فِرَق كفرق الجيش؛ ففرقة للعلم والانقطاع إلى كتبه، وفرقة لدعوة المسلمين إلى الرجوع إلى دينهم، وفرقة لدعوة غير المسلمين، وفرقة لمحاربة الدعارة والمذاهب الضالة، وفرقة للعمل في التشريع الإسلامي...

وعليكم بكتبكم، لا يزهّدْكم بها ويصرِفْكم عنها عداوةُ أقوام لها وسخرهم منها ونبزهم إياها بالكتب الصفراء، فما في الصفرة عيب والذهب أصفر مُذ كان الذهب، ولكن العيب أن نكون عوناً للعدو على أنفسنا. ولقد رأى العدو عظمة المكتبة الإسلامية فحسدَنا عليها، فعمل على صرفنا عنها. وما أظن أن البشر صنع شيئاً أعظم منها، وإنكم لتعلمون ما أصابها من النكبات، نكبة هولاكو لمّا ألقاها في دجلة فسوّدت بياضَ الماء، والإسبان لما أوقدوها ليالي الفتح فبيّضت سوادَ الليل، وما أصابها من نكبات الأفراد من التخريق والتمزيق والتحريق، حتى لم يبقَ منها إلا الأقل، ولا تزال المطابع في الشرق والغرب تطبع مخطوطات هذا الأقل ولم يُطبَع من مئة سنة إلى اليوم ربعه ولا خمسه، فكيف لو وصلت إلينا كاملة؟ وكيف لو كانت المطبعة معروفة على عهد الجدود؟

ولكن لا تقفوا عندها، ولا تكتفوا بكيمياء العرب عن كيمياء الإفرنج ورياضة ابن الهيثم عن رياضة آينشتاين، كلا، ولا بفقه ابن عابدين[1] عن الاستنباط والبحث ومعرفة حكم الله فيما جدَّ من أحداث وما تبدّلَ من أعراف، على أن يكون وقوفكم عند الكتاب

(١) ابن عابدين أعظم فقيه نعرفه نشأ في القرون الثلاثة الأخيرة.

والسنة وقواعد الإسلام، لا تكونوا عُبّاد نصوص المتأخرين ولا تحكّموا آراءكم وأهواءكم في الدين.

* * *

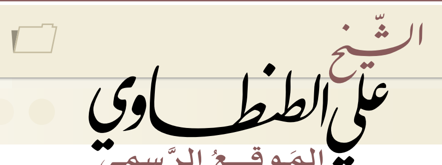
وما بكم حاجة إلى نصح مثلي وفيكم المشايخ الأعلام أئمة الدين، ولكنها ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين.

وثقوا بأن المستقبل لنا، للإسلام. إن العالَم اليوم على فم البركان، والناس صفان يتباريان أيهما يسبق فيحمل إلى الدنيا الموت والخراب، ولا أمل إلا بكم، بشباب المسلمين؛ فإن لم تحققوا الأمل يستبدل الله بكم قوماً غيركم، أمة حية ترفع راية الإسلام، ونبقى نحن لا دنيا ولا دين. ولن يكون ذلك إن شاء الله أبداً، لن يكون وفينا الصالحون المصلحون والعلماء العاملون.

* * *

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



ماذا يراد بالأزهر؟

نشرت سنة ١٩٥٥

أنا لا أقرأ هذه المجلات المصرية، وأمنعها أن تدخل بيتي كما أمنع نفسي أن تدخل بيوت الفحش، وأنزّهها عنها كما أنزهها عن مواطن الإثم، لذلك لم أرَ شيئاً مما كتب طه حسين في هذا ولا ما كتبوا عنه، حتى خبّرني صديق لي أن طه حسين يقترح إغلاق الأزهر. إي والله؛ طه المصري المسلم يطلب إغلاق المعهد الذي علّمه وأفضل عليه، والذي هو فخر مصر ومهوى قلوب المسلمين.

الأزهر الذي جعل لمصر في دنيا الإسلام من المنزلة في القلوب والحرمة في النفوس ما ليس لبلد بعد المساجد الثلاثة، فلا تُذكَر مصر إلا ذُكِرَ الأزهر، ولا يتمنى مسلم الحج إلا تمنى معه زيارة الأزهر، والذي صيّر مصر «مُعلّمة» العالم الإسلامي، عن علمائها يُؤخَذ العلم ومنهم يُتعلَّم التقى، وغاية أمانيّ الشامي والعراقي والأفغاني والهندي والبخاري والتركي والجاوي والملاوي، وكل شاب مسلم في الشرق والغرب من الصين وأندونيسيا إلى مراكش والصومال وألبانيا والمجر، أن يرحل إليهم ويكون له شرف القعود بين أيديهم.

الأزهر الذي بقي ألف سنة وهو أمل المسلمين في أرجاء الأرض كلها، لمّا ادلَهَمّ ظلام الجهل وتراكبت دجى الشهوات، وتتالت عواصف النكبات والأرزاء وكاد يملأ القلوبَ اليأسُ، نظروا إليه فرأوا مصباحه لا يزال يضيء، يلمع من بعيد كالمنار الهادي يبدو للسفن الضالّة في سواد الليل يدلها على الشاطئ الآمن، فسعوا إليه يقبسون من نوره ما يبدد ظلام الأحداث.

الأزهر الذي كان يتسابق الملوك إلى رفع دعائمه وتوسيع جنباته وعمارته: عمارة الإشادة والبنيان، وعمارة العبادة والإيمان؛ فلا يرى الملك أنه كُتب في التاريخ حتى يترك في الأزهر أثراً. الأزهر الذي كان يجيئه الحاكم الجبار، فإذا دخل حماه وجاز عتبته أحسّ أن سلطانه وجبروته قد بقيا خارج الباب، فطأطأ الرأس خضوعاً ثم جاء حتى قبّل يد الشيخ وقعد في حلقته مع أصغر تلاميذه. الأزهر الذي طالما ورده الغلام الجاهل، الريفي أو الأعجمي، ثم صدر عنه وهو إمام العربية وحجة الله على الناس، فأحيا به الله قرية أو بلدة أو قطراً كاملاً.

الأزهر الذي وقف في وجه الزمان، وتكسّرت على جدرانه أمواجُ الأحداث، ولم تَلْوِ به ولم تزعزعه نكبات الشرق ولا نكبات الغرب، لا جحافل المغول نالت منه ولا جيوش الصليبيين، أفتكون نهايته أن يقضي عليه الحكّام المسلمون في البلد المسلم؟

أبعدما لبث أكثر من ألف سنة؟ هل في الأرض جامعة نيّفَ عمرُها على الألف سنة؟[1] ألف سنة! كم أقيم فيه خلالها من

(١) إلا الأزهر وجامع القرويين بفاس.

صلاة؟ كم ألقي فيه من دروس؟ كم ظهر فيه من علماء؟ كم انبثق عنه من مصنَّفات؟ كم أحيا بالعلم عقولاً كانت ميتة؟ كم أنار بالموعظة قلوباً كانت مظلمة؟ كم صُفّت على ثراه أقدام تقوم فيه وراء سجف الظلام لا يدري بها إلا الله؟ كم وُضعت عليه من جباه كريمة ما كانت تذل في طلب الدنيا لأحد؟ كم ارتفع من جوف الأزهر في جوف الليل من دعاء صادق من قلب مخلص، فمضى يشق الفضاء حتى يصل إلى الله؟ كم تُلِيَ فيه من قرآن من لسان ذاكر وفؤاد شاكر؟

سلوا هذه الحجارة تخبركم -لو كانت تنطق- أنه ما من موطئ قدم فيه إلا وقد شهد من حِلَق العلم ومجالس الذكر ما لا يحصيه إلا الله. تحدثكم حديث المشايخ الذين «كانوا» أعزَّ من الأمراء وأنبلَ من الملوك، يسعى السلاطين إلى أبوابهم ولا يسعون إلى باب أحد، ويبتغي الحاكون ما عندهم ولا يبتغون ما عند أحد؛ عزّوا بالله عن الخلق فأحوَجَ اللهُ إليهم الخلقَ، وقنعوا بالقليل من الدنيا فألقت بنفسها على أقدامهم الدنيا. إن الإفرنج (يا من يقلد الإفرنج ويرى اتباعهم رشداً) يحجّون إلى بيت العالم من علمائهم، يدخلونه متخشّعين يتلمّسون مواطن قدميه ومواقع جنبيه، ويتبركون بموضع طعامه وسرير منامه، فما لكم والأزهر بيت أئمتكم وعلمائكم من ألف سنة تريدون أن تغلقوه؟ أن تغلقوا (يا ويلكم) الدار التي عاش في جنباتها عشرة آلاف عالم، لو كان الواحد منهم لأمة من أمم الإفرنج لجعلت مدرسته معبداً مقدساً.

إنه لولا الأزهر لاستطاع الفرنسيون أن يقولوا إن الصوربون أقدم جامعات العالم، فتصوروا لو أن أحمق كطه حسين قام في فرنسا يقول: "يا أيها الفرنسيون، أنصحكم أن تغلقوا الصوربون، مجدكم وعزكم ومناط فخاركم". ماذا ترونهم يصنعون به؟ إنهم يرجمونه بالحجارة! ذلك لأنهم شعب يعرف قيمة أمجاده ومفاخره.

سيقول قائل إن الصوربون جامعة عصرية ولكن الأزهر شيء قديم، أي إن أهله (بعض أهله مع الأسف) لا يزالون يتخذون العمائم والجبب ويتبعون بعض طرائق القرون الوسطى[1]. فهل علم هذا القائل أو رأى ما يلبسه رجال الجامعات في أوربة وأميركة: هذه الجبة الواسعة التي تشبه الملاءة المصرية ذات اللف، وهذه القبعة المضحكة ذات السقف المشرف كسقف كوخ الحارس، والطرر النازلة كطرر قراكوز؟ هذا اللباس لا يُنتقَد ولا يقال فيه لأنه لباس الأقوياء الذين يملكون القلاع الطائرة والقنابل الذرية، أما الجبة والعمامة فشيء رجعي قديم يستحق أهله أن يحكم عليهم -عقوبة لهم- بإغلاق جامعتهم!

أما الطرائق القديمة في الأزهر، فهل سمعتم بنظام أكسفورد وكامبردج؟ إن فيهما إلى اليوم من الطرق والأساليب في معاملة الطلبة وترتيب حلقاتهم وحياتهم الداخلية ما لا يختلف عن أنظمة التكايا والمدارس الشرقية من مئة سنة إلا بأنهم أفظع وأقسى من كل ما كان في التكايا والمدارس، فهل يجرؤ طه حسين أن يذهب إلى الإنكليز فيقول لهم: "أغلقوا كامبردج وأكسفورد"؟ إنهم يضعونه

(١) من جهالات المقلّدين اتخاذهم القرون الوسطى رمزاً للتأخر والانحطاط والجهل، وإنها لكذلك ولكن في أوربة، أما عندنا فالقرون الوسطى هي عهد الحضارة الإسلامية.

في عربة المجانين فيحملونه فيلقونه في البحر، ليسبح حتى يبلغ مصر فيقول ذلك فيها!

قل هذا في مصر تكُنْ حبيبنا وصديقنا، ونصفق لك بأيدي أعواننا فيها وإخواننا، ونؤيدك بأقلام جماعتنا وأصحابنا، ونشكرك لأنك تزيح من طريقنا أكبر عائق لنا وهو الأزهر، أما أن ترمينا بسهمنا وتقولها لنا في بلادنا وتدعونا أن نغلق مفخرتَينا، كامبردج وأكسفورد، فلا؛ لا يا شاطر!

* * *

وبعد، فأنا أعرف أن طه حسين مولع بالخلاف مُذْ كان طالباً في الأزهر، فاستطال عليه طريق التحصيل فتركه وقفز من فوق السطوح كي يبلغ الغاية بلا كد ولا تعب، إلى أن صار (شيئاً) كبيراً يُشار إليه بالبنان ويُعجَب به الأغرار والشبان، وأنه ما نال ما نال من ذيوع الاسم وعلوّ المنصب إلا بهذا؛ لا ببلاغة أسلوب، فأسلوبه أبعد الأساليب عن البيان المشرق والمعنى البكر والمجاز العبقري، ولا بتصرف في فنون القول، فليس له إلا ثوب واحد للشتاء والصيف والبيت والمدرسة يخرج فيه إلى الشارع ويدخل به في الفراش، أسلوب واحد للقصة (وما نجح في قصة قط) وللبحث وللوصف (وليس بالوصّاف) وللمقالة السياسية... ولا بأثر خالد، فكل آثاره من الأدب الوسط، ليس فيها أشباه «الأجنحة المتكسرة» (على ضعف أسلوبها) ولا «في المرآة» (على تكلف فيها)؛ ليس له صناعة الزيات، ولا استعارة الرافعي، ولا سلاسة المازني، ولا طبع أحمد أمين، ولا فكر العقاد، ولا فتنة الجمال في أسلوب زكي مبارك، ومتى ارتفعَت عن عيون الشباب غشاوة التقليد رأوا أن هذا الذي أقول هو محض الحق.

ما عنده إلا المخالفة؛ إن ذهب الناس يميناً ذهب شمالاً، وإن أقبلوا على شيء أدبر عنه، وإن أدبروا عنه أقبل عليه. إن قالوا إن القرآن حق وصدق قال هو (في الشعر الجاهلي) إن للقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ولكن ليس علينا أن نصدق ما يقول القرآن لأن القرآن ليس كتاب تاريخ! وإن قالوا: امرؤ القيس ومجنون ليلى. قال: ما كان قط امرؤ القيس ولا مجنون ليلى. وإن رأوا الأزهر مفخرة مصر وشرفها وعزها، قال: أغلقوا الأزهر وأريحونا منه!

ولا يريد بذلك كله إلا أن يُتَحدَّث عنه، ولو باللعن كما يُتحدث عن إبليس! كلما سكت عنه الناس طلع بحماقة جديدة من حماقاته فتكلموا فيه، والدليل على أن هذا مراده وأنه لا يعتقد شيئاً، وأنه ليس مؤمناً ولا كافراً ولا محافظاً ولا مجدداً وإنما هو طالب «شهرة»[1]، أنه يرجع آخراً فيكذّب نفسَه في كل ما قاله أولاً؛ كذّبَ القرآنَ ثم رجع يصدّق القرآن، وأنكر الشعر الجاهلي ثم عاد يشرح الشعر الجاهلي، وسينسى غداً ما قال في إغلاق الأزهر ويكون من خطباء الاحتفال الكبير بانتصار الأزهر على هذه الحملة الجديدة (كما انتصر من قبل على حملات لا تُعَدّ هذه -إن قيست بها- شيئاً).

ولو اقتصر الأمر على ما كتب طه حسين لم أحفله ولم أبالِ

(١) أصل الشهرة في اللغة: الفضيحة. وفي الحديث: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة».

بالرد عليه، ولكن هؤلاء الصحفيين (وهم أشد ما ابتلى الله به هذه الأمة) قد علّقوا[1] وكتبوا وحاولوا خداع الناس، فلذلك «نزلت» إلى الكتابة في التعليق على ما قال وما قالوا.

وأنا لم أقرأ ما كتب ولا ما كتب عنه، ولا أحتاج إلى قراءته لأنها ليست مناظرة علمية في مسألة لها وجهان لا بد فيها من معرفة مقال الخصم للرد عليه، بل هي إبطال لمسألة ظاهرة البطلان ولا وزن لما يقوم لإثباتها من أدلة. فأنا أستطيع (إن تركت ديني وأخذتها على أنها قضية بيان) أن أقبّح الحَسَنَ وأحسّن القبيح (كما كان يصنع شيخنا الجاحظ)، وأن أقيم الدليل على وجوب هدم المآذن لأنها لم تكن في أول الإسلام ولأنها تكشف عورات الناس ولأن مكبرات الصوت تغني عنها، وعلى ضرورة منع الأذان لأن الناس كلهم عندهم ساعات يعرفون بها الأوقات والأذان يزعج المرضى والنائمين ويسوّئ الإسلام في عيون السيّاح والأجانب ومن مصلحة الإسلام تحسينه في عيونهم ليدخلوا فيه، وعلى لزوم منع طبع المصاحف عشر سنين لأن نسخها اليوم كثيرة وكثرتها تؤدي إلى تعطيلها وإهمال القراءة فيها واتخاذ هذا القرآن مهجوراً، وعلى جواز تحويل المساجد إلى مدارس لأن الصلاة تجوز في كل مكان والتعلم لا يكون إلا في بيوت مخصصة له مقصورة عليه، ثم نجعلها بعد المدارس نوادي للمحاضرات ثم مسارح للتمثيل، أعني التمثيل الأخلاقي الذي ليس فيه إلا العناق والقبل، فقط لا غير!

وكذلك ننقض عرى الإسلام عروة عروة بمثل هذا المنطق

(١) أو «علّكوا»، وإنما أعني بعض الصحفيين لا كلهم.

الشيطاني. وللشيطان مداخل عجيبة، وقد يحاول هدم الدين بحجة الدفاع عن الدين وقد يسخّر لذلك جماعة من المتسمّين بالعلم والصلاح، كما سخّر شيخاً في الشام فأفتى بسقوط فرض الحج بحجة أنه لا بد فيه من الخضوع لقوانين الكفار من لصق الصورة على الجواز واتباع طرق المكوس وما لست أدري ما هو الآن، نسيته لبعد العهد به، وسخّر آخر فأفتى بأنه لا زكاة في النقد الورقي، لا في الليرة السورية ولا في الجنيه ولا الدينار، ولا ربا فيه، فأسقط الزكاة وأحل الربا وهو يظن أنه يقرر أحكام مذهب الشافعي! وثالثاً في مصر كاد ينسخ وجوب الصيام، والرابع مَن بلغنا أنه يقول: لا صلاة إلا عند التمكين في الأرض! فلم يبقَ من أركان الإسلام الخمسة إلا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولا ندري متى يرسل إبليس بعض أتباعه المخلصين، خالد محمد خالد أو القصيمي، فيخفّف عن الناس فيريحهم منها!

ولولا أننا اتّبعنا هؤلاء، وكل شر جاءنا -مع الأسف- من عندهم؛ فأغضينا عن النساء حتى كشفن الوجه أولاً، ثم الشعر والنحر، ثم الأيدي والأرجل، ثم تجردن على السواحل كتجرد المرأة لزوجها، وأبحنا الربا ففتحنا له المصارف وحكمنا به في المحاكم، وأقررنا الزنا وأعطينا الزانيات بطاقات (هويات) وفتحنا لهن المنازل، وأقمنا الشرطة على أبوابهن لحمايتهن من رجعي ينكر عليهن، والأطباء لدفع الأمراض عنهن وإعدادهن لممارسة عملهن... لولا هذا ما طمع عدوّنا وعدو الله بتسخير طه حسين حتى يقترح هذا الاقتراح.

ولو كان الذي دعا لهذا إنكليزياً أو إفرنسياً لما عجبت،

ولكن الذي يدعو إليه مسلم ابن مسلم، ناشئ في الأزهر، والذين يسمعون له ويؤيدونه مسلمون أبناء مسلمين! وهذا كله -لو فكرتم- من أثر هذه المدارس الأجنبية التي تراها حيثما ذهبت من ديار الإسلام، في دمشق وبيروت وعمّان والقاهرة وبغداد... وفيمَ جاء هؤلاء؟ حبّاً بنا؟ ومتى كانوا يحبوننا ويعشقون دعج عيوننا وحمرة خدودنا؟ إنهم ما جاؤوا إلا لهدم ديننا، ونحن نبعث إليهم بأولادنا ونعطيهم أموالنا ليجعلوا من أولادنا أعداء لنا ولديننا، فهل في الغفلة أبعد من هذا؟ وهل رأيتم أو سمعتم أن نصرانياً وضع ابنه في مدرسة مشايخ؟ فلماذا نضع أبناءنا في مدارس الرهبان وبناتنا في معاهد الراهبات؟

إن كل شر نراه (ومنه هذا الاقتراح) من عمل هذه المدارس. وهل تظنون أن طه حسين اقترح إلغاء الأزهر من عند نفسه؟ إن طه، مذ كان طه، بوق الفرنسيين؛ يدافع عن بلدهم ويدعو إلى ثقافتهم ويكتب في تمجيدهم، وهم إنما يحاربون الأزهر لأن لواء الثورة على الاستعمار والجهاد للحرية والاستقلال إنما عُقد فيه وخرج منه، وأنه كان دارَ القيادة لهذا الجهاد من سنة ١٩١٩ إلى كل ما كان (في مصر وفي غير مصر) من ثورة على الظلم وعمل للحرية والمجد. وما يريدون من إغلاق الأزهر إلا أن يتفرق طلابه وطلاب معاهده ومدارسه، طلاب يزيدون على أربعين ألفاً، في هذه المدارس: التبشيرية منها كالجامعة اليسوعية في بيروت والفرير والعازارية وتيراسانتا، والإلحادية كالجامعة الأميركية في بيروت[1] وبناتها في مصر والشام والعراق واللاييك، والتي في مدرّسيها الصالح وفيهم خريج هذه المدارس كالجامعات الحكومية في البلاد العربية، ولكن ذلك لن يكون أبداً.

* * *

هذا ولست أدافع عن الأزهر اليوم لأنه كامل مكمَّل مبرَّأ من العيوب، لا والله، ولَلأزهرُ القديم كان أتقى لله وأحرص على الدين، ولَلأزهرُ القديم -في كتبه الصفراء وبُسُطه الممزَّقة وسُرُجه الخافتة- كان أعزَّ وأكرمَ وأحفظَ للعلم، وأزهدَ في الدنيا وأرغبَ عن مناصبها وأموالها، وأعظمَ في عيون حاكميها وملوكها... وإن كان هذا أكثر ترتيباً وأفخم مظهراً، وكان أهلُه أطلقَ عقولاً وأبلغَ ألسنة وأحدَّ أقلاماً.

ولو بقي أهل الأزهر كما كانوا، يطلبون العلم لله لا للدنيا ويرغبون فيما عند الله لا فيما عند الخلق ويعملون لرضا الله ولليوم الآخر لا للمناصب والمراتب ولا لرضا السلاطين، لما جرؤ عليهم أحد. ولكنهم أرادوا الدنيا فرماهم الله بواحد من صغار أهلها، بطه حسين، كما رمى العرب لما جانبوا شرعة محمد ﷺ وتنكّبوا طريقه بأذل الخلق: اليهود!

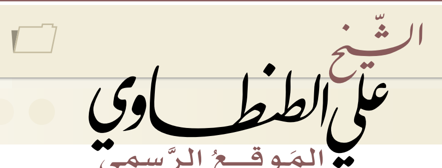
ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

---

(١) وهي أشدها خطراً. اقرأ كتاب «التبشير والاستعمار» للأستاذين= الخالدي وفرّوخ، وهو كتاب عظيم أرجو ألّا تفوت مسلماً متعلماً قراءتُه ليرى أن هذه الجامعة كان اسمها الكلية الإنجيلية، والغاية منها التبشير والأموال التي أقامتها أموال المبشّرين. ولكنها لما عجزت عن إدخال أبناء المسلمين في النصرانية اكتفت بإخراجهم من الإسلام!

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحة من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



دروس الديانة في المدارس

نشرت نحو سنة ١٩٥٩

قرأت «تصريح» وزير المعارف الذي بيّنَ فيه أن الوزارة لا تفكر في تخفيض عدد ساعات دروس الديانة بل تبحث في زيادة عددها.

وأنا أشكر الأخ الوزير الدكتور حومد، ولم أكن أنتظر منه إلاّ هذا، لذلك تردّدت في تصديق ما نقله الناس عنه من أنه يريد نقص هذه الساعات أو إعفاء الطلاب من الامتحان في الدين.

وما كتبت هذه الكلمة لمجرّد الشكر بل لأنبّه الوزارة إلى أمر ما أحسبها إلا متنبِّهة له، ولكنها تتغافل عنه. ليس عندنا شيء اسمه علم الديانة ولا يعرفه علماء المسلمين، وليس في كتبنا كتبٌ في هذا العلم، إنما الذي عندنا علم الفقه وعلم أصول الفقه وعلم التجويد وعلم الحديث وعلم التفسير وعلم مصطلح الحديث، وأشباه ذلك من العلوم التي ألفت فيها آلاف الكتب وظهر فيها آلاف العلماء، تجمعها كلها كلمة «الدّين» كما تجمع كلمة «الرياضيات» في المدارس بين الحساب والهندسة بأنواعها، المسطَّحة والفراغية والنسبية، والجبر والمثلثات، وكما تجمع كلمة «الطبيعيات» بين الفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعي وعلم النبات وعلم الحيوان. ولو قلنا لمدرّس الرياضيات: أعطيناك ساعة في الأسبوع أو ساعتين لتدريس هذه المادة، لصعق من دهشته وقال: وماذا أصنع بساعتين؟ هل أدرّس فيها الحساب أم الهندسة أم الجبر أم ماذا، وكل علم من هذه العلوم يحتاج إلى أكثر منها؟

فكيف نطالب مدرّس الدين أن يوسع ساعتين لدرس هذه العلوم كلها؟

وسيضحك كثير من «التقدميين» من هذه المقابلة لأنهم تعوّدوا أن يروا الدين دائماً في المرتبة الثانية، ولأنهم رُبُّوا على احترام هذه العلوم وتقديمها عليه. ولكن هل هذا هو الواقع أم أنهم هم المخطئون؟

الصحيح أنهم هم المخطئون، وأيسر دليل على خطئهم أنهم يحكمون على الدين من غيرمعرفة به أو اطّلاع عليه، ولو حلّلتَ ما في نفوس هؤلاء الإخوان لوجدت أنه ليس للدين في نفوسهم إلا صور مشوَّهة رسمها بعض من عرفوا من جهلة المشايخ ومن سخفاء العامة الذين يدّعون التديّن والصلاح، ولقد صرّح لي بهذا الأستاذ ساطع الحصري في حديث طويل كان بيني وبينه في مصر سنة ١٩٤٧ بحضور الأستاذ نهاد القاسم، ونشرته في يومه.

ونحن نُقِرّ بهذه المبادئ الغربية التي تقول بفصل الدين عن العلم والدين عن السياسة؛ إنها صحيحة بلا شك بشرط أن تفهم معناها عند من وضعوها. إن الغربيين الذين وضعوا هذه المبادئ يقصدون بالدين ما يحدّد صلة الإنسان بالله، ومن هنا قالوا: «الدين لله والوطن للجميع»، ونحن نقول مقالتهم ونفصل بين الصلاة

والصيام وبين السياسة والعلم. ولكن الإسلام ليس ديناً فقط يحدد صلة الإنسان بالله، بل هو دين وتشريع وقانون دولي وأخلاق، وهو يحدّد صلة الأفراد بعضهم ببعض، وصلة الأفراد بالدولة، وصلة الدولة بالدول الأخرى، ويرسم طريق الأخلاق والسلوك... فالإسلام -إذن- ليس ديناً فقط لتطبَّق عليه هذه القواعد، بل هو نظام كامل للحياة لا يشابهه في هذا دين من الأديان التي يتّبعها البشر.

والعلوم الإسلامية -بناء على هذا الأساس- قسمان: قسم منها للدين فقط كالعبادات، وهذا للمسلمين وحدهم. وقسم هو من الثقافة العامة؛ كفهم القرآن باعتباره النص البياني الأول في اللغة العربية، ودراسة الفقه الإسلامي في المعاملات باعتباره أكبر مصدر تشريعي في العالم بكثرة نظرياته وعمقها ولأن غير المسلمين من أمم أوروبة تدرسه أوفى دراسة وتعرف قدره، والعناية بنصوص الأحاديث ولو من الناحية البيانية فقط، وما إلى ذلك من العلوم الإسلامية التي يجب أن يدرسها -في رأيي- المسلم من الطلاب وغير المسلم، للبيان وللخلق وللثقافة؛ أي للعربية التي نشترك فيها جميعاً، ولأنها تراث قومي لا يختلف فيه مسلم عن نصراني، ولأن أعلام النصارى وفصحاءهم وأهل البيان فيهم كاليازجيين والبستانيين وفارس الخوري وبشارة الشاعر وأمثالهم ما بلغوا هذه المنزلة التي تقصر دون بلوغها الهمم إلا لأنهم تأدّبوا بأدب القرآن والحديث وأخذوا من بيانهما، وما ضرّ الأستاذ فارس بك أنه مطّلع على الثقافة الإسلامية أكثر من كثير من أهلها بل نفعه ذلك وزاده شهرة في الناس.

فلماذا لا يدرس الطلاب جميعاً هذه العلوم؟ لا ما يتعلق منها بالدين الإسلامي وبالعبادات، لا، فهذا للمسلمين وحدهم؛ بل ما يتّصل منها بهذه الثقافة اللغوية والعقلية. وإذا كان الطلاب المسيحيون يكرهون أن يَقرؤوها على المشايخ في دروس الدين فإن في غير المشايخ، وإن في المستشرقين حتى الأجانب منهم، من يستطيع أن يُقرئهم هذه العلوم. أقول هذا ليعلموا أننا لا نريد بها أن نضطرهم إلى ما يكرهون ولا نحتال عليهم بها لنجبرهم على الدخول في الإسلام، وأنه ليس لهذا الكلام ظاهر وباطن، ما فيه إلا ما يدل عليه ظاهره. وحين يطّلع هؤلاء «التقدميون» الذين ربّاهم الأجانب على اعتبار الإسلام «بعبعاً» مخيفاً وشيئاً عتيقاً رجعياً، حين يطّلعون على الإسلام الحقيقي، لا الإسلام الذي صوّره بعض المشايخ أو رأوه في بعض الكتب المتأخرة، يسعون هم أنفسهم إلى تعلّم علوم الإسلام ويسعى إليه النصارى للعلم لا للدين. ومن لم يصدّق فليسأل الأستاذ الكبير فارس بك الخوري عن قيمة الثقافة الإسلامية وعن أثر القرآن في الفصاحة والبيان.

* * *

الطّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع

كلمة في المعجزات والكرامات

نشرت سنة ١٩٤٠

هذه كلمة موجزة أحب أن أخاطب بها عقول هذه الفئة الملحدة منا، على علمي بهوان العقل عليها وخفّته في ميزان هواها، وما علّمتنيه الأيامُ من أن هؤلاء الملحدين يقولون «العقل» و«العقل يقضي» ولا معنى لذلك عندهم إلا أن الذي يقضي ويقول إنما هي الكتب التي قرؤوها مترجَمة أو بلسان أهلها. وأن الحق ليس الذي يقابل الباطل، ولكن الحق عندهم ما جاءهم من حيث تغرب الشمس وما كان سنده خلواً من كل اسم شرقي.

وإلا فخبّروني: في أي عقل يستقيم للملحد المنكر الخالقَ أن ينكره باللسان الذي منحه إياه ذلك الخالق؟ أم تبلغ به الغفلة أن يدّعي أنه هو الذي صنع لسان نفسه ووضع هذا العقل في رأسه؟

إنها ثلاثة لا رابع لها: إما أن تكون قد خلقت نفسك، وهذا أوهن «الفروض» وأهونها. وإما أن يكون قد خلقك ما ترى حولك من «المخلوقات» فيعطيك العقلَ جبلٌ لا عقل له أو بحرٌ أو نجم. أو أن تقرّ أن في الوجود موجوداً أسمى وأقدر، وأنه الخير كله والجمال المطلق والكمال الكامل، وذلك هو الله، فتكون مؤمناً بالله!

ولنأتِ إلى موضوع المعجزات والكرامات وخوارق العادات.

ألا نجد أن عدداً عديداً من ناشئة المسلمين ينكرها ولا يصرّح بالإيمان بها، وليس لديه برهان ولا سند عقلي يعتمد عليه في إنكارها إلاّ قوله إن للكون قوانين وسنناً مستمرة على حالها لا يعتريها تبديلٌ ولا تغيير، فالعصا إن ألقيتَها لا تكون إلا عصا، والجبل يُخرج تراباً وحجارة لا يخرج نوقاً ولا جمالاً؟ فما لكم تزعمون أن عصا موسى انقلبت حين ألقاها حية عظيمة، ولا يكفيكم انقلابها حتى تقولوا إنها كانت تلقف ما يأفك السحرة؟ ومالكم تزعمون أن ناقة صالح قد خرجت من الصخرة وما في سنن الكون كلها أن ناقة تخرج من الصخر؟ إنّا لا نصدّق ما تزعمون.

ونقول نحن إنّا نسلّم أن الله عز وجل سنناً في هذا الكون وأن هذه السنن دائمة مستمرة، ولكنا نعلم أن الله هو الذي وضع هذه السنن والقوانين، من غير مُلجئ ولا موجِب ولا رقيب. وأنه لو شاء لجعل مكان جذب الأرض دفعاً إلى العلاء، فكان قانون السقوط عدماً لا وجوداً وكان سقوط التفاحة من يد نيوتن على الأرض حدثاً خارقاً للعادة.

وإذا كان الله قد وضع هذه القوانين بإرادته واختياره، فلا مانع عندنا يمنعه من أن يَقِف[1] قانوناً منها مرّة أو مرّات لحكمة هو يريدها، إذا صحّ عندنا أن الله خبّرنا بذلك عن طريق الوحي.

(١) وقف يتعدى بنفسه، ولا يقال أوقف.

ومعنى ذلك أن المستحيل عندنا على نوعين: **مستحيل في العقل**، وهذا ما لا يتصوّر العقلُ وجودَه أبداً، كاجتماع النقيضين مثلاً (الوجود والعدم) في آن واحد بالنسبة إلى شخص واحد، **ومستحيل في العادة**، وهذا ما يتصوّر العقلُ وجودَه ولكنه لا يراه مألوفاً، كانقلاب عصا موسى حيّة وكالإسراء بالنبي ﷺ من مكة إلى القدس[1]، وليس للعقل إنكاره إذا صحّ الخبر به ولو استبعده أكابرُ المفكرين في عصر من العصور. والدليل على ذلك أنه لو خبّرَ مخبّرٌ أساطينَ علماء الطبيعة في القرن السابع عشر وأكابرَ علمائها يومئذ بخبر المذياع أو السينما الناطقة ووصَفها لهم لكذّبوه وأنكروا كلامه ورأوه مستحيلاً، أفكان المذياع -إذن- مستحيلاً عقلياً في القرن السابع عشر ثم صار الآن ممكناً، أم كان مستحيلاً في العادة والمستحيلُ في العادة قد تمرّ الأيام فيصير من الممكنات؟

هذا، وإنما المسلم حين قَبِل الإسلام واتّخذه ديناً قد أقرّ (ضمناً) بصحّة الوحي وصدق ما اشتمل عليه القرآن، لأن القرآن وَحدة لا يتجزأ، وليس يمكن للمسلم أن يؤمن ببعضه ويكفر ببعضه. فإنكاره شيئاً مما جاء في القرآن (كالإسراء مثلاً) لا شك أبداً في أنه رجوع منه عن ذلك الإقرار وخروج من الإسلام.

* * *

ولا يَقعَنّ في وهم قارئ لكلمتي أن على المسلم أن يسلّم

(١) وكل واحد منّا اليوم يستطيع أن ينتقل من مكة إلى القدس بالطيارة في ساعات، فدل على أن ما يراه الناس في زمن من الأزمان مستحيلاً في العادة يمكن أن يكون واقعاً.

بكل ما يُقال له إنه معجزة أو كرامة، أو يؤمن بما يذاع في بعض الرسائل المطبوعة على أنه حديث المعراج وفيه سماء من ذهب أو سماء من فضة وأن بابها على هندسة كذا وشكل كذا... ولكن على المسلم أن يؤمن بإمكان «جنس» المعجزات والكرامات لأنها واردة في القرآن، ككرامة التي دخل عليها زكريّا المحراب وكرامة الذي عنده علم من الكتاب، ويؤمن «بأفراد» المعجزات والكرامات التي جاءت في الكتاب والسنّة التي تفيد العلم. أما الكرامات التي يرويها الناس فخبرٌ يحتمل الصدق والكذب، فإن لم تصح عنده كرامة من الكرامات المرويّة وأنكرها فلا شيء عليه ما دام مؤمناً بإمكان وقوع جنس الكرامات.

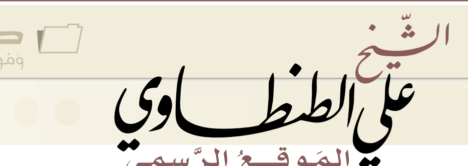
هذا هو الحكم الإسلامي في الخوارق[1]، فهل يرى فيه الماكرون الجاحدون ما يناقض العقل أو يرهقه، وهل يتعارض مع العلم؟ وهل يطمئنون إليه أم هم ينتظرون أن يأتيهم على لسان واحد من أهل «ذاك الصوب» ليكون حقاً مقبولاً؟

* * *

(١) أنصح بقراءة البحث الجيّد الذي يوضح هذه المسألة ويكملها وعنوانه «كرامات الأولياء»، والذي يليه أيضاً، وهما في فتاوى علي الطنطاوي (١/١٧-٢٠) (مجاهد).

الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحة من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع



موقفنا من الحضارة الغربية

محاضرة أُلقيت ارتجالاً سنة ١٩٧٣، سجّلوها وكتبوها نقلاً عن شريط تسجيل[1].

السلام عليكم ورحمة الله

أحمد الله إليكم ثم أشكر الأخ الكريم الذي تفضّل بتقديمي إليكم. ولقد زرت مرة صديقاً لي له طفل صغير، فنزعت عباءتي هذه وألقيتها عليه، فتعثّرَ بها وضاع فيها، فلم يقدر على الخروج منها. لقد صنع بي الأستاذ ما صنعته بذلك الطفل، ألبسني بهذا التقديم ثوباً أوسع مني، فأنا أتعثر به ولا أستطيع الخروج منه، ولكن له مع ذلك أصدق الشكر.

(١) في الحلقة الخامسة من ذكريات علي الطنطاوي التي نُشرت في أواخر عام ١٩٨١ قال: "أما موقفنا من هذه الحضارة فقد ألقيت فيه محاضرة جامعة في «ندوة الشباب العالمية» من نحو عشر سنين في الرياض" (الذكريات: ١/٤٤). وفي الحلقة ١٠٦ (٨٣/٤): "ولقد كتبت في هذا كثيراً، ولكن أجمع ما قلت فيه المحاضرةُ التي ألقيتها في الرياض في ذي القعدة سنة ١٣٩٢ هـ، في الدورة الأولى للندوة العالمية للشباب الإسلامي". قلت: أحسب أنها هي هذه المحاضرة، وهي لم تكن في طبعة الكتاب الأولى التي صدرت سنة ١٩٦٠ ثم أضيفت إليه في طبعة لاحقة (مجاهد).

يا سادة، تفضل الأستاذ فبين لكم أن لجنة التوعية شرفتني فكلفتني من سنتين بأن أتفرغ للعمل معها، فأنا أدور على المدارس وألقى الطلاب[1]. وكنت ألقاهم من قبل أن أتفرغ؛ أستمع إلى مسائلهم وأنظر في مشكلاتهم، وأحاول أن أجيب على السؤال وأن أوضح الإشكال بمقدار ما يبلغه علمي القليل وذهني الكليل. ولقد لقيت طلاب أكثر مدارس مكة وكثير من مدارس جدة والطائف والمدينة والرياض وأبها والخميس وكلية البترول وكلية الهندسة، ودرّست سنين في جامعة الملك عبد العزيز، كما لقيت في رحلة إلى ألمانيا الغربية وبلجيكا وهولندا[2] جماعات لا تحصى من الطلبة المسلمين من أجناس شتى، ولما شرّفني وزير الأوقاف والمعارف من سنتين بالمشاركة في الموسم الثقافي في الأردن عُقدت لي ندوات في أكثر مدنه، ولقيت من قبل في رحلتي إلى المشرق كثيراً من شباب باكستان والهند والملايا وأندونيسيا.

ذكرت ذلك لأقول لكم إن ما عُرض عليّ من هؤلاء جميعاً، من المسائل الفكرية والمشكلات الاجتماعية، يرجع إلى أصل واحد؛ تلتقي كلها فيه كما تلتقي فروع الشجرة في نهاية جذعها،

(١) جاء علي الطنطاوي إلى مكة المكرمة في خريف عام ١٩٦٤ فاشتغل بالتدريس في كلية التربية فيها، ثم أُعفي من التدريس بعد ذلك بست سنوات أو سبع وكُلِّف بتنفيذ برنامج للتوعية الإسلامية، فراح يطوف بالمدراس والمعاهد والجامعات في أنحاء المملكة لإلقاء الدروس والمحاضرات (مجاهد).

(٢) زارها مرتين، عام ١٩٧٠ (وتفصيلات هذه الرحلة في الجزء الثامن من الذكريات)، وعام ١٩٧٦ (مجاهد).

وتصدر عنه كما تصدر السواقي كلها عن العين التي تنبع منها. فإذا نحن استطعنا أن نحدد موقفنا من هذه المشكلة الأصلية حُلَّت المشكلات إلا أقلها، وهي: أن نحدد موقفنا من هذه الحضارة العصرية على هدي الشريعة الإسلامية. ولذلك فرحت لمّا اختارت لي اللجنة الكلام في هذا الموضوع.

يا سادة، لو كُلِّفت بمثل هذه المحاضرة أيام الشباب، أو أيام كان عندي بقية من نشاط الشباب، لاحتشدت لها وكتبتها وتنَوّقت فيها، ولكني كُلِّفت بها بعدما ولّى الشباب وذهب نشاطه، وضاق مني الصدر، وكلّ الصبر، وفترت الهمة. لقد شاخ القلب يا سادتي، فمن قال لكم إن القلب لا يشيخ فلا تصدّقوه!

وأنا أعلم أن مَن يُقدم على محاضرة مثلكم، مثل هذه المجموعة المختارة، وليس تحت يده صحائف مكتوبة، كمَن يدخل المعركة وليس في يده سلاح. أنا أعرف هذا ولكني أعرف أيضاً أنها ليست معركة، وأنني لا ألقى أعداء بل ألقى فيكم أصدقاء وأحباء، أثق أنهم يحبونني لأنني أنظر في قلبي فأرى أني أحبهم، ومن القلب على القلب دليل.

وهَبوها -يا سادتي- معركة، هل فيها إلا الهزيمة؟ فأنا من الآن مُلْقٍ سلاحي رافعٌ الراية البيضاء.

* * *

يا سادتي، الذي يكلَّف الكلام في موضوع مثل الذي يكلف وصف بلد، فهو يجمع المراجع العلمية ويسأل العلماء ويبحث عن طبيعة البلد وأخلاق أهله، ثم يعلو بطائرة الاكتشاف فيرسم للبلد صورة شاملة، وإن تكن مجملة.

هذه طريقة. وقد يتخذ طريقة أخرى، فيصعد على سطح بيته فيصف ما يرى، فيرسم صورة مفصلة موضحة، وإن لم تكن عامة ولا شاملة.

الأولى هي الطريقة الموضوعية والثانية الطريقة الشخصية؛ فإذا سمعتموني أقول «أنا رأيت» و«أنا سمعت»، فاغفروها لي، فأنا أعرف أن أثقل كلمة على الآذان، وإن كانت أخفها على اللسان، هي كلمة «أنا»، وسبب لعنة إبليس أنه قال ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾. ولا أقول «أنا» على أسلوب إبليس، بل على أسلوب المازني وفيكتور هوغو وسائر الأدباء الذين يتخذون صيغة «المتكلم» وكله لفائدة «المخاطب».

هذه كلها مقدمة، وسأبدأ الآن. أبدأ القصة من أولها، لا أروي ما قال الباحثون ولكن أذكر ما رأيت وما سمعت.

لما فتحتُ عينيّ على الدنيا وأخذت أدرك ما حولي كانت دمشق في حكم العثمانيين، وكانت الدنيا على أبواب الحرب العامة الأولى، فإذا عرضت عليكم صورة دمشق في تلكم الأيام وجدتم فيها الصورة المجمَلة للبلاد كلها يومئذ، ورأيتم أن النقلة منها إلى صورتها الآن، هذه النقلة التي تمت في ستين سنة، لا تنتقل الأمم مثلها في ثلاثة قرون.

وهذه الرياض، لقد دعيتم من يومين إلى وليمة في برجها، وأطللتم عليها، ورأيتم سعتها وجمال شوارعها وحدائقها وسوحها،

ورفيع بنيانها وكثرة عمرانها. إن بينكم من عرف كيف كانت الرياض لما زرناها أول مرة سنة ١٣٥٣ هـ، كانت البلدة كلها فيما يسمى اليوم «الديرة»، وكان من حولها سور يحيط بها، وكانت لها أبواب (دروازات، والدروازة الباب في اللسان الفارسي)، وعلى الأبواب أبراج. أترون البرج المبني من الطين على يمين الماشي في شارع الثميري إلى المسجد؟ هذا أحد أبوابها. وكانت بيوتها من اللبن والطين، وكانت أسواقها من الضيق بحيث لو وقف اثنان متلامسَي الأيدي لبلغت أيديهما جانبَي السوق، وكان شارع البطحاء بطحاء حقيقية... هذه هي الرياض التي كانت قبل أربعين سنة كاملة لما زرناها أول مرة، ما كان فيها إلا مدرسة ابتدائية واحدة. فأين هي من «رياض» اليوم، ذات الجامعتين والعشرات من المدارس الثانوية والمتوسطة وعشرات من الابتدائيات للبنين والبنات؟

ارجعوا إلى الوراء عشرين سنة أخرى، ووسعوا هذه الأسواق وجمّلوا الصورة قليلاً تروا دمشق قبل الحرب العالمية الأولى. ما كان فيها شارع تمشي فيه السيارات وما كان فيها سيارة، أول شارع فيها شقه جمال باشا سنة ١٩١٦، أنا أذكر فتحه، وفي تلك السنة جاءت دمشقَ أولُ سيارة، وخرج الناس إلى آخر البلد (وآخر البلد يومئذ رأس سوق الحميدية)، فلمّا رأوها آتية، وكانت من سيارات «فورد» الأولى ذات الدواليب الرقيقة والرفارف والسقف من قماش، قالوا: كيف تمشي ولا يجرها حصان ولا بغل؟ فقال أحد الناس: تسيّرها الجن! فلما سمع الناس اسم الجن ولّوا هاربين متزاحمين، ووقعنا نحن التلاميذ الصغار من الزحام بين الأقدام.

كانت الأسواق كثيرة عامرة، ولكن الحارات والدروب لا تختلف إلا قليلاً عن حارات الرياض التي زرناها أول مرة، وعن حارات القاهرة ودربونات بغداد. وكان المار بأبواب البيوت يظن أنه يمر بمخازن التبن؛ لا نوافذ ولا شرفات وإنما هي جدران قائمة، فإذا جاز الأبواب رأى قصوراً وجنات وأبهاء و«قاعات» وأواوين، يضحك فيها الرخام والمرمر وتظللها الدوالي ومعروشات الياسمين، وتغني على أغصانها الطيور وترقص على غنائها في البِرَك النوافير.

تلكم الدور الشامية التي قفزت على طول بحر العرب (البحر الأبيض المتوسط) إلى الأندلس، فولدت الزهراء والحمراء وتلك القصور الغراء التي ترونها اليوم في المغرب.

كانت بيوتنا كما كانت نساؤنا: جمال يسبي القلب ويأسر اللب، ولكنه محجب عن غير أهله. ولكن تلك الدور -على جمال بنائها، وبراعة نقوشها وزخارفها، وثراء فنها- كانت مخالفة لقوانين الصحة كلها؛ أواوينها[1] تستدبر الشمس دائماً في بلاد يمتد شتاؤها سبعة أشهر، نوافيرها التي تجلو البصر وتبدو -حين تسقط عليها الشمس- كأن فيها عشرة آلاف حجر من الألماس[2]، هذه النوافير ماؤها ملوَّث تحمله من بردى أنهارُ دمشق السبعة التي تمشي في أرباضها ثم في حاراتها مكشوفة مفتحة القلب لكل ما يُلقى فيها من أذى ومن قذى!

---

(١) جمع إيوان، والكلمة مستعمَلة في الشام إلى الآن.
(٢) الألماس لا الماس، هذا هو اللفظ الصحيح خلافاً للقاموس المحيط.

ما كنا نعرف شيئاً عن سَرَيان الأمراض، بل كان منا من لا يفهم معنى «لا عدوى»، فكنا ننكره من جهلنا ونحمل هذا الجهل على الدين. الأطباء في دمشق كان يعدهم العادّ على أصابع إحدى يديه.

والعلماء... كان عندنا كثير من العلماء الأجلاء، ولكن علمهم كان علمَ تكرار وترداد لا علم ابتكار وإيجاد، علم رواية لا علم دراية، يعرفون كل ما في الكتب لكن لا يستطيعون حل مشكلة جدَّتْ بعد موت مؤلّفي تلك الكتب. وكانت الكتب التي يعكفون عليها هي كتب المتأخرين التي وُضعت بعد ضياع الملكة واستعجام الأساليب، مكتوبة على أسوأ طريقة عرفها المصنّفون: المتن والشرح والحاشية والتقرير... ثم لا يخرج منها الطالب بخير كبير، لأن همهم كان في قراءة الكتاب لا في فهم العلم. وكانوا يرون أن الاجتهاد قد سُدَّ بابُه والأخذَ من الكتاب والسنة قد ذهب أربابه، بل لقد صار الاجتهاد ذنباً، ولما اتُّهم به عالم دمشق الشيخ الجمال القاسمي ما نجّاه من مغبة هذه التهمة إلا التنصل والإنكار.

ولو ذهبت أفيض في تصوير حال دمشق في تلك الأيام لأخذت في ذلك وقت المحاضرة، فمن أراد أن يلمّ بالصورة فإنه يجدها في كتاباتي المنشورة.

لقد كنا -يا سادة- في عزلة، عزلة مادية وعزلة فكرية. كان أقرب بلد إلينا بيروت، وما كان لنا يومئذ إليه وصول إلا بشق الأنفس. كانوا يركبون إليه عربات «الداليجانس» التي ترون أمثالها فيما يعرضه عليكم الرائي (التلفزيون) من أفلام رعاة البقر واكتشاف الغرب الأميركي، ثم تحسّنت الحال فكان السفر إليها في أيامنا بالقطار. وأي قطار؟ قطار لا يزال يمشي ولا أظن أن له مثيلاً في الدنيا! أخذت إخوتي فيه إلى بيروت وأنا شاب، والمسافة بين دمشق وبيروت مئة كيل أو تزيد بضعة أكيال (أي كيلومترات)، فقطعها هذا القطار الفريد في إحدى عشرة ساعة فقط!

أما العزلة الفكرية فكانت أقسى من هذه العزلة المادية. وكان الناس -فوق ذلك- يعتقدون الخرافات ويصدّقون الدجالين، وكان ذلك يزيد أحياناً حتى يعكر صفاء عقيدة التوحيد في نفوسهم، وكان ذلك يصل إلى بعض العلماء والفقهاء؛ نعم، والحق أحق أن يقال.

ولكن كان لنا -مع هذا- بعض الاتصال بالحضارة الجديدة. كان عندنا أساتذة درسوا في جامعة إسطنبول[1]، وحصلوا من العلوم الحديثة (في الرياضيات والطبيعيات) شيئاً يُعَدّ كثيراً حتى بالنسبة لما كان عليه علماء الغرب في تلك الأيام، وكان عندنا كلية طب عمرها من عمري، ولي ابن عم تخرج فيها طبيباً ونال شهادة الطب منها سنة ١٩٢٠.

صحيح، لم يكن في البيوت ماء نظيف وما كنا نعرف أنابيب الماء، ولكن والي دمشق التركي ناظم باشا جرّ ماء عين الفيجة إلى «سُبُل» في الطرقات قبل مولدي، كما جاء الأتراك بشركة الكهرباء البلجيكية فمدت ثلاثة خطوط للترام في دمشق (نُزِعت

(١) أصلها «إسلامبول»، أي «مدينة الإسلام»، سماها بذلك السلطان محمد الفاتح رحمه الله.

أخيراً، وكانت على نمط ترام بروكسل الباقي إلى اليوم). ومُدّت أسلاك الكهرباء ولكن لم يُدخلها الناس إلا إلى بيوت قليلة، ولي مع الكهرباء حادث طريف كنت حدثت به في الإذاعة[1]. وكان في دمشق مدارس ابتدائية أكثرها أهلي، ومدارس للبنات، وثانويات كثيرة وإنما كان كثير منها أجنبياً.

ولكن كيف صرنا إلى هذه العزلة، العزلة عن العالم المتحضر وعن ثمرات حضارته؟ كيف تقدّمَنا مَن كان وراءنا؟ كيف سبقت الأمم وتأخرنا، وعلت وهبطنا؟

ألم نكن نحن حَمَلة راية الحضارة فيما يسمى القرون الوسطى؟ ألم يكن لدينا العلم والعمران والأدب والفن، وكان في بغداد مليونان من الناس على حين كان سكان أوربة يموجون في غاب من الجهل ومن شبه البداوة كما يموج بوحوشه الغاب؟ ألم يكن الدارسون من أهله المتطلعون إلى النور يَؤمّون مدارس الأندلس ومدارس مصر والشام؟ ألم يدهشوا منا أيام الحروب الصليبية كما يدهش العربي ابن القرية اليوم حين يزور باريس أو لندن أو نيويورك... ثم يأخذوا منا؟

نعم يا سادة، لقد كان مثلنا قبل ستين أو سبعين سنة مثل المسافر الذي كان على ذروة الجبل وكان الطريق ينحدر إلى وادٍ عميق، فلما بلغ الوادي هدَّهُ التعب وأضناه النعاس، فما عاد يذكر -لمّا غلبه النوم- الذروةَ التي هبط منها ولا الذروة المقابلة التي كان يقصدها، وظن أن مكانه في هذا الوادي، فسكن إليه واستقر فيه وقنع به، ولم يعد يدري ما وراء الجبلين.

الحضارات يا سادة منها (كما قال شبنكلر) حضارات محلية، لم تتجاوز بلدها ولم يمتدّ أثرها إلى غير أهلها، كحضارة الصين القديمة وحضارة المكسيك وبيرو، وحضارات عالمية اتصلت بغيرها وأعطتها وأخذت منها. وإذا أدرتم على المصوّر دائرة تجمع أعالي الجزيرة والعراق وأطراف فارس واليونان وروما ومصر والشام، لرأيتم أن الحضارات العالمية قامت كلها وسط هذه الدائرة.

ولرأيتم شيئاً آخر، هو أنها ابتدأت في شرقي هذه الدائرة في مصر وساحل الشام والعراق، ثم انتقلت إلى غربيها، إلى اليونان ومصر، ثم عادت إلى الشرق الإسلامي، ثم رحلت إلى الغرب. أي أن الحضارات العالمية كبناء من ثلاثة أدوار:

الدور الأول: دور الحضارات الأولى التي أقامها المصريون والبابليون والحثيون والفنيقيون، ثم اليونانيون والرومانيون.

والدور الثاني الذي أقامه المسلمون، من عرب وعجم وترك وغيرهم ممّن شارك في إقامة الحضارة الإسلامية التي نسميها أحياناً تساهلاً أو ظلماً بالحضارة العربية.

والدور الثالث دور الحضارة العصرية.

قد تقولون: إنك فضلت الحضارة المعاصرة على الحضارة الإسلامية حين جعلتها تعلو عليها، والجواب: إنما الدور الثالث

(١) وهو مذكور في مقالة «في الكُتّاب» المنشورة في كتاب «من حديث النفس»، ص٥١ (مجاهد).

أعلى من الثاني ولكن بمقياس الأذرع والأمتار، ولكن كثيراً ما يكون الأدنى أفخم من الأعلى بناءً، وأكثرَ جمالاً، وأجلَّ منافع. نعم يا سادة، إن حضارة اليوم أسبق في مجال المادة من حضارة الأمس بلا شك، ولكنّ في حضارة الأمس روحاً افتقدتها هذه الحضارة المادية.

لقد نصب أهل الدور الأول أصناماً من الحجر وأصناماً آلهة من البشر، فعبدوهم وأوقدوا الشموع على أقدامهم، ثم أغلقوا الأبواب والنوافذ وحجبوا ضوء الشمس وعاشوا على الضوء الخافت الذي تبعثه هذه الشموع.

أما أهل الدور الثالث فقد استبدلوا بأصنام الحجر أصناماً من «عقائديات» باطلة ومبادئ متوهمة، فمنهم من عبد المادة (وما المادة؟ إنها شيء مصنوع) ونسوا صانعها. ومنهم من ألّهَ التاريخ، أولئكم هم الماركسيون. وما التاريخ؟ إنه تصوير ما كان وليس له «حتمية» توجّه ما سوف يكون. ومنهم من قدّس العلم، وما العلم؟ إنه كشفٌ لما أودع الخالق من قوانين وسنن في هذا العالم المخلوق.

أما الدور الثاني، الدور الذي أقمناه نحن، فما نصبنا فيه أصناماً ولا ألّهنا فيه بشراً ولا عبدنا فيه من دون الله أحداً، وما أغلقنا نوافذ بيوتنا دون ضياء الشمس ولا أوصدنا قلوبنا أمام نور الحق؛ فكانت حضارتنا للروح وللنفس وللعقل وللجسد. وكذلك تتفق الحضارات في المظاهر المادية كاتفاق الناس كلهم في تكوّن أجسادهم، ولكن تختلف في روحها وجوهرها كاختلاف الناس في القيم والفضائل والأفكار.

فإن كانت حضارة اليوم أعلى في البناء وأسبقَ في مجال المادة، فلا شك أن حضارتنا كانت حضارة المادة والروح معاً. وهذا ما تتفرد به «الحضارة الإسلامية».

لقد استفدنا من الحضارات السابقة، نعم، ولكنا أعطينا مَن بعدنا أكثر ممّا أخذنا ممّن قبلنا. والحضارات والعلوم مُلكٌ مشاع للإنسانية كلها؛ لا جنسية للعلم ولا للأدب ولا للحضارة. وتعالوا ننظر، ما الذي أخذناه؟

أخذنا مبادئ في العلوم الرياضية والطبيعية[1] والطبية، استفدنا منها ولكنا زدنا عليها، وكان الذي زدناه أكثر مما استفدناه.

وأخذنا أشياء ضرتنا ولم تنفعنا، كالفلسفة اليونانية (البدائية) والعادات الفارسية المخالفة في جملتها للسلائق والفضائل العربية. حتى «المنطق» اليوناني الذي أوليناه من العناية ما لا يستحق عشره وأدخلناه في «هندسة» أسلوب التأليف في علوم الدين وعلوم اللغة، فعقّدنا به هذه العلوم وأبعدناها عن أفهام الناس.

وكل شيء يا سادة، كل شيء في الدنيا يولد ضعيفاً، ثم ينمو، ثم يعود إلى الضعف. فإذا رسمنا خطاً بيانياً لسير الحضارة الإسلامية نجده يبقى صاعداً إلى القرن الرابع، ثم يمشي مستقيماً إلى السادس، ثم ينحدر انحداراً خفيفاً إلى القرن التاسع، ثم يسرع بالنزول. حتى إذا جاء القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الذي أحدثكم عنه يكون قد وصل إلى الحضيض.

(١) القياس في النسبة إلى الطبيعة «طبعي»، ولكن «طبيعي» مستعملة من أكثر من ألف سنة.

لقد كان القرن التاسع قرنَ الجمع؛ لقد انتهى وقت الزرع والحصاد وجاء موعد الخزن، ففي القرن التاسع جُمعت الثمرات وخُزّنت مكدَّسةً مختلطة في معالم (دوائر معارف) في مثل «الإتقان» في علوم القرآن و«المزهر» في علوم اللغة و«نهاية الأرب» و«وصبح الأعشى» وأمثالها.

وفُقد الابتكار تماماً، وصار العلم تكراراً وإعادة، وصار الفقهُ أحكاماً بلا دليل، والفقيهُ راوِيةً بلا اجتهاد، والنحويُّ حافظاً بلا مَلَكة، والبلاغةُ أبعدَ شيء عن صناعة البيان. والأدب صار مقتصراً على حكم ابن الوردي وقصائد عصر الانحطاط، ونُسي شعر جرير وبشار وأبي تمام والبحتري. وقامت النهضة في أوربا وفُتحت مناهج جديدة في التفكير وكانت كشوف جديدة في العالم، وكان علينا -عملاً بتوجيهات ديننا- أن نأخذ بها لأن الحكمة ضالّة المؤمن، حيثما وجدها التقطها، ولأن الاستزادة من العلم من واجبات شريعتنا. ولكن كان يحكمنا العثمانيون، والعثمانيون الأوّلون كانوا مسلمين حقاً، فتحوا الفتوح الكبار ورفعوا راية الإسلام وأقاموا ثالث الدولتين الكبيرتين: دولة بني أمية بن عبد شمس ودولة بني العباس بن عبد المطلب... ولكنهم كانوا في ميدان الكرّ والفرّ أبرعَ منهم في ميدان العلم والفكر، فلم يلتفتوا إلى هذه النهضة ولم يأبهوا لها. و لم يهتم بها العلماء والباحثون، فتقدم العالَمُ ونحن واقفون في مكاننا، وسلك ركبُ القومِ الطرقَ الجديدة المفيدة وبقينا نحن على طريقنا، مغترّين بما عندنَا، نحسب أن الدنيا لا تزال كما كانت أيام الحروب الصليبية وأن علومنا وجهالتهم لا تزال كما وصفها البطل أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار».

فكان مثلنا ومثلهم كمثل وجيه القرية، كانت له عربة فخمة يجرها زوجان من أكرم الجياد، وكان يراها ويراها الناس معه خيرَ وسائل الانتقال، فاختُرعت السيارة وخُبِّر بها فما بالاها، وسمع أنها تحسنت وارتقت فما حفل بها وكتم عن أهل القرية خبرها، ولكنهم أصبحوا يوماً فإذا سائح يدخل القرية راكباً سيارة (كديلاك)!

ونحن أصبحنا يوماً فإذا الحرب العامة تنقضي، وإذا السد الذي كان بيننا وبين الغربيين يسقط، وإذا هذه الحضارة تدخل علينا فجأة. تدخل علينا بخيراتها وشرورها، بمحاسنها ومساوئها.

يا سادة، إن الذي يخرج من الغرفة المظلمة إلى ضوء الشمس، أو الذي يدخل من ضوء الشمس إلى الغرفة المظلمة، تمرّ عليه لحظات يزيغ فيها بصره فلا يستطيع أن يميز ما حوله، وكذلك كنا نحن سنة ١٩١٨.

وأنا (كما قلت لكم) إنما أصف ما رأيت وما سمعت، أبحث بحثاً شخصياً لا أتقصى ولا أستعين بالمراجع والكتب. لقد أصابت الناس صدمة المفاجأة؛ أمّا كثرتهم وجمهورهم فأغمضوا عنها عيونهم وأغلقوا عليهم أبوابهم، وتجاهلوها ولبثوا يعيشون كما تعودوا العيش، وقليلٌ منهم تنبهوا إليها واهتموا بها، ولكنهم كانوا كزائغ البصر من سرعة الانتقال، ففقدوا مؤقتاً حسّ التمييز بين الخير فيها والشر الذي جاء معها.

فكان منا نفر أعجبوا بها واستجابوا لها، وقبلوها على علاّتها وأخذوا كل ما جاءت به حتى الفسوق والعصيان. ومنا نفر، من

المشايخ، رفضوها كلها وأنكروها، وردّوا كل ما جاءت به، حتى حقائق علوم الكون ووسائل رفاهية الحياة.

وكانت حجة الأولين أن الغربيين أقوى منا وأشد تمدّناً، وأننا إذا أردنا أن نكون مثلهم في قوتهم فعلينا أن نسلك طريقهم، وأن التطور سنة الحياة، فمن وقف والقافلة تمشي ضلَّ أو هلك. وكانت حجة الآخرين أن هؤلاء أعداء ديننا، وأنهم لا يريدون إلا الشر بنا، وأن أجدادنا كانوا أقوَمَ منهم طريقة وأحسنَ منهم حالاً، والخير لنا في اتباع أسلافنا، وأن مَن يترك الطريق المسلوك ويسلك المسالك الجديدة المجهولة يضل أو يهلك.

وعندي أن كلاًّ منهما كان يتهيبها ويخافها، ولولا هيبته إياها وخوفه منها لاستطاع الصمود لها والحكم بالحق عليها.

قد تقولون: كيف يخافها مَن يجابهها ويرفضها؟

نعم، إن الذي يلقى الحَمَل الوديع الذي لا يخافه يواجهه بالدم البارد والعصب الساكن، أما الذي يواجه العدو المخيف فإنه -بمحاولته دفعه أو الانقياد له- إنما يعبّر في الحالين عن خوفه منه.

ومشى كلٌّ من الفريقين إلى آخر الطريق الذي اختاره؛ فصار في حياتنا إفراط وتفريط. من المشايخ الذين كانوا أساتذتنا مَن كان يبحث في علم الجغرافية مثلاً: هل يجوز تدريسه أم لا؟ لأنه يقرر أن الأرض كرة تدور والأرض -في رأيهم- مبسوطة ثابتة.

وهذا من العجب، لأن العلم يزداد أبداً والأفكار تتقدم دائماً إلى الأمام. فكيف ننكر في هذا القرن أن الأرض كرة وأجدادُنا قبل أكثر من ألف سنة قاسوا محيط هذه الكرة، والرقم الذي وصلوا إليه لا يختلف عن الرقم المعترَف به الآن علمياً إلا قليلاً؟

ذلك حين أرسل المأمون لجنتين؛ لجنة بعث بها إلى صحراء سنجار ولجنة إلى جهات تدمر، قاستا مسافة درجة واحدة ثم ضربا الرقم بمجموع درجات الدائرة (وهي ٣٦٠). وطريقة قياسها أن يرصدوا ارتفاع نجم القطب عن الأفق، ويمشوا شمالاً أو جنوباً حتى يزيد الارتفاع أو ينقص درجة واحدة، ثم يقيسوا المسافة بين النقطتين.

ومن الشبان أشياع هذه الحضارة مَن تنكّر لأصول الدين وأنكر فضائل الخُلُق الكريم، وظن أن الحضارة والتقدم في تقليد الغربيين في كل شيء وأن كل ما يجيء من الغرب خير ونفع وكل ما يأتي من الشرق شيء قديم بالٍ. ووقعت الحرب بين الفريقين، وكان سلاحها من هنا قذائف الزندقة والكفر ومن هناك قنابل الجمود والتخلف.

وصار عندنا لونان من الحياة، يعيشان معاً وهما مختلفان، كما تجري الماء في بردى حين التقائه بنبع الفيجة، فترى الماء من الجهة اليمنى عَكِراً مغبرّاً ومن الجهة الأخرى صافياً رائقاً، يمشيان كذلك نحواً من مئة متر، ثم يختلطان فيكون للنهر «لون» جديد، لا هو عكر بردى ولا صفاء الفيجة.

وهذا مثال الأمم كلها في عصور الانتقال: الرومان لمّا فتحوا بلاد اليونان واختلطوا بأهلها، والعرب والفرس في أوائل القرن الثاني للهجرة، ودمشق في أعقاب الحرب الأولى... بل إن هذه

الصورة لا تزال بقاياها فيها إلى اليوم، وهي هنا (في المملكة) أوضح وأبيَن. انظروا الشاب الذي عاد من أوربة أو أميركة وأباه؟ ألا ترون الاختلاف الظاهر بينهما في طريقة الأكل وفي فرش الغرفة، في نوع الكتب، في طريقة التفكير؟

وكان هذا الازدواج (أظهر ما كان) في أهل الفكر والعلم؛ فكان عندنا طبقة من العلماء الذين تعلموا في حلقات المساجد، لم يدخلوا المدارس ولم يتلقّوا علومها، يعرفون علم الدين معرفةَ روايةٍ لما في كتب المتأخرين من علماء الفقه والأصول والنحو والبلاغة، لا معرفة ملكة وفهم للنصوص الأصلية من الكتاب والسنة؛ إن سُئلوا عمّا في الكتب أجابوا، وإن سُئلوا عن مشكلة جدَّتْ بعد موت مؤلفيها توقفوا فيها وعجزوا عن حلها.

وطبقة من الذين درسوا في المدارس، قليلاً غالباً أو كثيراً أحياناً، من علوم الفكر (أي الرياضيات) أو الطبيعة، هضم بعضهم ما درسه وحفظه بعضهم بلا فهم، لم يلمّوا بعلوم الدين ولم يعرفوا حقائقه، فهم ينكرون الثابت منها إن خالفت ما تلقوه من علوم العصر.

وكان من النادر أن تجد رجلاً فَهِمَ من الدين ما لا يجوز لمسلم أن يجهله وعرف من علوم العصر ما لا ينبغي لمثقّف أن يجهله؛ أي أن يجمع بين الثقافة الإسلامية والثقافة العصرية، ولو على أدنى درجاتها وأول مراحلها. وكان ذلك مطلباً مستبعَداً وأملاً مرجواً، حتى لقد كتب في ذلك الأستاذ أحمد أمين[1] في السنة الأولى من سني مجلة «الرسالة» مقالة عنوانها «الحلقة المفقودة».

كانت الطبقتان تمشيان كأنهما الخطان المتوازيان، ولكن اتفق في أوائل عشر الثلاثين (أو الثلاثينيات كما يُقال في هذه الأيام)، أنه انعطف الخط الأيمن إلى هنا والأيسر إلى هناك، والتقيا فكان خط جديد ثالث، وكانت «الحلقة المفقودة». لقد صارت موجودة، وهنا أحب أن أقول كلمة أرجو ألاّ تؤاخذوني عليها، أقولها للتاريخ لا للفخر: لقد كان أول طلبة المدارس النظامية الذين درسوا مع الثانوية والجامعة علومَ الدين على المشايخ هو الواقف أمامكم، وأول طلبة الحلقات والمدارس الشرعية الذين استعدّوا لامتحان البكالوريا (أي التوجيهية) هو الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا، دخل هذا الامتحان بعدي بسنة واحدة، أي سنة ١٩٢٩. سبقته سبق زمان وهو أكبر مني سناً، وجاء بعدي الأستاذ المبارك والأساتذة محمد كمال الخطيب وأحمد مظهر العظمة، وهؤلاء كلهم من أعلام الدعوة في دمشق، ثم الدكتور أمين المصري. وجاء بعد الزرقا الدكتور الدواليبي، وتتالت الحلقات من السلسلتين اللتين التقتا في هذا الخط الجديد.

وامتد هذا الخط -بحمد الله وشكره- حتى صار منه سلسلة ثالثة، ذهبية الحلقات، تُعَدّ حلقاتها بالمئات.

* * *

(١) كان الاسم «أحمد علي» في الطبعات السابقة من هذا الكتاب، وهو= خطأ نقلته طبعة عن طبعة بلا تصحيح. انظر مقالة علي الطنطاوي «الحلقة المفقودة» في كتاب «فكر ومباحث»، وفي حاشيتها يقول: "أستعيرُ هذا العنوان من الأستاذ الجليل أحمد أمين في مقاله المنشور في العدد الأول من الرسالة، ١٨ رمضان سنة ١٣٥١" (مجاهد).

تلك -يا سادة- كانت بداية قصتنا مع هذه «الحضارة المعاصرة». وقد صار الحديث عنها تاريخاً؛ لقد طغت الآن هذه الحضارة علينا، علينا كلنا (وإن اختلف مبلغ طغيانها)، طغت علينا بأفكارها ومبادئها، بعاداتها وسلوكها، بنتائجها ومستحدثاتها، حتى صرنا (في جموع هذه الجوانب) أقربَ إلى أهلها منّا لما كان عليه آباؤنا وأجدادنا قبل مئة سنة.

أفلا يحسن بنا -وقد سرنا في هذا الطريق وقطعنا فيه أشواطاً- أن نقف قليلاً لنتبين هل نسير على هدى أم نمشي على ضلال؟

أنا هنا على هذا المنبر في مقام المؤتمَن، عليه أن يؤدي الأمانة، وأمانة المنبر هي النصح للسامعين، وديننا دين النصيحة، وعلى المسلم أن يقول ما يُرضي اللهَ ولو لم يُرضِ جميع الناس.

نحن -يا سادة- قد سرنا على الطريق قبلكم، ومصر سارت قبلنا، فإذا وقفنا وقفة مراجعة، وقفةَ سرور بالصواب وندم على الخطأ، فإن وقفتكم أنتم وقفةُ موازنة ووقفةُ تقرير.

نحن -كما قلت لكم- فوجئنا بهذه الحضارة ففقدنا حيناً من الوقت حس التمييز، وسرنا في طريقها مراحل قد يصعب الرجوع عنها. وأنتم تتلقونها بلا مفاجأة، تمشون على نور، وتستطيعون إذا ظهر لكم أنكم على ضلال أن ترجعوا إلى سواء السبيل.

كنا -يا سادة- نجهل أسرار هذه المخترعات، فكنا ندهش منها ونتحيّر أمامها، وتَمَيّزَ ذلك هَيبةً لأهلها في نفوسنا، أقررنا بذلك أم أنكرناه. أما اليوم فقد عرفناها؛ تلقينا علومهم وصار كثير منا من أركانها. أنقل لكم خبراً نُشر من يومين في الجرائد عن رئيس اللجنة الفنية لتدريب الملاحين الذين يصعدون إلى القمر من هيوستن، أفتدرون من هو الذي درب ملاحي «أبولو ١٣» وما قبلها؟

لقد نشروا اسمه وترجمته. اسمه فاروق الباز، مولود في الزقازيق سنة ١٩٣٨، أبوه شيخ أزهري لا يزال حياً وإخوته يعيشون معه في مصر.

وقرأت من يومين حديثاً بين أحد رجال السياسة من الشام وسياسي أمريكي زميل له في الأمم المتحدة، فقال له: تقولون إنكم من البلاد النامية وفي الولايات المتحدة ألف ومئتا طبيب عربي كثير منهم من بلادكم. ونحن هنا نحتاج إلى أطباء. وتعرفون أن أكبر جراح قلوب في أميركا، الدكتور دلفي، لبناني.

ولما ذهبت إلى ألمانيا وجدت في كل جامعة وفي كل مستشفى أساتذة وأطباء كباراً يتسلمون رياسات فنية، من سورية ومصر ولبنان والعراق والمغرب العربي، ووجدت في كولن (كولونيا) شاباً سعودياً مهندساً يترأس شعبة في شركة كبيرة، وعنده خمسة عشر مهندساً ألمانياً يأتمرون بأمره. وقرأت في جريدة «الحياة» أمس أن عربياً اسمه بشير جابر أظهر في ميدان الكهارب (الإلكترونات) نبوغاً أدهش الحكومة الألمانية، فأعطته جائزة ضخمة وجعلت له مرتباً شهرياً. والأمثلة لا تحصى ولا تستقصى.

لقد عرفنا أسرار هذه المخترعات ودرسنا العلوم التي أوصلت إليها، وما ظنه الجبرتي سحراً لمّا رآه في المجمع العلمي

الفرنسي في القاهرة على عهد الحملة الفرنسية صار يعرفه تلاميذ المدارس المتوسطة. فنحن الآن في موقف البصير المتثبّت، لقد زالت روعة المفاجأة وذهبت تلك الهيبة لهم من نفوسنا، ووجب علينا أن نأخذ أو ندع على بصيرة.

فما الذي نأخذه وما الذي نتركه؟

هذا هو لب الموضوع.

* * *

يا سادة، إن المنقب عن المعادن يجد الحجر لا يدري ممّ يتألف، فيأخذه إلى المختبر للتحليل. أي أنه يردّها إلى عناصرها الأصلية، ويميز الغالي منها من الرخيص والنافعَ منها من الضار. فإذا أردنا أن يكون حكمنا على هذه الحضارة صحيحاً فلنردّها إلى عناصرها التي تتألف منها.

إن هذه الحضارة تتألف من: عنصر عقائدي[1] وعنصر علمي وعنصر اجتماعي.

أما العنصر العقائدي فنرفضه كله، جملة وتفصيلاً.

ولست أريد أن أشرح معنى العقيدة لأني فصلته في كتابي الأخير «تعريف عام بدين الإسلام» الذي عرضت فيه العقائد الإسلامية عرضاً جديداً ما سُبقت إليه، والحمد لله الذي وفق إليه

(١) القاعدة أن النسبة إلى الجمع لا تجوز إلا إن جرى مجرى العَلَم، كقولهم: رجل أنصاري ومسألة أصولية.

وأعان عليه. ولكن أذكّر السادة السامعين بأن العقيدة ليست فكرة يستوعبها العقل الواعي، بل «بديهية» يمتلئ بها العقل الباطن، بديهية ولو بالنسبة لصاحبها، فهي تملأ نفسه وتوجّه حياته، ويظهر أثرها في كل عمل من أعماله وقول من أقواله وحالة من حاله[1]. لذلك كان من المستحيل أن يجتمع في النفس الواحدة عقيدتان مختلفتان.

وهذه العقائديات المخالفة للإسلام تكون تارة واضحة مكشوفة؛ كالدعوات الإلحادية الصريحة، والماركسية القائمة على المادية والمتمثلة في نظرية التضاد (الديالتيك)، والعلمانية (اللاييك)، والقومية العنصرية التي لا ترى في محمد إلا عبقرياً عربياً ولا تعرف رابطة إلا رابطة العروبة، ومثلها القوميات الأخرى التركية والإيرانية والكردية وغيرها... ومثال ذلك من المبادئ والمذاهب، فأنا هنا أمثّل ولا أستقصي.

وتكون تارة مغطاة محجوبة عن الأبصار، كالشُّبَه التي يوردها أكثر المستشرقين وتؤدي للشك في أصول الدين، وتسمية المحرَّمات بالأسماء التي تجرّئ عليها وتسهّل ارتكابها، كمَن يسمّي الربا عمولة، والخمور مشروبات روحية، والفسق المؤدي إلى الفاحشة فناً، والإلحاد حرية تفكير... وتسمية الطيبات بالأسماء التي تشوّه جمالها وتزهّد فيها أو تصرف عنها؛ كمن يسمي التمسك بأخوّة الدين طائفية، والحفاظ عليه تعصباً، والصلاح تزمتاً، ورفض الجديد الضار رجعية...

(١) حال جمع حالة.

ومن ذلك دخول عادات نصرانية في حياتنا ودَوَران أسماء وثنية على ألسنتنا، كتلقين الأولاد خرافة بابا نويل، وإلْفِنا ألفاظ «أبولو» و«الألعاب الأولمبية» (وكلا الاسمين من وثنية اليونان)، وإيقاد النار في بعض بلدان الإسلام على قبر «الجندي المجهول» تقليداً، مع أن الجندي المجهول، أي الشهيد، نضع في العادة على قبره غصناً أخضر إشعاراً بأننا نرجو له الجنة، لا أن نعلن أنه في النار يبدو لهيبها من قبره!

ومن ذلك تحريف المدلولات الإسلامية للألفاظ، فالشهيد هو الذي يُقتَل في سبيل الله، فقلنا «شهيد الوطن» و«شهيد الفن» و«شهيد الرياضة»... والمجاهد هو الذي يحارب لإعلاء كلمة الله، فجعلنا كل محارب مجاهداً. وجعلنا للجامعات حرماً فقلنا «حرم الجامعة»... ومن ذلك، أننا اتخذنا روابط غير رابطة الإيمان، فقلنا «أخوّة العروبة» و«الكشاف أخو الكشاف»، مع أن الرابطة الوثقى والأخوة الأولى هي أخوّة الإيمان: «إنما المؤمنون إخوة».

وقال الإفرنج (أعني الأجانب عموماً) بفصل الدين عن السياسة لأن دينهم عبادات فقط، فقلنا مثل مقالتهم، مع أن ديننا عبادات (أي دين)، ومعاملات (أي قانون مدني)، وعقوبات (أي قانون جزائي)، وقانون دولي وأخلاق. وقلنا -مثلهم- بفصل الدين عن العلم، ورددنا كلمة لا معنى لها، مشت على ألسنتنا حتى صارت من المسلَّمات عند كثير منا وهي كلمة «الدين لله والوطن للجميع»، وأقل ما فيها أنها تنفي الصفة الجماعية عن الإسلام وتقصره على العبادة الفردية.

إن «العقائديات» المبطَّنة المخالفة للإسلام قد دخلت علينا من كل جهة، ولها مصدران كبيران: الإلحاد والصليبية، وتكون مغطاة حيناً بغطاء العلم وحيناً ملفوفة بلفافة الفن، ومن أوسع مداخلها كتب المستشرقين، والمجلات، ووسائل الإعلام.

وأنا هنا أنبّه إلى الخطر وأشير إليه، أما التفصيل فيحتاج إلى محاضرات، بل إلى كتب. وإذا لم ينجح التبشير في إدخال أبنائنا في النصرانية فلقد نجح أعداء الإسلام (من المبشرين والملحدين وأعوان المستعمرين) في إخراج كثير منهم من الإسلام، أو زلزلته في نفوسهم، أو تشويه صورته في عيونهم.

وعلى الدعاة والعلماء ولجان التوعية ومدرّسي الدين واجب ثقيل (نسأل الله أن يعينهم على حمله) ليَثبُتوا لهذه الحملات ويردّوا مَن انحرف من الشباب إلى طريق الصواب ويقوا الصغار من أن يجرفهم هذا التيار.

الهجوم على عقيدة التوحيد -اليوم- عنيف وخطير، ويأتي ظاهراً وخفياً، تخطط له كما قلت من قبل عقول كبيرة جداً وشريرة جداً، وتؤيده جماعات قوية جداً وتنفَق عليه أموال كثيرة جداً. ونحن نترك هؤلاء ونشغل التلاميذَ في درس التوحيد بالرد على المعتزلة والجهمية وأمثالهم!

نحارب الأموات بسلاح الأمس، بالسيف والرمح، ونترك الأعداء الأحياء الذين يقاتلوننا بالصواريخ والقنابل الذرية!

* * *

أما العنصر العلمي فنقبسه كله؛ العنصر المشتمل على العلوم النظرية والعملية، ويمكن أن نتخذ الاصطلاح الجديد فنقول: العلوم والتقنية (وكلمة «التقنية» ليست تعريباً لكلمة «تكنولوجي»، بل هي عربية فصيحة، من الإتقان). نأخذ عن الغرب هذه العلوم كلها حتى نصير فيها مثل أهلها، ثم نفوقهم فيها، ثم نعود نحن (كما كنا) أصحابَها ونحن أربابها. لكن أشترطُ لذلك شروطاً:

الأول أمهد له بمثال، ولله المثل الأعلى. لو أن مخترعاً ركّب جهازاً جديداً ينفع الناس، ولم يشاركه أحد في اختراعه ولم يسبقه أحد إلى مثله، وأعدّ منه نماذج وضع عليها اسمه ليدل عليه وتُعرَف به وأهدى واحداً منها لك. هل يكون من الوفاء ومن كريم الأخلاق أن تستفيد من الاختراع وأن تهمل ذكر المخترع، أو تعمل على أن يُنسى اسمه؟ أليس من أظهر الواجبات أن يُذكَر دائماً وأن يُشكَر؟

لذلك أرى أن يكون الشرط الأول، حين نتعلم القانون الطبيعي أو نعلمه تلاميذنا أو نستفيد منه تطبيقاً، أن نذكر مَن وضعه، وهو الله رب العالمين. فتكون هذه العلوم دالّة على الله مثبّتة للإيمان به.

الثاني: أن نذكر حين ندرس هذه القوانين مقرونة بأسماء العلماء (قانون أرخميدس، وقانون لافوازيه، وقانون نيوتن، وأمثالها) أن هؤلاء العلماء ما أحدثوا هذه القوانين، ولكن كشفوها فنُسبت إليهم وعُرفت بهم. إنهم ما أوجدوا مفقوداً ولكن أظهروا موجوداً.

الثالث: أن نفرّق بين القانون الثابت الذي وضعه الله وجعله سنّة من سننه في الكون ما له تبديل ولا تحويل، وبين النظرية. وهي افتراض يفترضه العالِم، مرحلة بين المشاهدة والتجربة، فإن ثبت بالتجربة أنها صحيحة كانت هي القانون، وإلا سقطت وأُبطلت وراح يبحث عن نظرية أخرى.

الرابع: أن نعلم أن الإسلام لا يمكن أن يكون فيه نص قطعي ينافي ويناقض الثابت في العلم الثبوت القطعي، لأن الذي أنزل القرآن هو الله والذي وضع القانون الطبيعي هو الله، ويستحيل أن يخلق الله خلقاً ثم ينزل قرآناً بنفيه.

بقي العنصر الاجتماعي: هل نقبله أم نرفضه؟ المسألة فيها تفصيل:

أما ما يتصل بتخطيط المدن، وتمديد الشوارع، وترتيب الحدائق، ونظافة البلد، وتوفير المرافق، والعناية بالصحة، وفتح المستشفيات، وضمان الراحة العامة، واحترام الفرد وضبط المواعيد، وما هو من هذا القبيل... فهذا نأخذه ونصنع مثله.

أما ما يتعلق بالمرأة وما يسمى «الأمور الجنسية» فإن الذي هم عليه لا يرتفع عن حال البهائم، بل ربما هبط عن حال البهائم والعجماوات، وهي أوضارٌ علينا إبعادها عنا.

ولقد كنت أخطب الجمعة من سنين في مسجد آخن (إكس لاشابيل)، وكان يستمع إليّ بعض القساوسة الألمان، كنا معهم في مناقشة طويلة قبل الصلاة، فسمعوا مني مثل هذا الكلام فلم ينكروه، بل اعترفوا به وأقرّوه.

ولقد قلت إننا إن أخذنا منهم الجانب الاجتماعي التنظيمي فلا نأخذه لمحض التقليد لهم والاقتباس منهم، بل لأنه من قواعد ديننا وكان من ركائز حضارتنا. عمر لما أمر بتخطيط الكوفة قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف القرن جعل عرض الشارع الكبير أربعين ذراعاً والوسط عشرين. والنظافة من شعائر ديننا، نظافة البدن والثوب والمكان، النظافة المادية والنظافة المعنوية. والخدمات العامة، والضمان الاجتماعي، ورعاية الدولة للعاجز والمُقعَد والأعمى كانت على أيام الوليد بن عبد الملك شاملة للجميع، بل لقد جعل عمر من قبل رواتب (عطاء) لأفراد الأمة جميعاً. والمستشفيات العامة المنظّمة مثل تنظيمها اليوم كنا أول من أقامها.

أما ضبط المواعيد وصدق القول والتزام الحق، فإن الإسلام لا يتساهل فيها أبداً؛ فإذا كان أصحاب الحضارة المعاصرة أخذوا بحظ أكبر من هذه المسائل واضطررنا لمجاراتهم فيها، فإنما نتبع بذلك أحكام ديننا، نستعيد ما تركناه منه ونحيي فيه طريقة أجدادنا. وجمهور المسلمين اليوم -بتفريطهم بهذه الواجبات الدينية- صاروا وراء الأمم وغدوا حجة لأعداء الإسلام، حتى قال جمال الدين الأفغاني كلمته العظيمة: الإسلام محجوب بأهله.

هذا، ولا يُظَن أن أهل أوربة وأميركة لا يغشون ولا يكذبون، أو أن صدق مقالتهم وسلامة معاملتهم كما كان المسلمون الأولون. لا، ولقد كان المسلمون (ولا يزال كثير منهم) يقولون الحق ويعاملون بالعدل ابتغاء رضا الله، سواء عليهم أرَبِحوا بذلك في الدنيا أم خسروا. وأولئك يصدُقون ليضمنوا بقاء زبائنهم واستمرار أرباحهم، فإن تمّ لهم ذلك بالغش غشّوا. وليس غشهم «بسيطاً» كغش مَن يخلط الحليب بالماء أو يخلط الفاكهة الرديئة بالفاكهة الجيدة، ولكنه غش علمي متقن: يقدمون لك السمن له لون السمن وريحه وما فيه شيء من زبد اللبَن، والعطور، عطر الورد وعطر الفل وهي مستخرجة من القطران... إن في المصنع كيميائياً عالِماً ليغش، وفي الدولة كيميائي عالِم ليكشف الغش!

على أن أوجَبَ ما ينبغي أن نقتبسه منهم (وهو مما طلبه منا ديننا) المحافظة على الوقت، وأن نترك هذه العادات الذميمة: إضاعة الساعات الطوال في المقهى، أو في اللعب، أو في الكلام الفارغ.

لقد درت مدن ألمانيا الغربية كلها فما وجدت مثل مقاهينا، أو حتى مقاهي باريس، ولا وجدت مَن يمشي متسكّعاً يتمايل؛ إنما يَمضون مسرعين إلى غاياتهم، فالوقت هو رأس المال. وليس في لغات البشر كلها نص أبلغ ولا أسمى في بيان قيمة الوقت من سورة العصر، لذلك قال الشافعي: لو لم يُنزل الله إلا هذه السورة لكفت الناس.

* * *

أما ما يتعلق بالمرأة فها هنا بيت الداء، ومن هنا أصل البلاء. لا لأن المرأة ذاتها شيء رديء، معاذ الله؛ فالنساء شقائق الرجال، والله سوّى بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات وفي الثواب والعقاب، وكرّم الله بني آدم نساءً ورجالاً.

ولكن جوهر المسألة أن الله غرز في نفس الرجل الميلَ إلى المرأة ليصل إليها بالزواج، بالرباط الثابت الذي يتحول إلى مودة

ورحمة وصداقة باقية بقاء العمر، ويثمر الذرية الصالحة، فيكون «وسيلة إنتاج» أمة جديدة صالحة. لا ليصل إليها بالنزوة العارضة التي تطفئ غلة الشوق لكن لا تدوم ولا تنتج.

فأراد هؤلاء القوم أن يصرفونا عن وضع هذه القوة مواضعها، وأن يحوّلوها من وسيلة منتِجة إلى طاقة مهدورة. كمَن يأتي إلى محطة الكهرباء التي تنتج القوة الهائلة، فبدلاً من أن يستعملها في إدارة المصانع وتسيير القطارات وفي النافع المفيد، يستعملها في إطلاق صواريخ العيد وتحريك مراكب التسلية في (اللونا بارك).

إن أعداء الإسلام دخلوا علينا من بابين: باب الشبهات وباب الشهوات. والشبهات أخطر بنتائجها لأنها تؤدّي إلى الكفر، ولكن الشهوات أشد بطبيعتها؛ إذ إن الشبّان لا يستجيب منهم للشبهة إلا قليل، أما ما يثير الغرائز ويحرّك الرغبات فيلقى الاستجابة عند الجميع، وإن كان منهم مَن يصبر ويقاوم ويطوي جوانحه على مثل النار الآكلة ابتغاء ثواب الله وخوفاً من عقابه.

الأولى كالمرض الذي يقتل ولكن عدواه بطيئة والوقاية منه ممكنة، والثانية كالمرض الذي يُضني وإن كان لا يفني، ويضعف وإن كان لا يميت، ولكن عدواه سريعة والتوقّي منه صعب. اجمع مئة شاب واجلب لهم عشرة من أقدر الوعّاظ ليلقنوهم العفاف والصيانة سنة، ثم اجلب لهم راقصة تتعرى أمامهم، تهدم هذه الراقصة في ربع ساعة ما بناه أولئك كلهم في سنة. ذلك لأن النفوس مجبولة على هذه الشهوة، إنها غريزة غرزها الله فيها.

يا سادة، من نحو شهر ألقيت هنا، في الرياض، بدعوة من لجنة التوعية محاضرة عنوانها «قصة تحرير المرأة». لست أعيدها طبعاً، ولكن أذكر مما بينته فيها من أن قاسم أمين لم يأت بكتابه «تحرير المرأة» ابتداءً، بل سبقه إلى أكثر ما فيه مرقص فهمي القبطي، وأشار إليه اللورد كرومر على أنه من أماني الإنكليز. فالحركة أجنبية، ولكن أعان عليها أن المرأة كانت -يومئذ- على حال من القهر والظلم لا يرضى بها الإسلام ولا تشبه وضع المرأة في الإسلام. ولو أن علماء المسلمين دعوا إلى «تحريرها» باسم الإسلام وضربوا لها المثل الكامل بالمرأة المسلمة لما تركوا لقاسم أمين ولا لغيره مجالاً لمقال، ولكن سكتوا وكأنهم رضوا، فبرز أولئك فتكلموا وأنكروا، وقالوا بتحريرها باسم الغرب وجعلوا قدوتها المرأة الغربية فجرّوا علينا هذا البلاء كله، ولكن علماء المسلمين بسكوتهم يحملون قسطاً من هذه التبعة.

يا سادة، إن السيل إذا انطلق دمر البلاد وأهلك العباد، ولكن إن أقمنا في وجهه سداً وجعلنا لهذا السد أبواباً نفتحها ونغلقها، صار ماء السيل خيراً ونفَعَ وأفاد.

وسيل الفساد، المتمثل في العنصر الاجتماعي، مر على مصر من خمسين سنة، وعلى الشام من خمس وعشرين أو ثلاثين، وقد وصل إليكم الآن. فلا تقولوا: نحن في منجاة منه، ولا تقولوا: نأوي إلى جبل يعصمنا من الماء. ولا تغترّوا بما أنتم عليه من بقايا الخير الذي لا يزال كثيراً فيكم ولا بالحجاب الذي لا يزال الغالب على نسائكم؛ فلقد كنا في الشام مثلكم، إي والله، وكنا نحسب أننا في مأمن من هذا السيل. لقد أضربت متاجر دمشق من ثلاثين سنة أو أكثر قليلاً وأغلقت كلها، وخرجت مظاهرات الغضب

والاحتجاج لأن مديرة المدرسة الثانوية مشت سافرة. إي والله، فاذهبوا الآن فانظروا ما حال الشام!

دعوني أقل لكم كلمة الحق، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس: إن المرأة في جهات كثيرة من المملكة قريبٌ وضعُها من وضع المرأة المصرية يوم ألّفَ قاسم أمين كتاب «تحرير المرأة»، فلا يدع العلماء مجالاً لقاسم جديد.

هذا الخطر لا يحارَب بالأسلوب السلبي، بطريقة الرفض والإبقاء على القديم. إن بنت بنتي (وهي الآن على عتبة الزواج) لا أستطيع إلزامها بالزي الذي كانت تتخذه أمي، ولا الشرع ألزمها به ذاته؛ بل منعها من كشف العورات وترك لها اختيار الزي الذي يسترها ولا يستجلب الأنظار، ويوافق الزمان، أي الزي الساتر الأنيق. إنني لا أستطيع أن أسيّرها على خطى أمي تماماً، ولكن عليّ ألاّ أدعها تخالف الشرع.

إن ما يتعلق بالمرأة من الحضارة المعاصرة هو الثغرة الكبرى التي دخل علينا منها العدو. لقد كان نصره علينا ساحقاً. نعم، هذه هي الحقيقة، فلماذا لا نعترف بها؟ إن الاعتراف بالهزيمة دليل على بقاء القوة في أعصاب المهزوم وعلامة على أنه قادر على استرجاع النصر إن خاض المعركة من جديد.

لقد نالوا منا جميعا؛ لم ينجُ منهم تماماً قطر من أقطار الإسلام. إنه لا يستطيع أحدٌ منّا أن يقول إن حال نسائه اليوم كما كانت حالهن قبل أربعين سنة أو ثلاثين. ولكن «الإصابات» -كما يُقال- ليست على درجة واحدة؛ فمن هذه الأقطار ما شمل السفورُ والحسور نساءَه جميعاً أو الكثرةَ الكاثرة منهن، ومنها ما ظهر فيه واستعلن وإن لم يعمّ ولم يشمل، ومنها ما بدأ يقرع بابه ويهمّ بالدخول أو قد وضع رجله في دهليز الدار، كهذه المملكة، لا سيما جهات نجد وأعالي الحجاز.

فإذا كان علينا مقاومة المرض الذي استشرى فإن عملكم أسهل، وهو التوقّي وأخذ «اللقاح» الذي يمنع العدوى.

أعود فأقول إن السلبية لا تفيد والجمود في وجه السيل الطاغي لا يجدي، بل لا يمكن. فادرسوا أوضاع البلاد الأخرى: كيف دخل هذا التكشف وهذا الانحلال إليها؟

لديّ رصيد لا يكاد ينفد من الأمثلة عما يجري في بيوت بعض من ينتسب إلى الإسلام، من التكشف والاختلاط في جامعاتهم التي وصلت إلى حد إقامة مسابقات لانتخاب ملكة جمال الكلية والحكام من الطلاب، إلى أن تنشر الجرائد من أيام أن معركة وقعت بين فريقين من الطلاب كلهم دون الثامنة عشرة في ثانوية مختلطة، وسبب المعركة نزاع على إحدى الطالبات. إلى أن مجلة مشهورة في بلد معروف قد وضعت على غلافها عنوان مقالة فيها، وهذا العنوان هو: «ثلاثة تقارير لثلاثة أطباء كبار تثبت أن أربعين في المئة من الجامعيات فقدن العذرية!»...

كنت أريد أن أتوسع في الكلام على الناحية النسائية من هذه الحضارة وعلى حال الشباب فيها، ولكني ألقيت من شهر محاضرة هنا عن هذه الناحية، وألقيت في جامعة الملك عبد العزيز من



قبل سنتين محاضرة عن «مشكلات الشباب» تحدثت فيها عنها بالتفصيل، فلا مجال لإعادة المقال.

* * *

إن علينا أن نُفهم الفتاة العربية، أو الفتاة المسلمة، حقيقةً لا نزاع فيها، سمعنا عنها من الثقات ورأيناها، رأيتها أنا في أوربة رأي العين، وهي: إن المرأة في أوربة ليست سعيدة ولا مكرَّمة؛ إنها ممتهَنة، إنها قد تكرَّم مؤقتاً وقد تربح المال ما دام لديها الجمال، فإذا فرغوا من استغلال جمالها رموها كما تُرمَى ليمونة امتُصَّ ماؤها. فكيف نُفهم المرأة عندنا هذه الحقيقة؟ كيف نقنعها بأن الإسلام أعطاها من الحق وأولاها من التكرمة ما لم تنل مثلَه المرأةُ الأوربية أو الأمريكية، وأنه صانها عن الابتذال و لم يكلفها العمل والكسب؟

كيف؟ أنا أقول لكم كيف. بالفعل لا بالقول؛ بأن نعاملها المعاملة التي يرتضيها لنا ديننا، بأن نعتبر الخيّرَ فينا مَن كان يعامل امرأته وبناته بالخير، أن تكون المرأة المسلمة اليوم كما كانت في صدر الإسلام. اقرؤوا إذا كنتم لا تعرفون تروا أنها لم تكن تعامَل كما يعامل كثيرٌ منا نساءَهم.

يا سادة، العفو إن أطلت عليكم، وسأختم محاضرتي ملخِّصاً ما قلته في كلمات معدودات.

إن الحضارة المعاصرة -كما سمّاها مَن دعاني لهذه المحاضرة- قد خالطتنا وغلبت علينا، شئنا أم أبينا. وقد فاجأتنا مفاجأة أزاغت أبصارنا وأفقدتنا ملَكة الحكم عليها فترة من الزمن، انقضت الآن وصرنا نستطيع أن نحاكمها وأن نفرّق بين خيرها وشرها، فلا نرد خيراً لأنه جاء من عند غيرنا ولا نقبل شراً لأن أصحابه أكثر حضارة منا.

فما يفسد العقيدة أو يخالفها، وما يطلق الشهوات ويكشف العورات، أو يدعو إلى هتك العرض وتقليل النسل وضياع العفاف وارتكاب المحرَّمات، فهذا يجب وجوباً لا تساهلَ فيه أن نرفضه. وإن كان قد وصل إلينا وداخَلَنا فعلينا أن نتخلص منه ونناأى عنه، وأن نفكر تفكيراً جماعياً شورياً بأسلوب هذا الرفض وفي طريق هذا الخلاص المنشود. وما كان من العلم بقوانين الطبيعة وسنن الله في هذا الكون فعلينا أن نُقبل عليه وأن نَجِدّ فيه، وألاّ نكتفي منه بالعلم النظري بل نجمع معه التطبيق العملي.

ونسأل الله أن يمدّنا بعونه وأن يسدد خطانا. قولوا: آمين.

والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *



الطَّبعةُ الخامسة ٢٠٠٤
٣٠٢ صفحةً من القطعِ المتوسِّط (١٤×٢١)

دار المنارة للنشر والتوزيع